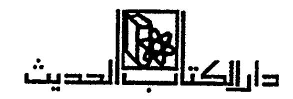
أثر القرآن الكريم
فى
الأمن النفسى

الكاتبة/ ناهـــــد الخراشى

دار الكتاب الحديث

الطبعة الرابعة

1423 هـ / 2003 م



القاهرة	94 شارع عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة ص.ب 7579 البريدي 11762 هاتف رقم : 2752990 (202 00) فاكس رقم : 2752992 (202 00) بريد إلكتروني : kdh@eis.com.eg & Dkh_cairo@yahoo.com
الكويت	شارع الهلالي ، برج الصديق ص.ب : 22754 – 13088 الصفاه هاتف رقم 2460634 (965 00) فاكس رقم : 2460628 (965 00) بريد إلكتروني : ktbhades@ncc.moc.kw
الجزائر	B. P. No 061 – Draria Wilaya d'Alger– Lot C no 34 – Draria Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail dkhadith@hotmail.com
رقم الإيداع	1987/ 3755


بسم الله الرحمن الرحيم



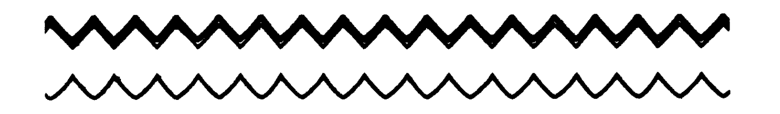
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾

[الحشر]

صدق الله العظيم





إهداء

إلى من أرشدتنى إلى طريق الإيمان والهدوء النفسى

إلى من زرعت فى نفسى بذور الأمن والاطمئنان القلبى

إلى إشراقة النور فى حياتى

إلى نبع أيامى المتدفق

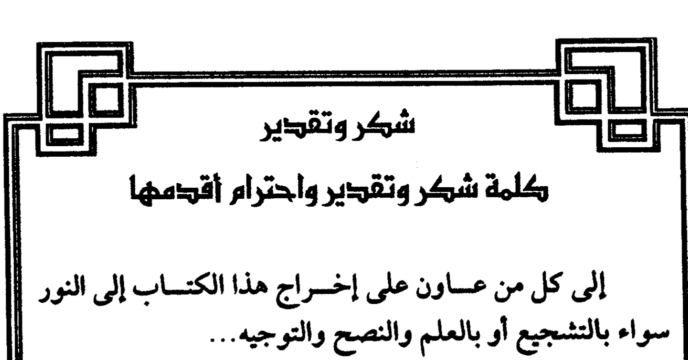
إلى الحنان المتجسد فى صورة إنسان

إلى روح أمى أهدى هذا الكتاب

حبا لها... وبرا بها ...







شكر وتقدير

كلمة شكر وتقدير واحترام أقدمها

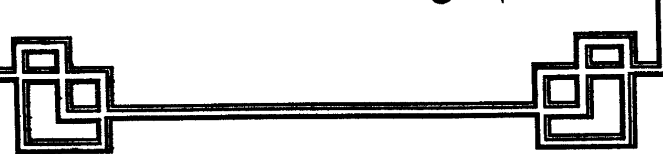
إلى كل من عـاون على إخـراج هذا الكتـاب إلى النور سواء بالتشجيع أو بالعلم والنصح والتوجيه...

إلى من توجـهوا بالدعـاء إلى الله عـز وجل من أصحـاب القلوب الطيبة والنفوس الخيرة بالتوفيق والسداد...

إلى كل قارئ انتـفع بما ورد فى الكتاب واجتـهد فى علم ينفع المسلمين والإسلام...

إلى كل نقـد بناء يـصـحح مـسـار الاجـتـهـاد فى العلوم الإنسانية تحت ظلال القرآن...

لهم جميعا منى كل الشكر والعرفان داعية الله عز وجل أن يكتب لى ولهم الـصلاح والإصـلاح وأن يزداد حـاملى السـلام والحب فى طريق الخير على الأرض الطيـبة أرض مصر.. أرض الأمن والسلام.. منبع الحب والأمان.



تمت مراجعة هذا الكتاب بإدارة البحوث والتأليف
والترجمة بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف.
والمؤلفة إذ تحمد الله سبحانه وتعالى أن وفقها فى
تأليف هذا الكتاب، لا يسعها إلا أن تقدم خالص الشكر
للعلماء الأفاضل رئيس وأعضاء الإدارة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر
مجمع البحوث الإسلامية
الإدارة العامة
للبحوث والتأليف والترجمة

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

السيدة / ناهد عبد العال الخراشي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ... وبعد ...

فبناء على ما جاء بطلبكم بخصوص فحص كتاب « أثر القرآن في الأمن النفسي » وهو من تأليفكم .

نفيد بأن هذا الكتاب مفيد لطالب العلم والمعرفة وليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الإسلامية ولا مانع من طبعه ونشره على نفقتكم الخاصة

ونتمنى لكم التوفيق لخدمة الإسلام والمسلمين

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تحريرا في ١٨ من رجب ١٤٠٧ هـ
١٨ من مارس ١٩٨٧ م

مدير عام
البحوث والتأليف والترجمة

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من أشرقت الدنيا بنور وجهه الكريم وعظم به أمر الدنيا والدين وانقشعت برسالته ظلمات الجهل واهتدى بهديه التابعون إلى يوم الدين.

وبعد،،،

لقد كان من توفيق الله، وفضله العظيم أن هدانى لكتابة هذا الكتاب فى محاولة للتعرف على جانب من الجوانب الفريدة التى يحتويها القرآن الكريم المعجز..

وإن الحديث عن القرآن الكريم لا يمكن أن ينتهى بهذا الحيز المحدود من هذه الصفحات التى يحتويها هذا الكتاب، فالقرآن هو الفيض الإلهى الذى يملأ الدنيا أدبا وعلما، ورأيا وعقلا، وحكمة وتهذيبا وتوجيها وإرشادا.

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾

[الإسراء: ٩].

وصدق الرسول الكريم حين يصف القرآن فيقول:

«فيه نبأ ما قبلكم، وخير ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا، إنا سمعنا

قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد، ومن قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم»[1].

فلقد تضمن القرآن الكريم من العلوم والمعارف ما يضيء لنا الحياة ويجيب على كل ما نفكر وتحتار فيه عقولنا فيكون مصباحا منيرا.. ونبراسا مضيئا لنا فى الطريق.. فهو أصل كل العلوم.. فيه كل ما يتطلبه ويحتاج إليه الإنسان فى نشأتيه الدنيوية والأخروية.

والسير فى رحلة القرآن الكريم لا تتوقف أبدا.. فهى رحلة روحية تنقلنا من علم إلى آخر، ومن معرفة إلى أخرى، ومن مكان إلى مكان.. فالرحلة طويلة وجميلة وشيقة ولكن اسمح لى أيها القارئ أن نقف هنا وقفة عند الحديث عن النفس الإنسانية والتعمق والتبصر فى آيات النفس البشرية فى جميع أطوارها ومراحلها فى محاولة لمعرفة هذه النفس العجيبة كما تحدث بها القرآن الكريم وكما أرادها الله عز وجل أن تكون، لتحمل صاحبها على أداء الأمانة وتحقيق الرسالة التى من أجلها خُلق، ولأجلها يحيا فى هذه الحياة الدنيا وهى عبادة الله سبحانه وتعالى فيحظى بعطائه ورضاه وبذلك يستحق أن يكون خليفة الله فى الأرض.

ولن يتم ذلك إلا بالتعمق فى النفس الإنسانية ومحاولة معرفتها وفهمها فهما طيبا مؤسسا على القرآن الكريم.. دستور الحياة ومنهاج الطريق.

فلقد حث القرآن الكريم الإنسان على التفكير فى نفسه، وفى عجيب خلقه ودقة تكوينه، وهو بذلك يدفع الناس إلى دراسة النفس ومعرفة أسرارها، فمعرفة النفس تؤدى إلى معرفة الله سبحانه وتعالى.

وفى هذا المعنى قال النبى صلوات الله عليه وسلامه:

«من عرف نفسه فقد عرف ربه»، وقال أيضا «أعرفكم بنفسه أعرفكم

(١) رواه الترمذى فى كتابه السنن ج٢، ص١٤٩، ط الأميرية

بربه»[1] وفضلا عن ذلك فإن معرفة الإنسان لنفسه تساعده على ضبط أهوائها، ووقايتها من الغواية والانحراف، وتوجيهها إلى طريق الإيمان والعمل الصالح والسلوك السليم مما يهيئ للإنسان الحياة الآمنة المطمئنة ويحقق له السعادة في الدنيا والآخرة[2].

ففي كتاب الله دعوة صريحة إلى التأمل في النفس الإنسانية وما تنطوي عليه من أسرار وآيات:

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾

[الذاريات: ٢٠، ٢١].

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ... (٥٣) ﴾

[فصلت: ٥٣].

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ... (٨) ﴾

[الروم: ٨].

وقد ورد في القرآن الكريم آيات عن النفس والروح وكيفية خلق الأبدان ومنحها الروح والقوى النفسية المدركة والحلم والرؤيا وحياة الروح بعد الموت وغير ذلك مما يتعلق بالنفس الإنسانية[3].

وكتاب الله حافل بالآيات التي تصف النفس الإنسانية في مختلف حالاتها: سوية وشاذة، صاعدة وهابطة، خيرة وشريرة، مقبلة ومعرضة، مؤمنة وكافرة، لاصقة بالطين أو مرفرفة في عالم النور[4].

---

(١) عن أبي حامد بن محمد الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص٦، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٥.

(٢) د. محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، ص١٩.

(٣) د. محمد عثمان نجاتي: الإدراك الحسي عند ابن سينا، بحث في علم النفس عند العرب، ص٢٠.

(٤) محمد قطب: دراسات في النفس الإنسانية، ص٥، ٦.

ولا شك أن هذه الآيات قد أثارت التفكير عند المسلمين فى موضوع النفس فتكونت عندهم فى هذا الشأن آراء كثيرة[1]، [2] وتعددت معامل النفس وتكونت فرق البحث المختلفة وقدم لنا العلماء السابقون من المسلمين كنوزا ثمينة فى هذا المجال تعتمد على أسس ثابتة من القرآن الكريم والسنة المحمدية الشريفة ومن أصدق من الله قيلا ومن أوثق من النبى حديثا ﷺ.

وقد غفل المسلمون عن كثير من كنوزهم هذه فترة من الزمن مر فيها موضوع علم النفس - ولا يزال بأطوار مختلفة - قام فيه الغرب المادى بتشييد علم النفس الحديث على أساس حضارته المادية فلم يظفر علم النفس الحديث فى ميدانه بأرض صلبة ثابتة يقف عليها كالتى ظفر بها العلماء السابقون من المسلمين[3] فأصبح ما توصل إليه علم النفس الحديث من نتائج لا تتفق مع أسسنا وأصولنا الثابتة التى تنبع من القرآن الكريم والسنة وترتب عليها فساد اجتماعى واقتصادى وخلقى وفكرى وروحى يعانى منه إنسان العصر الحديث. فمن الواضح أنه بالرغم من التقدم الهائل الذى حدث فى العصر الحديث فى جميع وسائل الحياة، يعيش الإنسان خائفا.. هلعا.. قلقا.. فزعا وذلك فى أكثر دول العالم تقدما مثل ذلك ما نراه فى الولايات المتحدة الأمريكية وهى الدولة التى بلغت فى تقدمها مبلغا مذهلا فهى من أعظم بلاد العالم تقدما وحرية. ففى الولايات المتحدة الأمريكية تقع جريمة قتل كل ٤٣ دقيقة وجريمة اغتصاب امرأة كل ١٩ دقيقة وجريمة سرقة كل دقيقتين وجريمة سطو على المنازل كل ٢٠ ثانية وسطو على السيارات كل ٤٨ ثانية واختطاف رجال كل ٢٠ ثانية[4] ومن أعظم مدن الولايات المتحدة الأمريكية تقدما وعلما مدينة نيويورك حيث يحدث فى كل ١٢ ثانية جريمة فى هذه المدينة..

---

(١) ابن القيم الجوزية: كتاب الروح.

(٢) أبا الحسن إبراهيم بن أبى بكر البقاعى: كتاب سر الروح.

(٣) د. عبد الحليم محمود: مقدمة كتاب نحو علم نفس إسلامى للدكتور حسن الشرقاوى.

(٤) رمزى كلارك: إحصائية عن الجرائم فى الولايات المتحدة الأمريكية فى عام.

قتل أو هتك أعراض أو مهاجمة الآمنين.. هذا هو حال إنسان العصر الحديث على الحقيقة.. يتقدم من الناحية المادية تقدما هائلا.. ولا يتحقق له الأمن والأمان.

وهنا نريد أن نتساءل كيف تعجز الحضارة الحديثة عن أن تخلق مجتمعا آمنا؟ لقد حدث هذا بناء على خطأ النظرة الغربية لدراسة النفس الإنسانية والحياة الإنسانية بمعزل عن الله.. لقد حدث هذا عند فصل الإنسان بين عقله وقلبه، بين روحه وماديته فلم يتحقق له بهذه الحضارة الغربية ما ينشده من أمن واطمئنان وسعادة. بينما نجد أن الإسلام قد تناول أولا نفوس الناس وقلوبهم وعرف أنه هنا تكمن سر قوة الإنسان، فالإصلاح يبدأ منهما والإصلاح ينتهي إليهما مما يحقق المجتمع الآمن. لذلك فإن عناية القرآن الكريم بالنفس كانت من الشمول والاستيعاب ما يمنح الإنسان معرفة صحيحة عن النفس وقاية وعلاجا دون أن ينال ذلك من وحدة الكيان الإنساني أو رفع طاقة من طاقات هذه النفس على حساب طاقة أخرى. وهذا وجه الإعجاز والروعة في عناية القرآن الكريم بالنفس الإنسانية.. عناية لم تترك زاوية من زوايا النفس مظلمة كانت أو مضيئة إلا وأشارت إليها للتنبيه أو لما يعقب ذلك من التوجيه.. إنها عناية خالق النفس الإنسانية العليم بأسرارها وخفاياها.. إنها عناية من:

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾

[غافر: ١٩].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾

[ق: ١٦].

﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾

[الملك: ١٤].

وترجع عناية القرآن الكريم بالنفس الإنسانية إلى أن الإنسان ذاته هو المقصود بالهداية والإرشاد والتوجيه والإصلاح فإذا أريد أن يصل إلى ما له وما عليه فلابد

أن يستكشف نفسه لتتضح له سائر جوانبها ونوازعها حتى يكون على بصيرة منها وعلى مقدرة من ضبط وتقويم سلوكها.

وعلى ذلك فإذا استطعنا ـ نحن المسلمين ـ أن نصل إلى فهم حقيقة النفس فهما جديدا مؤسسا على القرآن الكريم والسنة المحمدية الشريفة سيكون ذلك خدمة للبشرية التى ينهكها اليوم ما تعانيه من اختلال نفسى إذ يستنار بآيات الله فى السلوك الإنسانى وتستجلى غوامض النفس عملا بشريعة الله وبذلك تسمو النفس إلى حيث ينبغى لنفس الإنسان أن تكون.

إن ما ينشده إنسان العصر الحديث فى كل مكان هو الأمن والأمان والاطمئنان النفسى وهو ما لم يتحقق له حتى الآن. وليس الأمن النفسى بالمطلب الهين؛ فبواعث القلق والخوف والضيق ودواعى التردد والارتياب والشك تصاحب الإنسان منذ أو يولد وحتى يواريه التراب.

إن إيمانى الكبير بما للقرآن الكريم من الأثر العظيم فى تحقيق الأمن والاستقرار النفسى للإنسان هو الذى دفعنى للخوض فى بحار النفس الإنسانية ومحاولة دراستها فى ضوء القرآن الكريم. وفى هذا الكتاب أتعرض لدراسة موضوع الأمن النفسى كما عالجه القرآن الكريم وذلك كمحاولة لفهم النفس الإنسانية وعلاجها . . . ولقد تم تقسيم هذا الكتاب إلى ما يلى:

الفصل الأول:

وفيه تمت مناقشة مفهوم النفس الإنسانية كما قال عنه القرآن الكريم والحديث ومناقشة صفات النفس وأوصافها وسماتها. وكان لزاما لاستكمال نقطة دراسة هذا الفصل - أن يتم التعرض إلى دراسة المقارنة بين نظريات علم النفس الحديث وعلم النفس الإسلامى.

الفصل الثانى:

تم التعرض فيه إلى الآفات النفسية التى تصيب النفس البشرية (الرياء، والحقد، والحسد، والغرور، والعجب، والكبر، والوسوسة. . . إلخ)، وتمت

مناقشة آفة الرياء بالتفصيل كنموذج لتلك الآفات النفسية ونوقشت الآفات الأخرى بإيجاز، وكان اختيار آفة الرياء لهذه الدراسة على أساس أنها من الآفات التى يمكن أن تصيب الإنسان دون أن يعرف أنه مصاب بها وحيث تظهر فيها أحوال ومظاهر آفات أخرى مثل الحقد والحسد والوسوسة والغرور . . . إلخ.

وفى الفصل الثالث:

كان لابد من التعرض إلى الصوفية كفئة من الفئات التى تخصصت فى دراسة النفس الإنسانية، لذلك تمت مناقشة السلوك العملى عند الصوفية (ويقصد به أخلاقهم) الذى عن طريقه يستطيعون أن يعالجوا آفات النفس وعللها ويصلوا إلى تحقيق الأمن النفسى للإنسان.

وفى الفصل الرابع:

تم التحدث عن أثر القرآن الكريم فى تحقيق الأمن النفسى للإنسان.

ثم تضمن الفصل الخامس والأخير: الطريق إلى الله لتحقيق الأمن النفسى.

وبتقديمى هذا الكتاب أدعو الله أن يكون قد تضمن القليل من العلاج الناجح المؤسس على القرآن الكريم للخوف.. والرعب.. والفزع.. والاضطراب الذى يعانى منه الناس فى أعظم البلاد المتقدمة فيملأ النفس بالأمن بدلا من الخوف، وبالسكينة بدلا من الشك.

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾

[الفتح: ٤].

وأسأل الله العلى القدير أن يوفقنى فى هذا الكتاب، وأن يكون بذرة طيبة وعملا نافعا لكل القارئين.. وشمعة مضيئة لكل السائرين فى طريق الله.. مستنيرين بكلمات الله.. مستبشرين بالحياة الآمنة المطمئنة.. مستمتعين بالفيض الإلهى فى ظلال القرآن الكريم.

ولا أنسب فضلا إلى نفسى.. فليس لى الفضل فى شىء.. ففى البداية والنهاية الفضل من الله.. وإلى الله.. وبيد الله.. فكل كلمة كتبت، وكل عبارة

سطرت.. إنما هى بفضل من الله.. وبتوفيق منه سبحانه.. وبهدايته تعالى وحده.

﴿... وعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (113)﴾

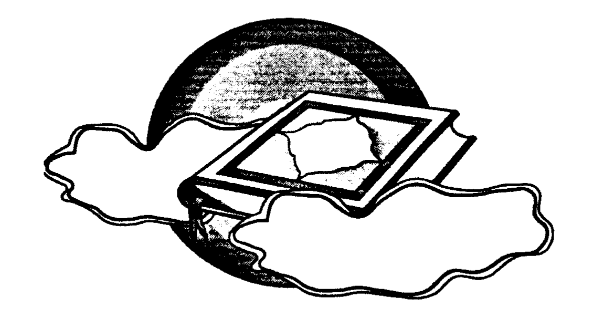
[النساء: 113].

أحمدك ربى وأشكر فضلك ونعمتك التى أنعمت على إنك أنت ذو الفضل العظيم.

ناهد الخراشى

الفصل الأول

النفس الإنسانية
فى
القرآن الكريم والسنة الشريفة



الفصل الأول
النفس الإنسانية فى القرآن الكريم والسنة المحمدية الشريفة

●●●●●●●

أولا: مفهوم النفس فى القرآن والسنة

ينظر الإسلام إلى نفس الإنســان على أنها مستودع قُــوى الكون الذى يعيش فـيه الإنســان[1] فهى أقوى من الوجـود المادى ببحاره وأنهاره وأمـواجه وأبراجه وزلازله وبراكينـه وسيوله وأعـاصيره، فـالمؤمن الذى يطيع ربه يكون ربانيـا يقول للشىء كن فيكون، والنفس الإنسانية تذكر فى القرآن الكريم قرينة لآفاق الكون فى أكثر من موضع.

﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾

[الذاريات: ٢٠، ٢١].

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ... (٥٣) ﴾

[فصلت: ٥٣].

وآخر الأمر أن الله يدع التغيير للنفس الإنسانية:

﴿ ... إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... (١١) ﴾

[الرعد: ١١].

ولعل هذه الآيات دعوة للإنسان إلى أن يتبصـر أمر نفسه وأن يعرف أسرارها وخفاياها وهى دعـوة صريحة عن طريق العرض والحث والعتب على التـقصير فى تحصيل الفائدة من هذا التبصر والتأمل والإدراك[2].

---

(١) فتحى رضوان: الإسلام والمسلمون، ص٢٨٥.

(٢) د. محمد كمـال جعفر: الريادة الإسلامية فى علم النفس، مـجلة التصوف الإسلامى، العدد ٣٠، ١٩٨١، ص٢٤.

ولو عددنا المواضع والنقاط التى عولجت فيها النفس فى القرآن الكريم دون التعريج على السنة المطهرة لما أسعفتنا مجلدات ومجلدات ولكن حسبنا أن ندرك الخلاصة المركزة التى يمكن أن نعيها من القرآن الكريم حول النفس الإنسانية وهى خلاصة تتعلق بما يتصل بالخواطر والسوانح والوساوس والهواجس والأحاسيس من فرح وحزن ووحشة وأُنس وانقباض وانبساط وارتجاف واطمئنان وقلق واضطراب وما إلى ذلك كله مما سجله العلماء بعد طول معاناة ودراسة وتأمل وبحث واستقصاء. وتتعلق الخلاصة أيضا بأدواء وأمراض وعلل النفس وألوان قصورها وأوجه قوتها ونشاطها وكمالاتها وأنماط علاجها وصحتها وعافيتها:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝ ﴾

[الشمس: ٧-١٠].

﴿ ... إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ... ۝ ﴾

[يوسف: ٥٣].

﴿ ... وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ... ۝ ﴾

[النساء: ١٢٨].

﴿ ... وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾

[الحشر: ٩].

﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝ ﴾

[العاديات: ٨].

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ... ۝ ﴾

[آل عمران: ١٤].

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ... (١٢) ﴾

[يونس: ١٢].

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) ﴾

[الإسراء: ٨٣].

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) ﴾

[هود: ٩-١٠].

﴿ ... وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) ﴾

[النساء: ٢٨].

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) ﴾

[المعارج: ١٩].

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) ﴾

[الفرقان: ٦٣].

﴿ ... وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ... (١٣٤) ﴾

[آل عمران: ١٣٤].

﴿ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) ﴾

[القيامة: ٢].

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) ﴾

[الفجر: ٢٧-٢٨].

﴿ ... وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ... (٧٩) ﴾

[النساء: ٧٩].

﴿ .. وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ... (١١٨) ﴾

[التوبة: ١١٨],

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ... (١٤) ﴾

[النمل: ١٤].

﴿ ... لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) ﴾

[الفرقان: ٢١].

ورغم أن القرآن الكريم فيه المعلومات الكثيرة والشاملة عن النفس الإنسانية (أكثر مما في العلوم الدنيوية الأخرى) فليس في القرآن الكريم «نظرية نفسية» مخططة مبوبة مبلورة ذات فصول وتفصيلات فليس من شأن القرآن الكريم وهو ينشئ النفوس ويربيها أن يضع نظريات من هذا القبيل. وهذا طبيعي في كتاب كريم مهمته الأولى هي التربية والتوجيه.. كتاب كريم يخاطب النفس ويوجهها:

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) ﴾

[النازعات: ٤٠-٤١].

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ... (٢٠٧) ﴾

[البقرة: ٢٠٧].

﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) ﴾

[العنكبوت: ٦].

﴿ ... وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) ﴾

[لقمان: ١٢].

﴿ ... وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

[فاطر: ١٨].

﴿ ... فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾ ﴾

[النجم: ٣٢].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ... ﴿٤٩﴾ ﴾

[النساء: ٤٩].

﴿ ... وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾

[الحشر: ٩].

﴿ . . . وَأَنفِقُوا خَيْرًا لأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

[التغابن: ١٦].

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ... ﴿٥٣﴾ ﴾

[الزمر: ٥٣].

وهذه المعلومات - المنبثة فى ثنايا القرآن الكريم - يمكن أن تستوحى فى استخلاص نظرية شاملة على النفس.. تعمل المشاهدة والتجربة فى توضيحها ووضع تفصيلاتها، كما تعمل فى توضيح بقية الإشارات الكونية فى القرآن الكريم[1].

فالقرآن الكريم مثلا يقول:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

(١) محمد قطب: دراسات فى النفس الإنسانية، ص٩.

وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

[البقرة: ١٦٤].

ولكنه لم يقل كيف يختلف النهار والليل وكيف تجرى الفلك فى البحر، وكيف ينزل الماء من السماء وكيف تحيا به الأرض وكيف تصرف الرياح ويسخر السحاب بين السماء والأرض وترك للمشاهدة والتجربة أن يتحققا من سر هذه الآيات ويعرفا ـ بقدر ما ييسر الله لهما ـ حقيقة النواميس التى تعمل بها القدرة الإلهية فى الكون.

وكذلك وجه الإنسان إلى استجلاء أسرار النفس:

﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾

[القيامة: ١٤].

﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم ... ﴿٨﴾ ﴾

[الروم: ٨].

وذكر صفاتها وحالاتها ولكنه ترك للمشاهدة والتجربة أن يتحققا مما وراء ذلك من النظريات والتفصيلات فلم يقصد القرآن الكريم إلى مجرد سرد الشواهد أو الظواهر والأحوال لحشو الذهن وجمع المعلومات والمعرفة النظرية وإنما قصد التدريب والتمرين والممارسة لتطويع النفس وتذليل سبلها حتى تنقاد إلى الإيجابية والإنتاج الجيد والخير دون تردد أو تعويق:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ... ﴿٥٣﴾ ﴾

[الأنفال: ٥٢].

ويكفى للدلالة على أهمية النفس عظم شأنها عند الله أن يقسم بها ثم يعقب ذلك بالحكم بالفلاح أو الخيبة بناء على تزكيتها وتطهيرها وتربيتها أو انحطاطها وإهمالها والهبوط بأهدافها ونوازعها:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾

[الشمس: ٧-١٠].

وهذه الأهمية الشاملة للنفس ترجع إلى أن الله سبحانه وتعالى هو خالقها العليم بأسرارها:

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ... (٢٥) ﴾

[الإسراء: ٢٥].

﴿ . . . تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) ﴾

[المائدة: ١١٦].

﴿ ... وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ... (٢٣٥) ﴾

[البقرة: ٢٣٥].

﴿ ... اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ... (٣١) ﴾

[هود: ٣١].

ولقد وجد النبي ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم، في القرآن الكريم مما أعانهم على فهم أنفسهم والسيطرة عليها بعد مجاهدة ومعاناة سماها صلوات الله عليه «الجهاد الأكبر» على حين سمى غزو العدو الخارجي بالقتال «جهادا أصغر» لا للتقليل من شأنه على حساب التفخيم من شأن الأول بل للبصر النبوي والنور الإلهي الذي أراه في مقاومة رغبات وشهوات ونزعات النفس أمر صعب الغاية لما يكتنف كل ذلك من غموض وتعقد وتشابك وخفاء لا يجليه إلا نور من صنع الله:

﴿ ... وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠) ﴾

[النور: ٤٠].

وقد سجل الرواة عن الرسول الكريم ﷺ من قوله فى عودته من غزوة معينة فرغنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، وقوله لأبى الدرداء:

يا أبا الدرداء جدد السفينة فإن البحر عميق وفهمها العلماء على أنها توجيه بتجديد العزيمة فى جهاد النفس وسبر أغوارها ومعرفة دخائلها وخفايا القلب التى تبعد أعماقه وتبعد آفاقه.

إن فى الهدى النبوى البلسم الشافى للقلوب الظامئة إلى الحق، والنفوس الطالبة لليقين، والعقول الرشيدة التى تتوخى الصدق والإخلاص فى العلم والعمل.

والنفس فى الهدى النبوى إذا صلحت انصلح أمر الجسم، وإذا فسدت فسد أمر الجسم، فعلاجها أولى وأهم من علاج البدن، وليس معنى ذلك أن نترك الأعراض المرضية البدنية دون علاج.. إذ المقصود أن كثيرا من الأمراض العضوية يكون سببها المباشر أو غير المباشر آفات وأسقام وأمراض نفسية تؤثر على الجسم، فتتلفه وتعطبه.

وهذه الأمراض إن لم تعالج أفسدت حياة الإنسان تماما وعرضته لليأس والقنوط وربما أودت بحياته فى شكل جريمة يقترفها أو اعتداء موجه إلى الذات يفقد الإنسان فيه حياته، ويخسر دنياه وآخرته.

فإن المرض النفسى إنما هو ثمرة فجة للاعتراض والتحدى والشرك الأصغر والشرك الأكبر لإرادة الله ومشيئته، وإن السواء والصحة النفسية مرجعها إلى التقوى والورع والخشية ونقاء السريرة ـ وهذا تظهره دراسات المسلمين وعلى رأسهم حجة الإسلام الغزالى.

لقد بينوا السلوك النفسى السوى مقتدين بكتاب الله وسنة رسوله، وقد برعوا فى تبيان حقيقة النفس وأقسامها وخصائصها وأوصافها وصفاتها والأمراض التى تصيبها والآفات التى تتعرض لها، والنقائص التى تؤثر فيها مثل العجب

والغـرور والطمع و الشره والحـرص والرياء، ثم بينوا العـلاجات لهـذه الأمراض والآفات والنقائص من الهدى النبوى وآيات الله البينات[1].

لقد فهم المسلمون النفس البشرية فهـما طيبا من خلال تعمقهم فى آيات الله البينات واقـتدائهم بالرسول ﷺ الذى يعتـبر أعظم معالج نفـسى عرفته البـشرية، فلهديه ﷺ فى الـعلاج النفسى مـا يعجز عنه أعظم الأطـباء فى العصـور القديمة والحديثة على السـواء، ولقد عالج الرسول ﷺ أمراض نفسـية تصعب على أعظم أطباء هذا العصر[2].

عالج أمراض الصرع الروحانـى، الأرق، الوسواس، والاكتئاب، والزمت، والحصر، والقلق المزمن، والحزن، والمصائب، والكروب، والهم، والغم، والفزع، والخوف، والجزع، والغضب، والطمع، والحسد، والحقد، والعين، والسحر.

وهذه العلاجات التى ذكرناها إنما هى خاصة بالطب النفسى فحسب، ولكن الرسول ﷺ عـالج أيضا الطب البدنى وربط بين الطب النفـسى والطب البدنى فى علاجـاته، فقد أحس أبو هريرة بوجع فـى بطنه فأرشده الرسـول ﷺ إلى الصلاة فقام وصلى فبرأ من مرضه.

لقـد ربط الرســول ﷺ فى عـلاج أبى هريرة بين الطب النـفـسى والطب البدنى، إذ إن الهم والكرب يمكن أن يؤثر فى أمراض المعـدة فإذا خرج الكرب من النفس، وسكنت الهموم، فإنه يمكن أن يُبرأ المريض من أوجاعه نتيجة انشغاله بأمر أهم وهو الصلاة.

والمعـروف أنه إذا انشغل الإنســان بمشكلة لا يستطيع لـها حلا، فـإنه إذا لم يتوسـل بالله ويصبـر فى الله أقعـدته الأمراض، ومن ثم تراكـمت عليه الهـموم والأوجاع لكـن هذه الحالة التى عـالج فيهـا الرسول ﷺ أبا هريرة إنما هـى حالة

(١) د. حسن الشرقاوى: المسلمون علماء وحكماء، ص١٥٨ وما بعدها.

(٢) للمزيد من الإطلاع راجع زاد المعاد، ابن القيم الجوزية.

خاصة يصلح معها هذا العلاج، وربما يصلح علاجا آخر بدنيا أو نفسيا فى حالة أخرى.

كل هذا يؤكد أن المسلمين قد سبقوا الغربيين بقرون متطاولة فى دراسة السلوك الفردى وتشخيص الأمراض النفسية وعلاجاتها مهتدين بالهدى النبوى.

ومن ناحية أخرى فإن المسلمين لم يهتموا بالطب النفسى العلاجى فحسب كما هو فى العيادات النفسية فى العصر الحديث، إنما اهتموا أيضا بالطب النفسى الوقائى أى قبل أن يصل المريض إلى الحاجة الماسة إلى العلاج، لذلك كانت الأمراض النفسية فى صدر الإسلام نادرة الحدوث.

فقد كان الصوم والصلاة والاستعاذة والاستغفار وكظم الغيظ والصبر والذكر الدائم عبارة عن طب وقائى يمنع تراكم الأمراض النفسية من خواطر شيطانية ووساوس وكروب، يمنعها من النفاذ إلى قلب الإنسان، ومن ثم يصبح قلب المسلم على الدوام مستفرغا ومحصنا من ولوج الآفات والأمراض التى تسبب له تراكمات وأزمات نفسية.ولا ريب أن المسلمين وعلى رأسهم الرسول ﷺ وهو الهادى البشير هم الرواد الأوائل للطب النفسى الوقائى والعلاجى على السواء، ولقد تبع الرسول ﷺ فى هديه النبوى ثلة من العلماء والحكماء أمثال: الحسن البصرى - اليافعى المكى - المحاسبى - وحجة الإسلام الغزالى وكثير غيرهم.

لقد فرق الرسول ﷺ بين الأزمات النفسية التى يمكن أن تهاجم الإنسان، وتعترض حياته فتصيبه بالهم والغم والكرب والحزن والأرق والقلق وربما تنتهى به إلى الصرع النفسى (الروحانى)، وبين الأمراض البدنية التى تصيب بعض أجزاء الجسم كالقلب والكبد والقولنج وغير ذلك من الأمراض التى أصلها بدنى.

وقد بين ﷺ هذه الفروق سواء فى الطب الوقائى أو العلاجى ولم يخلط بينهما وإنما أوضح أن هناك رابطة بين النفس والجسم، والنفس أحيانا تؤثر فى الجسم فإذا ظهر مرض جسمى فربما يكون له أصل نفسى.

والطب النبوى بشقيه النفسى والبدنى.. هو أعظم طب وأنفعه للإنسان، وهو أتم علاج والجعه والدستور الدوائى الإسلامى أكمل دواء وأجمعه[1].

ولا عجب فى ذلك فقد استمده الرسول ﷺ من وحى السماء وتلقاه ممن أوجد الداء والدواء وقدر المرض والشفاء.

إن الطب النفسى الإسلامى يقوم على أساس اللجوء إلى الله عند الشدة وهذه طبيعة نفسية بشرية، وأن فى اتصال الإنسان بفاطره وموجده القوى العليم الخبير رابطة وثقى، تقود حتما إلى الأمن النفسى، فإذا أفضى إلى الله بمخاوفه ووساوسه وقلقه ولجأ إليه تعالى هدأت نفسه وشعر بالسكينة وبذلك يشفى من الجزع والفزع والخوف والحزن.

والحزن يسبب الكثير من الأمراض النفسية، والأمراض النفسية مبدأ لكثير من الأمراض العضوية وينتج عنها العديد من الأعراض المرضية مثل: البول السكرى، والضغط، والحزن يزيد إفرازات الأدرينالين فى الغدة الكظرية (فوق الكلية) فيزيد الانفعالات ويقود إلى كثير من المضاعفات.

إن الاطمئنان إلى رحمة الله وعدله والإقبال على الله بالوضوء والصلاة والاستغفار والدعاء وتغير الوضع عند الغضب فإذا كان الشخص واقفا جلس، وإذا كان جالسا وقف، أو استلقى أو توضأ بالماء البارد، إن كل ذلك يعد من النصائح الثمينة التى إذا جربت أتت بنتائج باهرة.. فى علاج الحزن والهم والغم والقلق والكرب وشدة المصيبة[2].

ما أحوجنا إلى أن نتمثل بالرسول ﷺ فى كلامه وأفعاله وأعماله وفى معالجاته الروحية والنفسية التى تشفى القلوب والنفوس جميعا.

والقرآن الكريم هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة.. فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفى القرآن..

(١) د. حسن الشرقاوى: الطب النفسى النبوى.

(٢) د. حسن الشرقاوى: الطب النفسى النبوى، ص١٦٩.

ففيه شفاء للقلوب والنفوس والأبدان جميعا، وفيه الهداية والتوجيه والإرشاد والحكمة والموعظة الحسنة والصلاح والإصلاح للنفس الإنسانية.

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ... (٨٢) ﴾

[الإسراء: ٨٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) ﴾

[يونس: ٥٧].

إن حصيلة معرفة الصحابة عن النفس من القرآن ومن السنة لم تكن حصيلة نقلية قولية نظرية بل إنها ثمرة التجربة والمعاناة والمعايشة والتطبيق ومن هنا اطمأنت نفوسهم وارتاحت ضمائرهم وحسنت أعمالهم واتزنت شخصياتهم وقويت نفوسهم وعزت كراماتهم فلم يتمكنوا من السيطرة على نفوسهم فحسب بل عم تأثيرهم سائر الأرجاء ودانت لهم نفوس كثيرة ما كان لها أن تدين إلا لهذا السلطان الآسر الذى صنعته تعاليم السماء فيهم وتوالت الأجيال التابعة المنتفعة بهذا التراث الجليل. والمعرفة بالنفس ما تزال مبثوثة فى القرآن الكريم والسنة محفوظة فى صدور أهل العلم.

والعالم الحق هو الذى يرى فى الاستزادة من العلم والمعرفة بابا يوصله إلى عين اليقين، أو إلى التوحيد المطلق، ولذلك فإن علم الحقيقة هو أشرف العلوم جميعها حيث إنه العلم الذى يهدف إلى الصدق الذى نبحث عنه ثم اليقين الذى يواكبه، والإيمان الذى يتمتع به صاحبه، والإخلاص والنية الحسنة فى الظاهر والباطن، والطاعة لله فى السراء والضراء، ثم إن العمل يؤكده الإلهام والرؤى التى يشهدها العبد الصادق، ومن هنا فالسالك يعتقد أن أشرف العلوم هو هذا العلم لأنه يرى علما متحققا، وثمرات يانعة، فعندما يخلص ينعم عليه.. وعندما يصدق يفاض عليه.

* * *

ثانيا: صفات النفس الإنسانية وأوصافها

يتبين من النظر فى آيات الله البينات أن النقص فى النفس البشرية إنما ينشأ عن الغفلة، كما تنشأ الغفلة من جبلة فى النفس فطرت عليها. وخلقت فيها، لذلك فإن الغفلة آفة ونقص وتظهر فى حركة النفس وعجلتها والحركة هنا فى مقابل السكينة كما أن الغفلة فى مقابل الفطنة واليقظة[1].

ويرى علم النفس الإسلامى أن الغفلة باب لنسيان الحق ومنبع للأنانية والشره وقسوة القلب وإنه من طول استحواذ الغفلة على الإنسان يأتى النفاق.. الكذب.. وأباطل الشيطان، وثمرة الغفلة.. والخيانة.. وغلبة الأهواء.

﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ... ﴿١٩﴾ ﴾

[المجادلة: ١٩].

ولذلك فإن أصحاب القلوب السليمة الذين لا يغفلون عن ذكر الله وشكر الله سبحانه وتعالى.. يخلدون إلى الراحة، وينعمون بالطمأنينة:

﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾

[الشعراء: ٨٩].

وعلى ذلك فإذا تركت النفس لأهوائها وشهواتها، ركنت إلى الغفلة وكثرة الحركة وشهوة العجلة، واتصفت بصفات النفس الأمارة.

ومن نعم الله على النفس البشرية، أن يبتليها بشتى أنواع الابتلاءات وذلك لتتمكن من التخلص من حظوظها، وتتبرأ من إرادتها، وتتجنب شهواتها وتبتعد عن أهوائها وهذا الابتلاء لحكمة إلهية، لا يعلمها إلا الحق تعالى، كما اقتضت مشيئته أن تجرى على النفس البشرية، فإذا أفاد النفس الابتلاء فإنها تنزع إلى مخالفة حظوظها، وذلك بالمراقبة والمحاسبة لأفعالها وأعمالها، وفى هذا الطريق تفتقر إلى موجدها، وتحتاج إلى مولاها، وعن طريق الاحتياج تسعى إليه تعالى،

(١) د. حسن الشرقاوى: ألفاظ الصوفية ومعانيها (النفس).

فتعرف أنه الغنى على الحقيقة وهى الفقيرة على الاستمرار، فلا قوة إلا بالله، ولا عزة إلا من الله، وهنا تسكن النفس بعد حركتها، وتطمئن بعد عجلتها، فتتصف بالتقوى، والتقوى حال النفس المطمئنة التى تمتاز بالسكينة التى هى ضد الحركة والغفلة والهوى، بل ضد الحظوظ والشهوات والآفات.

وكما سبق القول فإن النفس مجبولة على الشره، مفطورة على الغفلة متصفة بالعجلة التى تجنح بها إلى طريق الشقاوة والجهل:

﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ... (٣٧) ﴾

[الأنبياء: ٣٧].

﴿ ... وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾

[الإسراء: ١١].

ويتضح لنا أن النفس الإنسانية إذا ابتعدت عن طريق الله أصابتها الغفلة وحجب القلب عن المعرفة، ورجع الإنسان إلى جبلته من الجهل والظلمة[1]. وتستمر حركتها المفطورة عليها بلا توقف، اللهم إلا إذا منّ الله عليها بالفضل والرحمة، وبخلاف ذلك توصف النفس عند الصوفية بمعنيين:

الأول: الشره: وهو نتاج الحرص.

الثانى: الطيش: وهو ثمرة الجهل.

والشره والطيش فطرة فى النفس.

صفات النفس فى القرآن الكريم[2]:

وإذا كان هناك نقص فى النفس البشرية يظهر فى الحرص والشره فإن هذا نتاج طبيعى لجبلات النفس الإنسانية بل هو من تراكيب مادتها الأصلية، ولذا

---

(١) الإمام أبو طالب المكى: قوت القلوب، ج١، ص١٤٧ وما بعدها.

(٢) د. حسن الشرقاوى: الشريعة والحقيقة، ص٣٩ وما بعدها.

يجدر بنا الإشارة إلى هذه الجبلات وكما اقتضى الله تعالى بمشيئته أن تكون فى الإنسان وكما أعلمنا بها فى كتابه الكريم وهذه الجبلات هى:

الضعف - البخل - الشهوة - الجهل

وعلى ذلك فالنفس الإنسانية لها أربع صفات فطرية مفطورة عليها:

﴿ ... فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ... ﴿٣٠﴾ ﴾

[الروم: ٣٠].

وهذه الصفات الأصلية متفرع عنها حظوظها وأهواءها تسيرها بمقتضى إرادتها، إذا لم تجد مراقبة ومحاسبة ومخالفة أو إذا لم تجد من الله منة وفضلا لدفعها إلى الحق أو سكونها فى طريق الخير.

وهذه الصفات الإنسانية إنما تحدد فى[1]:

أولا: الضعف.

ثانيا: البخل.

ثالثا: الشهوة.

رابعا: الجهل.

أولا: الضعف:

الضعف من مكونات الإنسان، إذ تتصف النفس الإنسانية بالضعف كفطرة فيها، وهذا الضعف إنما هو نتاج كيمياء النفس البشرية التى تتركب من مواد هشة ضعيفة، قابلة للتحلل والتفكك. كما أن أساس تكوين كيمياء النفس هو عنصر التراب، وهو عنصر الضعف فهناك ارتباط إذن بين الضعف والتراب، ويتأيد ذلك من الآيات الكريمة:

﴿ ... فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ... ﴿٥﴾ ﴾

[الحج: ٥].

---

(١) الإمام أبو طالب المكى: قوت القلوب، ج١، ص١٧٥ وما بعدها.

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ... (٥٤) ﴾

[الروم: ٥٤].

ومعنى هذه الآية الكريمة أن مادة الضعف إنما هى التراب وذلك تصديقا لقوله تعالى:

﴿ ... وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) ﴾

[النساء: ٢٨].

كان الضعف هو مادة خلق الإنسان ولكن بالمجاهدة يقوى الإنسان.

لقوله تعالى:

﴿ ... ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا ... (٥٤) ﴾

[الروم: ٥٤].

ثانيا: البخل:

والنفس الإنسانية خلقت من عناصر متعددة يتفق بعضها مع البعض أحيانا وتختلف فى أحيان أخرى، فعلاوة على الضعف الإنسانى - الترابى فهناك البخل الذى لا يدل على المعرفة، بل على العكس من ذلك يوصف صاحبه بالدناءة والخسة، والذى يتصف بالبخل إنما يتصف بأوصاف مذمومة، ليس من بينها صفات العفة والشجاعة وقد ورد هذا المعنى فى قوله تعالى:

﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ... (١٨٠) ﴾

[آل عمران: ١٨٠].

والبخل هو مقتضى جبلة الطين، فصفات البخل نجدها أيضا فى صفات الطين فليس فى الطين سخاء ولا جود، بل يوصف حامله بالقذارة والوسخ، ويرغب المرء فى التخلص منه عندما يعلق به، والطين دال على المحسوس والسفلى والهابط والأرضى من الأشياء لأنه أبدا معتم كثيف، وهو أقل المواد حساسية وأدناها شفافية ونورا، وأضعفها إشعاعا، والعجيب أن الإنسان يحمل فى نفسه

هذا العنصر الطينى كجزء من مكوناتها، ورغم أن هذا العنصر فى جبلته رضى الإنسان عن ذلك أم أبى، إلا أنه يرفض أن يتحلى به فى الظاهر بشكل أو بآخر فيغسل ملابسه منه، ويتطهر من أدرانه، وينظف أوانيه إذا مسها شيء منه، أما فى داخله، فلا يستطيع منه خلاصا، حيث أن تركيبه من الداخل يحوى هذا العنصر كجبلة فيه، ولذلك فقد تعالى إبليس على آدم، وذلك لعلمه أن آدم قد خلق من هذا الطين واستكبر فى غرور أن يسجد له لأنه يعرف أنه خلق من نار.. تصديقا لقوله تعالى على لسان إبليس:

﴿ ... أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

[الأعراف: ١٢].

ولقد اقتضت مشيئة الله سبحانه وتعالى أن تخلق النفس الإنسانية من مادة الطين:

﴿ ... وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾

[السجدة: ٧].

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ ﴾

[ص: ٧١].

ثالثا: الشهوة:

وفى جبلة النفس تركيب ثالث أكثر التراكيب فسادا. عندما يكون تابعا للنفس وحظوظها وأهوائها، ألا وهو الشهوة، والشهوة حرارة تظهر فى الجسم، فتفقده توازنه واتزانه، والشهوة بهذا المعنى حركة، والحركة غفلة، والغفلة عجلة، والعجلة نقص وتبدو شهوات النفس التى يختل بها البدن رغبات لا تشبع، وأهواء لا تقاوم، وشره لا يفتر فهى طبيعة خنزيرية من أصل شيطانى، أو هى كالنار الموقدة تشتغل بها النفس، فلا يتوقف سعيرها، ولا تخمد وقدتها إلا بضدها وقد ورد هذا التركيب الشهوى للنفس فى قوله تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ... (١٤) ﴾

[آل عمران: ١٤].

كما ورد فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً ... (٨١) ﴾

[الأعراف: ٨١].

فالشهوة المقصودة هنا ليست الشهوة المباحة التى يعمر بها الإنسان هذا العالم، والتى منها التكامل وبقاء النوع - وإنما هى شهوة الضعف والجهل والبخل والشره، والتى لا تربطها رابطة بوازع من ضمير، ولا تنتمى إلى مكارم الأخلاق فى قليل أو كثير.

رابعا: الجهل:

وأما الفطرة الرابعة التى فطر الإنسان عليها فى جبلة النفس فهى الجهل والجهل ضد العلم، ولقد اقتضت مشيئة الله تعالى أن يكون الإنسان جهولا لحكمة يعلمها سبحانه حتى يحض الإنسان على المجاهدة، ويدفعه إلى سلوك طريق العلم والمعرفة، فلو فطر الإنسان عالما بالله ما كابد ولا جاهد، بل أصبح ملائكيا لا يعرف إلا الخير والفضيلة، ولا يعبد إلا الله على الحقيقة، ولا يسجد إلا له تعالى.

وعلى النقيض من ذلك فإن الجهل ادعاء كاذب، وفقر فى النفس، وتظاهر بالعلم، وعلامة للكذب، وحجاب للحقيقة والحق، فالجهل مقتضى الطبيعة الصلصالية التى تحجب ما خلفها وتسد النور والضياء أمامها، والجهل من مادة كثيفة تزيد المكان الذى تحل فيه ظلمة وإظلاما، والجاهل يركن إلى هوى النفس التى تدفعه إلى الطيش والسفه، والإنسان يحمل جهله الصلصالى الذى يحجبه عن المعرفة فيظلم قلبه، ويظلم غيره وفى هذا المعنى ورد قوله تعالى:

﴿ ... وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾

[الأحزاب: ٧٢].

والجاهل بهذا المعنى يرى الأمور بغير بصيرة فتكون أحكامه أبدا - خاطئة ورؤيته قاصرة، ونظرته عاجزة لأنه يرى الظلام نورا، والحق باطلا، تحركه الشهوة، ويدفعه الضعف، ويقوده الشره، ويسلبه البخل فيغير الموازين، ويعبث بالمكاييل، ويظن في الخير شرا وفي الشر خيرا، تعاليا وتكبرا، وفي هذا المعنى يقول تعالى:

﴿ ... يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ... (٢٧٣) ﴾

[البقرة: ٢٧٣].

وهذا من صفات الجاهل الذي يخيب ظنه في الأمور، ويقصر علمه، كما حدث لإخوة يوسف عليه السلام الذين كانوا من الظالمين الجاهلين، ويقول الله تعالى فيهم:

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) ﴾

[يوسف: ٨٩].

أوصاف النفس الإنسانية[1]:

وكما أن للنفس صفات فطرية، تعتبر من تركيبها الأزلي ومن جبلتها الأولى وهي الضعف والبخل والشهوة والجهل فإن لها أوصافا تعرف بها وأشكالا ظاهرة تتشكل بها، وأماني شيطانية تمضي إليها، ومظاهر لا تستطيع منها خلاصا إلا بالمشيئة الإلهية، وهذه الأوصاف التي تتميز بها النفس الإنسانية تختلف عن سائر مخلوقات الله سواء في المضمون أو الدرجة، وقد ابتليت بها نفس الإنسان لحكمة إلهية كفطرة فيها ولا تزول عنها إلا عن طريق الرياضة أي المراقبة لله، والمحاسبة للنفس، والمجاهدة في طريق الحق، والإخلاص في النية والصدق في القول والعمل.

وهذه الأوصاف المذمومة تتركز في ادعاء الربوبية، وحب المدح، وأخلاق الشياطين والبهيمية[2].

(١) د. حسن الشرقاوي: الشريعة والحقيقة، ص٤٤ وما بعدها.

(٢) الإمام أبو طالب المكي: قوت القلوب في معاملة المحبوب، ج١، ص١٧٨.

١- ادعاء الربوبية:

تميل النفس إلى التكبر والتجبر وهو حب التعاظم وعدم الخضوع للحق عنادا وعدم قبوله ترفعا عنه كما فى قوله تعالى:

﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ... ﴿٤٣﴾ ﴾

[فاطر: ٤٣].

والمستكبر يريد أن يشارك الله تعالى فى ملكه وعظمته مما يحول بينه وبين الإيمان بالله، وهذا الكبر يجعله ينكر الآيات الدالة على وجود الله، كما ورد فى قوله تعالى:

﴿ .. إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ... ﴿٥٦﴾ ﴾

[غافر: ٥٦].

وقد ادعى فرعون موسى الربوبية كما جاء قوله تعالى:

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ... ﴿١٢٣﴾ ﴾

[الأعراف: ١٢٣].

ذلك أن الحق تعالى يكره المتكبر، فلا يصل إلى شيء من العلم والحق، لأنه إثم عظيم، ويقول عز من قائل فى ذلك:

﴿ ... إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

[النحل: ٢٣].

٢- حب المدح:

كما تميل النفس بحكم طبيعتها إلى المدح والثناء، وترفض النقد والنصح، وذلك لتتصف بالعظمة والكمالات كما تحب المجد والغنى وتكره التواضع والفقر، وهذا نوع من الاغترار يتصف به الشياطين، ويقول الحق تعالى فى ذلك:

﴿ ... وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾

[لقمان: ٣٣].

فالغـرور خديعة والخداع تبـتلى به النفس، ويتصور الإنسـان الذى يميل قلبه إلى المدح والثناء، أن ذلك يرفع من مكانـته ويجعـله متصـفا بالكمـالات التى لا يتصف بها غـيره، فيظن أنه أعلى مقامـا، وأشرف مكانا، وذلك فى الواقع كذب وبهتان وغرور تأييدا لقوله تعالى:

﴿ ... وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢٠) ﴾

[النساء: ١٢٠].

وقوله تعالى:

﴿ ... وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥) ﴾

[آل عمران: ١٨٥].

فالغرور خديعة وانخـداع، والذى يحب المدح والثناء ويكره النصح الرشيد، إنما واقع لا محالة فى الغـرور، فيضعف فى نفسه الصـدق والإخلاص والتواضع، ويقوى فى نفسه النفاق والرياء والجهل.

٢- أخلاق الشياطين:

كمـا أن من أوصـاف النفس الأخلاق الشـيطانية، وهى تـتمثل فـى الخداع والغش، والحقد والحسـد، والحيلة والغيرة، والغيبة والنمـيمة، وسوء الظن وحب الأذى.. وهذه الأخلاق قـد ابتليت بها النفـس الأمارة، وأصبـحت فطرة فيـها، وجبلة فى طبعها.

والشيطان مخلوق خـبيث لا يرى، يغرى بالفساد والمكيـدة والشر والغواية، ويوصف كل عـات متـجبـر متـمرد من الإنسـان والجن والحيـوان بهذه الأخـلاق الشيطانية، وقد ورد هذا المعنى فى قوله تعالى:

﴿ ... وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيداً (١١٧) ﴾

[النساء: ١١٧].

فمن اتبع الشيطان أذله وهوى به إلى الفساد والضياع تصديقا لقوله تعالى:

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ... (٣٦) ﴾

[البقرة: ٣٦].

والشيطان يجوز أن يكون من الإنس أو الجن، كما ورد فى قوله عز من قائل:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ ...(١١٢) ﴾

[الأنعام: ١١٢].

فالعداء مستحكم بين دعوة الأنبياء ودعوة الشياطين، فدعوة الأنبياء إلى الحق والفضيلة وعبادة الله، أما دعوة الشياطين فإلى الكفر والفساد وعبادة النفس:

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ ... (١٦) ﴾

[الحشر: ١٦].

٤- البهيمية:

وفى الوصف الرابع للنفس الإنسانية طبع البهائم، من حب للشهوات واللذات من منكح ومأكل ومشرب... إلخ.

والبهيمية هى كل ذات أربع قوائم، أو كل حى لا يميز[1] فكأن وصف الإنسان بالبهيمية إنما يهبط به إلى الجهل وعدم التمييز، بل ينزل من رتبته الرفيعة إلى درك الحيوانات التى تمشى على أربع والتى خلقها الله لتكون فى خدمة الإنسان، ويأكل لحمها ويشرب لبنها، ويغزل صوفها، وينتفع بها فى تيسير الحياة وتقريب المسافات إلى غير ذلك من المنافع.

فإذا وصف الإنسان بالبهيمية، فكأن دمه حلال كالحيوان واستعباده فى الأرض كالرقيق حقيقة، وذلك إذا اجتمعت فيه الخصال الأخرى، والأوصاف التى سبق ذكرها، وهى ادعاء الربوبية، وحب المدح، وأخلاق الشياطين:

(١) مجمع اللغة العربية: معجم الألفاظ للقرآن الكريم، ج١، ص١٣٢.

﴿ ... أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ... (١٧٩) ﴾

[الأعراف: ١٧٩].

أما إذا عرف الإنسان نفسه، وخالف طبعه، وسار ضد الهوى، واستقام بأوصاف العبودية، وحارب النزعات الشيطانية. وذلك بالتوبة والندم والتواضع والإيثار، والتخلق بأخلاق الصالحين، وخوفا من وعيد الله، ورجاءً في وعده تعالى.

إذا عرف الإنسان كل ذلك واتبعه، تبدلت حركة النفس أمنا، وغفلتها سكينة، وعجلتها يقينا، وشرهها عفة ورضا، فتكون بذلك قد خالفت طبيعتها، وانتصرت على أوصافها المذمومة، وتحلت بأوصافها المحمودة.

ولكن كيف يتم ذلك؟

وهل تقوى النفس الضعيفة على مجابهة ما فطرت عليه؟

وما رسخ في جبلتها منذ الأزل؟

حقا إن ذلك لا يمكن أن يتحقق إلا إذا تداركها الله تعالى بالفضل والمنة، عاونها على اجتياز كل هذه العقبات والحوائل التي تمنعها من الترقي والتقدم في طريق الحق والاستقامة.

ولكن كيف تسكن النفس وفي جبلتها الحركة؟

بل كيف ترضخ إلى أمر الله وتخالف حظوظها وشهواتها؟

وكيف تنصاع إلى خالقها، وتسكن إلى محركها؟

إن هذا الأمر جد شاق وصعب.. ولا يقدر عليه إلا المجاهدون الصابرون الصادقون.. الذين يتوجهون إلى الله بكليتهم رغم ضعفهم ونقصهم.. فلا يخافون إلا من غضبه تعالى، ولا يأملون إلا في رحمته وشفقته عليهم، ولا يتوسلون إلا له، ولا يعبدون سواه.

فالذي يطلق نفسه لأهوائها ولا يتهمها في سلوكها وتصرفاتها ولا يخالفها

فى أحوالها وطلباتها ولا يجرها إلى ما تكرهه.. كان مغرورا.. والغرور من أكبر الآفات التى تعطل الإنسان عن المعرفة الصحيحة والأخلاق القويمة فيبتعد عن طريق الله ويدخل فى حبائل الشيطان فيهلك ويضيع[1].

أما من يخالف نفسه فهو الذى يجعل من داء النفس دواءً لها.. والهوى هو داء النفس إذا خالفه صار دواءً لها أما إذا رضى الإنسان عن أفعاله الظاهرة فإنه اتباع للهوى وبعد عن الحق وطول أمل فى هذه الدنيا الزائلة وبذلك ينسى بمثابة الإنسان الآخرة.

فإذا استطاع الإنسان التغلب على نفسه كان على غيرها أقدر ولن يكون الإنسان قوة فعالة إلا إذا تحرر من مطامعه وأهوائه واستطاع كبح غرائزه وشهواته[2].

ومما سبق إيضاحه عن صفات النفس وأوصافها يتضح أن النفس الإنسانية أمارة بالسوء.

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ... (٥٣) ﴾

[يوسف: ٥٣].

داعية للأنانية متكالبة على الشهوات واللذات تابعة للهوى، رافضة للمجاهدة.

* * *

(١) د. حسن الشرقاوى: الحقيقة والشريعة، مخالفة النفس، ص٢٠٧ وما بعدها.

(٢) أنور الجندى: النفس، ص١٠ وما بعدها.

ثالثا: سمات النفس الإنسانية

مما سبق إيضاحه يتبين أن لكل نفس إنسانية صفات وأوصاف توصف بها وهى ما فطر عليها الإنسان. وتربية النفس وتهذيبها يؤدى إلى ترقى النفس من درجة إلى درجة ومن منزلة إلى منزلة ومن مقام إلى مقام.. وفى كل مرحلة من هذه المراحل تتصف النفس بسمة معينة تعرف بها وهذه السمات هى ما يجب أن يسعى إليها الإنسان حتى يحظى برضا الله ومحبته.. وهذا لا يأتى إلا بعمل الإنسان وبسعيه وبمجاهدته.

وبصفة عامة تقسم درجات النفس وأحوالها ومقاماتها إلى أقسام سبعة[1]:

١- النفس الأمارة.

٢- النفس اللوامة.

٣- النفس الملهمة.

٤- النفس المطمئنة.

٥- النفس الراضية.

٦- النفس المرضية.

٧- النفس الكاملة.

وفى كل مقام من هذه المقامات تجد النفس طريقا إلى الله وعالما تعيش فيه وحالا تستقر عليه ونورا ترتقى إليه.

١- النفس الأمارة:

النفس الأمارة[2] هى النفس المذمومة التى تأمر بكل سوء وهذا من طبيعتها إلا إذا وفقها الله وثبّتها وأعانها فى التخلص من شرورها وآثامها وابتعدت عن

(١) الإمام أبى حامد الغزالى: إحياء علوم الدين، ج٨، ص١٣٤٢-١٣٦٠.

(٢) الإمام ابن القيم الجوزية: الروح، ص٢٢٦.

الضلالات وسارت فى طريق الله، وهى المذكورة فى قوله تعالى، وفيما أوردته امرأة العزيز عن نفسها:

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾

[يوسف: ٥٣].

وطبيعة النفس الأمارة هى التغير والتقلب، والتلون والميل إلى حظوظها والركون إلى أهوائها وحب الشهوات والغضب عند ضياع اللذات.

وللنفس الأمارة حالتان[1] (حالة بلاء وحالة عافية):

فإذا كانت فى حالة بلاء فالجزع دثارها والشكوى لبسها والسخط والاعتراض منهجها فلا صبر لها ولا رضى ولا موافقة.

أما إذا كانت فى عافية فإن هذه النفس تتصف بالشره والبطر واتباع الهوى والشهوات وكلما تحققت لها لذة طلبت أخرى واستحقرت ما عندها من النعم (من مأكل، مشرب، ملبس.. إلخ). وتخرج النفس الأمارة لكل نعمة من هذه النعم عيوبا ونقصا وتطلب أبدا أعلى منها وأسمى مما لم يقسم لها وتُعرض عما قسم لها فتوقع الإنسان فى كفر شديد وتعب طويل ولا ترضى بما فى يدها فترتكب الحماقات وتخوض المهالك وتحيا فى غم شديد وتعب طويل لا غاية له ولا نهاية.

وقد قيل إن أشد العقوبات للنفس طلب ما لا يقسم لها وإذا كانت فى بلاء تتمنى أن ينكشف عنها ذلك البلاء وتنسى كل نعيم وشهوة ولذة فلا تطلب شيئا سوى العافية والسلامة فإذا ما عوفيت رجعت إلى رعونتها وشرهها وبطرها ونسيت بلاءها وابتلاءها وأعرضت عن طاعة الله وانهمكت فى معصية الله ثم ترد إلى بلاء أشد مما كانت عليه بسبب ما اقترفته من آثام وارتكبت من كبائر وعصيان وبهذا

(١) الإمام عبد القادر الجيلانى: فتوح الغيب، ص٩٧ وما بعدها.

تكف هذه النفس عن المعاصى وتطلب العافية ولكن العافية لا تصلح لها والنعمة لا تقنع لحياتها بل إن حفظها فى البلاء والبؤس والشقاء أفضل.

فلو أحسنت هذه النفس الأدب ولازمت الطاعة والشكر والرضا بما قسم لها لكان خيرا لها فى الدنيا والآخرة ولوجدت زيادة فى النعيم والعافية والرضا من الله عز وجل[1].

وفى الحقيقة أن النفس الإنسانية التى يطلق عليها اسم النفس الأمارة إنما تختلف فى طبيعتها عن النفس المطمئنة ولكى تحظى بمراتب النفس المطمئنة يتحتم عليها أن تحدث تغييرا فى عادتها وطباعها وأخلاقها عن طريق قيم عليا جديدة تقتدي بها وتسير على مبادئها ولكى تفعل ذلك يجب أن تتكلف فى أول الأمر هذه الأفعال. والتكلف إنما هو أصعب رحلة فى صراعات النفس على الإطلاق - حيث إنه يخالف هوى النفس ولا يتفق مع حظوظها وهواها، لأنه عملية تخلية وتحلية، تخلية عن الأوصاف المذمومة، وتحلية بالأوصاف المحمودة، فالتكلف إذن تغيير جذرى فى عادات الإنسان وطبائعه التى جبل عليها بل هو رفض للركون إلى هوى النفس ومناداة بلذات بعيدة بدل إشباع لذات قريبة فيها الإثم والضياع والدمار.

إن الشر يكمن فى النفس البشرية، ويوجهها إلى سيئات الأعمال، فإذا خلا الله بين العبد وبين نفسه انحرف الإنسان وأطاع هواه ووقع فى الآثام والشرور، أما إذا وفقه الله وأعانه ونجاه من نفسه الأمارة فإن صاحبها ينزع إلى صالحات الأعمال ويرتضى درجات الهدى والطاعة، وهنا تسمى النفس بالنفس اللوامة[2].

فإذا اعترضت النفس على الأفعال الخبيثة والأعمال الشيطانية، فإن ذلك يدخل فى باب المجاهدة حيث تتجنب الأهواء وتبتعد عن مهاوى الضلالة وتنبذ مسالك الأنانية والشرور.

---

(١) د. حسن الشرقاوى: ألفاظ الصوفية ومعانيها، ص٣٠٢ وما بعدها.

(٢) الإمام ابن القيم الجوزية: الروح، ص٢٢٦ وما بعدها.

وهنا ترتقى النفس وتتسامى لأن حالها الدائم هو الندم على ما اقترفته من الآثام والشرور فتدأب على البعد عن المخالفات وتنشغل باللوم عند اقتراف السيئات حتى يصبح هذا الحال ملازما لها ثابتا لديها بمثابة مقام لها ومنزلة تنزل بها - فضلا من الله ومنة وتلك هى النفس اللوامة.

٢- النفس اللوامة:

النفس اللوامة هى التى تلوم نفسها عند التقصير، وتحاسبها عند الإخلال بالتكاليف والواجبات الشرعية أو عند الوقوع فى الأخطاء والمعاصى، وهى التى أقسم بها الله سبحانه وتعالى فى قوله:

﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾

[القيامة: ٢].

ولقد اختلف فيها كثير من أهل الحق، فقال بعضهم هى لا تثبت على حال واحدة أى التى تتلون وتتقلب ولا تثبت على حالها، فهى تذكر الله كثيرا وتغفل عن الله قليلا، وترضى وتعرض وتتلطف وتتكشف وتنيب وتحب، وتبغض وتفرح، وتحزن، وتسر، وتغضب، وتطيع، وتتقى، وتفجر.. وغير ذلك فى كثير من حالات تلونها فى الساعة والشهر والعالم والعمر[١].

وقالت طائفة أخرى من الأئمة، إن النفس اللوامة هى نفس المؤمن وأن هذا اللوم إنما هو من صفاته المجردة، ويقول الإمام الحسن البصرى فى أدب الدنيا والدين. أن المؤمن لا تراه إلا ويلوم نفسه دائما.

ويرى بعض الصوفية أن النفس اللوامة هى نفس المؤمن التى توقعه فى الذنب، ثم هى فى نفس الوقت التى تلومه على ما اقترف من ذنوب، ويعتبر اللوم هنا نوعا من الإيمان، لأن الشقى لا يلوم نفسه على ذنب وإنما على العكس من ذلك إنما يلوم نفسه على فواته إذا ضاع منه.

---

(١) الإمام ابن القيم الجوزية: الروح، ص٢٢٦ وما بعدها.

وقالت طائفة أخرى بأن اللوم يأتى من نفس الفاجر والمؤمن، والسعيد هو الذى يلوم نفسه على ارتكاب المعاصى، وترك الطاعات، والشقى هو الذى لا يلوم نفسه إلا على فوات حظها وهواها.

وذهبت فرقة أخرى بأن هذا اللوم إنما يقع يوم القيامة لقوله تعالى:

﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) ﴾

[القيامة: ١، ٢].

لأن كل إنسان فى هذا اليوم يلوم نفسه على ما اقترفه من ذنوب فى حياته، وعلى أى حال فإن هذه الأقوال جميعا حق وصدق، ولا تختلف بعضها مع بعض لأن النفس موصوفة بها فى القرآن الكريم، وبهذه السمة سميت لوامة.

وفى تصورنا أن أشرف النفوس من لامت نفسها فى طاعة الله، وصبرت على لوم اللائمين فى سبيل الله ومرضاته، وهى النفس التى لا يأخذها فى الحق لومة لائم، أما التى رضيت وسكنت عن أعمالها، ولم تلم نفسها فهى التى يلومها الله عز وجل، لأنها نفس لوامة ملومة، جاهلة ظالمة.

٣- النفس الملهمة:

هذه السمة تظهر وتتضح إذا صدقت النفس وكانت عاملة عابدة لله، واستمرت فى المجاهدة ولم تتقاعس عن الرياضة النفسية.. وأمست المحاسبة[١] طبعها الدائم وخلقها الثابت فتتمسك بالقيم العليا من خير وإحسان.. بر وفضيلة.. فتستحق أن تلقب بالنفس الطائعة.. المطيعة لله.. التى تنشد الخير الفاضل والسبيل الأهدى فهى تعترض بالكلية على ما هو شر.. وتقبل على كل ما هو خير.. وهنا تلهم بالصالحات من الأعمال الهامة حتى تحظى بالدرجات العليا بفضل الله ومنته وتثبت فى مقام النفس الملهمة.

٤- النفس المطمئنة:

إذا واصلت النفس رحلتها فى الخير وأعمال البر والإحسان وأصبح هذا

(١) د. حسن الشرقاوى: ألفاظ الصوفية ومعانيها، المجاهدة، ص١٧٨.

الحال ظاهرها وباطنها. . فكرها وعملها. . واستقرت فى مقام السكينة فلا ترى غير الفضيلة مبدأ ولا تختار غير الخير بديلا فأمنها مع الحق، وأملها فيه تعالى وهنا تسمى بفضل الله. . النفس المطمئنة.

والنفس المطمئنة تمتار بالسكينة والتواضع والإيثار والرضا والصبر على الابتلاء والتوكل وإسقاط التدبير مع الله، فلا خوف ولا اضطراب ولا قلق ولا ضياع ولا ضجر، دائما رضا فى الله وأمل فى الله.

كما أن النفس المطمئنة تسير بمقتضى الإيمان، إلى التوحيد، والإحسان، والبر، والتقوى، والصبر، والتوكل، والتوبة، والإنابة، والإقبال على الله وقصر الأمل واستعداد للموت وما بعد الموت ويقول الله تعالى فى كتابه العزيز فى شأنها:

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾

[الفجر: ٢٧-٣٠].

وهناك صراع بين النفس الأمارة والنفس المطمئنة فى الإنسان، فأصعب شىء على النفس المطمئنة أن تتخلص من براثن الشيطان، ومن هوى النفس الأمارة، فلو علمت النفس المطمئنة أن عملها فى طاعة الله لنجت من العذاب والعقاب، ولكن النفس الأمارة والشيطان يقفا لها بالمرصاد، فلا يدعا لها عملا واحدا من أعمال الخير والطاعة يصل إلى الله تعالى، ولذلك يقول بعض العارفين: «إن عملا لى واحدا، خالصا لله، إذا وصل إليه تعالى، لكنت أفرح بالموت كفرح الغائب الذى يعود إلى أهله».

ويقول فى ذلك عبد الله بن عمر رضى الله عنهما:

«لو أعلم أن الله تقبل منى سجدة واحدة، فلا شىء أحب لى من الموت»[1].

(١) الإمام ابن القيم الجوزية: الروح، ص٢٢٦.

وإذا وصلت النفس إلى هذا المقـام. . أى مقـام النفس المطمئنة، وجـاهدت فإنها ترقى إلى مقام النفس الراضـية، ثم المرضية، ثم الكاملة وهى مراتب ومنازل نفوس الأنبياء والأولياء الصالحين أصحاب الدرجات العليا.

٥- النفس الراضية:

إذا أسكنت النفس الشيطان فى ذاتها. . أنزل الله عليها السكينة.

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ...(٤)﴾

[الفتح: ٤].

واطمأنت لحالها بالتوكل وإسقاط التدبير دون النظر إلى شهوة أو جنوح إلى معصية، سميت هذه النفس راضية.

٦- النفس المرضية:

فإذا وصلت النفس إلى مقـام النفس الراضية حيث أن سمتهـا الأساسية هى الرضـا فى كل الأحوال وإسـقاط التـدبير مـع الله. . إذا وصلت النفس إلى ذلك رضى الله عنها فـأصبحت مـرادة لله سبحـانه وتعالى، محـبية إليـه، فهى نفس مرضية:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨)﴾

[الفجر: ٢٧-٢٨].

٧- النفس الصديقية أو النفس الكاملة:

والنفس التى تمضى فى سـياحتهـا الروحية خـالصة لله. . متـوكلة عليه. . راضـية بمـا ترتزق به من خـير وشـر. . تجـاهد جهـاد الأبطال. . وتعـمل عـمل الأبرار. . وترضى بما أعطاها الله من نعم. . غير معتـرضة على ما يختبرها به من امتحانات وابتلاءات متوكلة عليه تعالى. . مسقطة للتدبير معه على الدوام.

هذه النفس يرضى الله عنها فتكون حبيبة إلى اللـه. . مرادة له تعالى متمتعة

بالكمالات الأخلاقية.. تحظى بالمقـامات العليا التى يحظى بها المؤمنون.. وتسمى فى هذا المقام بالنفس الصديقية مثلها مثل نفوس الأنبياء والأولياء الصالحين.

ونجد أن هذه الرحـلة الطويلة.. رحلة صعـود النفس فى السلم الروحى.. تعالج النفس شيئا فشيئا من أفاتها ونقائصها وعثراتها.

وجـدير بالذكر أنه لا يمكـن الفصل مطلقـا بين حـال النفس الأمارة وحـال النفس المطمئـنة، فالنفس واحدة ولكن أحـوالها متـعددة.. وسمـاتها متـباينة.. ومقـاماتهـا مخـتلفة فـالنفس تحوى الفـضيلة والرذيلة.. الخـير والشـر.. الشرك والتوحـيد النور والظلام، والإنسان يـحوى طبيعـة النفس الأمارة التى تسـير وفق هواها، ويقودها طمعـها ولذاتها وشهواتها، كـما تحوى النفس أيضا طبيـعة خيرة نورانية، تبـحث عن الحقيقـة، تنشد المعرفـة وتتحمل فى ذلك ثم أحـيانا تتكلف فترفض العادات التى تجدها غيرموصلة إلى الحقائق وغير دافعة للنفس والترقى، إذ أنها تجـدها حاجبة للمـعارف، تسد باب الحـقائق، فإذا مـا تكلفت النفس الأمارة للحصول إلى المعرفة وسلكت بابا عظيمـا وهو باب الخير والحكمة، فتؤتى الحكمة ولا تقبل غير الحكمة وهنا تؤتى خيرا كثيرا.

من ذلك كله نستطيع أن نستبين أن النفس الإنسـانية واحدة ولكن لها صفات جبلت عليها وأوصـاف وصفت بها وأحوال تعيش فيها وسـمات تتصف بها وهذه السمـات لا تظهر ولا تـتبلور إلا إذا سعى الإنســان إلى طريق الله، وتخلص من آفات وشهـوات نفسه الأمارة التى جبل عليهـا حتى ترقى النفس وتصل إلى أعلى المقامات بفضل الله وحده ورحمته ونعمته.

* * *

رابعا: النفس الإنسانية بين علم النفس الحديث وعلم النفس الإسلامي

سوف نتعرض فى هذا الجزء إلى دراسة مقارنة لمفهوم النفس الإنسانية وأسلوب معالجة آفاتها وأمراضها وذلك من واقع علم النفس الحديث وعلم النفس الإسلامي.

وقبل أن نبدأ فى هذه الدراسة المقارنة يجب أن نشير أولا أن دراسات علم النفس الحديث قد تجنبت التعرض إلى بحث بعض النقط الهامة مثل ما الإنسان؟ وما وظيفته؟ وما دوره فى الحياة؟ ما طاقته؟ ما حدود هذه الطاقات[1]؟ وذلك بدعوى أنها من مباحث الفلسفة التى لا ينبغى أن يخوض فيها علم النفس. وإن علم النفس معنى ببحث «الواقع» النفسى الذى يجده أمامه غير ناظر إلى أى هدف آخر خارج عن نطاق هذا البحث.

ولكن ذلك أدى إلى ثلاثة عيوب فى دراسات علم النفس الحديث:

الأول: أنه جعل هذه الدراسات على غير وعى بالإنسان المتكامل، الإنسان الواقعى الذى يعيش بحقيقته المتكاملة فى دنيا الواقع. فانحرف معظمها إلى دراسة أجزاء متفرقة من الإنسان على أنها هى «الإنسان» وأدت تلك الصور الجزئية إلى إعطاء صور خاطئة ومشوهة عن الإنسان.

الثانى: أنه جعل هذه الدراسات لا تميز كثيرا بين الحالات السوية والحالات المنحرفة لأنها فقدت المقياس الذى ترجع إليه لمعرفة الاستواء والانحراف، وعاملت كل شىء على أنه هو الواقع النفسى الذى تستخلص منه النظريات والتطبيقات ومن ثم صار الواقع المنحرف الذى يعيشه الناس فى الغرب فى القرنين التاسع عشر والعشرين هو المقياس الذى تقاس به النفس الإنسانية وتصاغ النظريات على أساسه وهو الصورة الطبيعية السوية التى يتعامل معها العلماء.

---

(١) محمد قطب: دراسات فى النفس الإنسانية، ص١٣ وما بعدها.

الثالث: هو دراسة النفس الإنسانية والحياة الإنسانية بمعزل عن الله ومن ثم لا تدرس النفس الإنسانية قط موصولة بالله خالقها ومحركها ومودع ما فيها من طاقات. حيث يدرس «العلماء» النفس الإنسانية فى مجالات التأثر المختلفة.. وليس من بينها جميعا تأثير الإرادة الإلهية فى حياة الإنسان!!

فمرة يدرس الإنسان تحت التأثير الجغرافى والمناخى والبيئى والمادى.. ومرة يدرس تحت التأثير الاقتصادى. ومرة يدرس تحت التأثير الاجتماعى. ولكنه لا يدرس مرة واحدة متأثرا بقدر الله الذى يقرر مصير كل شيء، بما فى ذلك مصير الإنسان! الإنسان فى مجموعه، وكل كائن فرد من بنى الإنسان. وينشأ من ذلك خطأ فاحش، بل جملة أخطاء.

فهذه المذاهب والنظريات كلها تغفل من حساباتها توجه النفس البشرية توجيها فطريا إلى خالقها، واستمدادها منه مكونات حياتها كلها، وقوانين حركتها، ومجالات تحركها، وطاقاتها، ومدى هذه الطاقات.. كما تهمل تأثير الديانات السماوية فى رسم خطوط جوهرية وحاسمة فى تاريخ البشر كله. وفوق ذلك تهمل حقيقة «كونية» هى تأثر الإنسان بقدر الله «المباشر» الذى يسير أحداث حياته ويشكلها، وكما تغفل أن التأثير الجغرافى والمادى والاقتصادى والاجتماعى.. إلخ، هى كلها إطار لقدر الله، وليست شيئا مستقلا عن إرادة الله!.

وهذا الإغفال المتعمد يحدث تشويها وتشويشا فى الصورة المرسومة «للإنسان» فتارة يرسم كأنه يقوم فى هذا الكون وحده، وكأنه هو الإله فى هذا الكون! (وليس هذا حقيقة علمية، فهو إنما يقوم بالاستمداد من خالقه فى كل شأن من شئونه، وفى الحدود التى رسمها له خالقه) تارة يرسم عبدا لتلك الآلهة المزعومة: آلهة الاقتصاد والاجتماع والمادة (وفى ذلك إصغار لقيمته الحقيقية) وتارة يرسم كأنما تحركه الأفعال المنعكسة. أو الجنس. أو الكيماويات. أو الميكانيكية الجسمية.. وحدها.. (وفى ذلك تشويه لحقيقة الكيان الداخلى للإنسان)، وفى جميع الحالات تنعكس تلك المفاهيم المنحرفة على الصورة المرسومة، ولا يكون الإنسان الذى ترسمه هو حقيقة «الإنسان».

إن هذه الأخطاء الثلاثة تظلل معظم الأبحاث النفسية فى علم النفس الحديث وتجعل كثيرا من الحقائق الجزئية التى يتوصل إليها العلماء لا تصل إلى دلالتها الحقيقية التى كان يمكن أن تؤخذ منها لو ارتكزت هذه الأبحاث على القاعدة السليمة للبحث وهى «الإنسان». فكانت النتيجة الأخيرة كما قال الكسيس كاريل[1] هى الجهل المطبق بحقيقة الإنسان وإنشاء نظم وحضارات ونظريات علمية من شأنها تدمير الإنسان.

وحين ننظر فى اتجاهات علم النفس الحديث[2] ندرك على الفور كيف أدت هذه النظرة الجزئية إلى كثير من الاختلالات فى تصور «الإنسان» وكيف ضيعت فرصة الاستفادة من الحقائق الجزئية التى توصل إليها العلماء.

فحين أدلى فرويد بنظريته فى «العقل الباطن» وعالم «اللاشعور» كان ذلك كشفا له قيمته ولا شك فى محاولة تفهم النفس الإنسانية والاهتداء إلى بعض أغوارها التى يكتنفها الظلام.. وعن النظرة الجزئية - التى تحصر فى ذات الوقت على اعتبار أن الجزء الذى اهتدت إليه هو «الإنسان»- هذه النظرة الجزئية أدت بفرويد إلى تصوير خاطئ خطر للنفس الإنسانية، إذ صورها على أساس أن اللاشعور - أو العقل الباطن - هو «الإنسان الحقيقى».. وأن العقل الواعى هو إنسان مزور لا يمت بسبب إلى الحقيقة! إنسان مفروض على «الإنسان الحقيقى» من خارج نفسه وخارج كيانه! إنسان تتمثل فيه الموانع والكوابت التى يفرضها المجتمع أو القوى الخارجية - من دين وأخلاق وتقاليد وقوة وسلطان.. إلخ - على الكيان الحقيقى للإنسان!.

وكانت هذه هى البذور الخاطئة التى نبتت منها اختلالات شتى فى فهم النفس الإنسانية والحياة البشرية!.

فقد أغفل فرويد جملة من الحقائق النفسية «العلمية» كان قيما أن يدركها ويعمل حسابها لولا هذا الإصرار المعيب على النظرة الجزئية للإنسان:

---

(١) الكسيس كاريل: «الإنسان ... ذلك المجهول» تعريب شفيق أسعد فريد.

(٢) محمد قطب: دراسات فى النفس الإنسانية، ص١٨ وما بعدها.

أغفل أولا: أن العقل الواعى جزء من بنية النفس الإنسانية كالعقل الباطن موجود فى كيانها وليس مفروضا عليها من الخارج. فلا الدين والأخلاق والتقاليد ولا المجتمع بما يملك من قوة وسلطان، ولا غيره من العوامل المادية أو المعنوية تملك أن «تنشئ» فى النفس شيئا لم يكن فى بنيتها من قبل[1] وغاية ما قد تملكه هذه العوامل والقوى أن «تشكل» هذا الشيء الموجود بالفعل، ولكنها لا تنشئه إنشاء ما لم يكن موجودا فى الفطرة من قبل.

وأغفل ثانيا: أن المجتمع والميل إليه والخضوع له كلها حقائق نابعة من داخل النفس وليست مفروضة عليها من خارجها! فالرغبة فى الاجتماع بالآخرين هى التى تنشئ المجتمع، وهى التى تجعل الإنسان يضحى - أحيانا - ببعض رغباته وملذاته الفردية فى سبيل الوجود فى المجتمع. وهى رغبة فطرية موجودة فى داخل النفس، ولا تملك قوة فى الأرض أن تنشئها إنشاء - بمجرد الضغط - لو لم تكن موجودة بالفعل. ومن ثم فإنه على فرض أن العقل الواعى يتكون من ضغط المجتمع الخارجى - وهو أمر غير مسلم! - فإنه ينبع فى النهاية من جزء فطرى فى داخل النفس، هو الرغبة فى الاجتماع بالآخرين!

وأغفل ثالثا: أن الموانع - أو حتى الكوابت كما يسميها ! - التى تنشئ القيم العليا، ليست جزءا خارجا عن كيان الإنسان مفروضة عليه من الخارج بالضغط والقهر. فلولا وجود الاستعداد الفطرى فى النفس لتقبل هذه الموانع من جهة، وإنشاء القيم العليا على أساسها من جهة أخرى لما أدى الضغط الخارجى إلى إنشائها البتة، مهما اشتد وطغى لأنه ليس من طبيعة الضغط ولا فى طاقته أن ينشئ شيئا لا وجود له من قبل!

---

(١) أقر فرويد - دون شك - بأن النفس الواعية أى الذات، والذات العليا، Ego and Super Ego موجودتان فى النفس كجزء منها. ولكنه أصر على أنهما ينشآن من ضغط العوامل الخارجية، ولم يعترف بشيء موجود فى النفس وجودا فطريا إلا الذات السفلى التى هى القوة المحركة للإنسان، وهى غير واعية.

ومن هنـا أعطى فـرويد صورة غير حقيقيـة للنفس الإنسانية، خلاصتها أن «الكيان الحقيقى للإنسان» هو الطاقة البهيمية البحتة، وإن كل تعديل لهذه الطاقة أو تشكيل أو تهذيب، ليس داخـلا فى هذا الكيان «الحقيقى» وإنما هو مـفروض عليه من الخارج من لدن قوى عدوانية لا هم لها إلا تحطيم «الكيان الحقيقى للإنسان»!.

ومرة أخـرى حين كشف فـرويد عمق الدافع الجنسى فى الكيـان البشرى، وتشعب أطرافـه وامتدادها، كان هذا كـشفا حيـويا ولا شك قيمـا أن يزيدنا علما بأغوار النفس الإنسـانية، لولا إصراره على النظرة الجـزئية التى تصر على تفسـير «الكل الإنسانى» بالجزء الذى تسلط عليه الأنوار.

فلم يكتف بما فعله فى المرحلة السابقة من تفسير الإنسان على أساس حيوانى بحت، وإقصاء كل عنصر «إنسانى» فى كيـانه، بحجة أنه مفروض عليه من خارج نفســه، وليس أصيلا فـى كيانه الحـقيقى! بل زاد على ذلك أن أعـطى هذا الكيان الحيوانى لونا جنسيا صارخا، فلم يتركـه حتى كالحيوان الحقيقى يأكل بلذة الأكل، ويشـرب بلذة الشرب، ويجـرى بلذة الجـرى، ويصارع بدافع الصـراع، ثم يؤدى نشاطه الجنسى بلذة الجنس، بالإضافة إلى النشـاط الجنسى المتعارف على أنه نشاط جنسى فصار الطفل يرضع بلذة جنسـية، ويتبول ويتبرز بلذة جنسـية، ويحس نحو أمه بدافع جنسى. إلى آخر هذا الخلط الدنس الذى لا يقوم عليه دليل.

ومن ثم ضاع الكشفان الأول والثانى فى غمار هذه اللوثة المنحرفة النابعة من النظرة الجزئية الخاطئة، وقـد كانا جديرين - فى ظل النظرة المتكاملة للإنسان - أن يؤتيا ثمـاراً أطيب وأصدق مما وصل إليه فرويد بنظرته الجـزئية المبتسـرة التى تصر على تشويه «الكيان الحقيقى للإنسان».

وحين راح تلميذاه ادلر ويـونج يحاولان تخفيف انحراف أستاذهما وشرهه الجنسى، بوضع «قاعدة» أخرى للحـياة الإنسانية غير قاعدة الجنس، فقال أدلر أن الدافع الحيوى للفرد هو شعوره بالتفوق فى ناحية معينة إزاء الجماعة، وقال يـونج إن هذا الدافع هو الشعور بالنقص ومحاولة التعـويض.. كان كلاهما يضع إصبعه على حقيـقة جزئية فى النفس الإنسـانية تفيد فى إلقاء بعـض الضوء على أغوارها

البعيدة، ولكن كلتا الحقيقتين ضاعت ولم تؤت أكلها، لأنهما أصرتا على تفسير «النفس» كلها بهذه الجزئية الصغيرة التى لا تفسر وحدها شيئا فى حقيقة الأمر.

وحين راحت المدرسة التجريبية تضع النفس الإنسانية فى المعمل. . كانت تصل ولا شك إلى بعض الحقائق الجزئية النافعة. ولكنها أفسدت هذه الحقائق وأذهبت قيمتها بالإصرار على تفسير النفس كلها بهذه الجزئيات، فى حين أنها ليست فقط عاجزة عن تفسير الكل الإنسانى المعقد لأنها جزئيات، بل هى كذلك أبعدت الجزئيات جميعها عن تفسير النفس الإنسانية، بسبب أن الطريقة التجريبية ذاتها لا تستطيع أن تأخذ من النفس إلا جانبها «الجسدى» الذى تستطيع أن تقيسه بالمقاييس المادية وتدركه بالحواس، وتقف عاجزة عجزا تاما عن الوصول إلى أى شىء فى النفس لا يقع فى دائرة الآلات والحواس ومن ثم تقف عاجزة فى الحقيقة عن كل الكيان الأعلى فى نفس الإنسان فقد تستطيع أن تقيس «التعب» أو «النشاط» الجسمانى وتأثير الغدد فى مشاعر الإنسان وحالته النفسية، ولكن كيف تقيس إحساس الإنسان بالحق والعدل والجمال، وكيف تقيس إبداعه الفكرى ونشاطه الروحى الطليق؟.

وحين راحت المدرسة السلوكية تفسر الإنسان على أنه مجموعة من العادات، وردود الفعل الشرطية المنعكسة coditioned Reflexes التى تنميها البيئة (أو لا تنميها)، والتى لا يختلف بعضها عن بعض إلا باختلاف المؤثر، لم تكن فى الحقيقة تفسر «الإنسان» بقدر ما كانت تفسر «الحيوان»، ثم تحيل الإنسان على ما تتصوره من سلوك الحيوان، فترد السلوك كله إلى أسباب «فسيولوجية» (أى جسدية) وترد «التعلم» إلى الأفعال وردود الأفعال ذات الطابع الحسى البحت. . وتضيق «مساحة» الإنسان بذلك إلى درجة مزرية، فلا فكر ولا إرادة ولا مثل ولا قيم عليا ولا مشاعر رفيعة. . وإنما هى الحيوانية الحسية وفى أضيق نطاق.

وحين راحت المدرسة الميكانيكية تشبه الحياة كلها - بما فيها الحياة الإنسانية - بالجهاز الآلى، المحكوم بضرورات الآلة، والذى تفسر نشاطه كله قوانين الطبيعة

والكيمياء لم تكن تـكتفى بتجريد الإنسان من إنسانيتـه، ولا تكتفى حتى برده إلى صورة حيوانية محـدودة النطاق.. إنما كانت تهبط به إلى درك أسفل هو أن يصبح مجـرد آلة تحكمه ضـرورات الآلة.. وتنتفى عنه بطبـيعة الحـال كل إرادة موجـهة إنسانية أو حتى حيوانية وتنتفى عنه بصورة أبشع، كل رفرفة طليقة وكل شعور نبيل كما تصبح كل تنظيـماته الفكرية والروحية والمادية والاقتصادية والاجـتماعية أدنى حتى من تنظيـمات الغريزة فى خليـة النحل أو بيت النمل فقد صـارت أجزاء من الآلة الكبرى.. الصماء الخرساء.. المحكومة بالضرورات.

وبناء على الأسس السابقـة يمكن إيضاح مدى اختـلاف علم النفس الحديث وعلم النفس الإسـلامى فى طريقة فهم النفس الإنسـانية وأسلوب مـعالجة آفـاتها وأمراضها - ذلك من التعرض بإيجاز إلى بعض الدراسات المقارنة التالية:

أولا: إن الإحساس بالذنب عند فرويد مرض.. والتوبة نكص.. والندم تعقيد.. والصبر على المكاره برود.. وقمع الشهوات كبت له عواقبه الوخيمة..

بينمـا نرى الـديـن يقف على النقيض من هذه النظرة.. فـيعلمنا أن قمع الشهوات هو شـاهد على سلامة النفس واقتدارها، وإن الإحسـاس بالذنب علامة صحـة وأن التوبة والندم مـوقف علم تدل جميـعها على فطـرة سوية أدركت الله وعرفت أنه دائما مع الحق والعدل والخيـر، ولا يرى الدين أن النفس محض فجور بل يصفها بأنها قابلة للفجور والتقوى.. وأن الله ألهمها فجورها وتقواها معا فهى تستطيع أن ترتقى فى معراج نورانى نحو الله وأن تتهابط سفلياً فى درك الشهوات، وهى فى ذلك مخيرة.. وكل إنسان يتصرف على شاكلته.

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ... (٨٤) ﴾

[الإسراء: ٨٤].

ثانيـا: ينظر علم النفس الحديث إلى النسيان باعتـباره مرضا ينتج عن عدم الاهتمام أو فرط الاهتمام أو كون الموضوع المطلوب تذكره موضوعا مؤلما أو بسبب تقادم العهد أو بسبب كبت الخبرة المنسـية فى اللاشعور والطبيب النفسى يحاول أن

يصل إلى هذه الخبـرة المنسيـة بالتحليل أو بالتنويم المغناطيـسى أو بملاحظة المريض أثناء تداعى خواطره.

ولكن الدين ينظر إلى الموضـوع فى إطار واسع وشـامل، هو إطار العلاقـة بالله، فـمن كان قـريبا من ربه ذاكـرا له على الدوام كانت قـدراته دائما مكتـملة وحاضرة وجـاهزة لا ينسى شيئا ولا يغـيب عن باله شىء لأنه فى دائرة النور، أما البعد عن الله فيدخل صاحبه فى دائرة الظلمة ويجعله من أهل الغفلة.

﴿ ... نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ... (١٩) ﴾

[الحشر: ١٩].

وهؤلاء هم الذين يتخبطون فى مـتاهات النسيان والحيرة والضـياع، والفرق بين نظرة علم النفس ونظرة الدين.. هو افـتقار علم النفس إلى الشـمول والنظرة الواسعة الكلية وسجنه لنفسه داخل إطار الخبرة المادية والدنيا المادية واللذة المادية.

ثالثـا: وبهذا المنظار ينظر علم النفس إلى الوسواس والخـاطر فيرى أنه نفث من اللاشعور وأنـه حديث النفس إلى النفس، ولا يتصور أن تلك النفـس تحيا فى محيط آخر خـفى وأنها يمكن أن تكون محلا لمخاطبة الملائكة أو وسـوسة الشياطين أو مكالمة الرب جل جلاله.

وبهذا المنظار ينظر علم النفس إلى العذاب النفسى فلا يكاد يخرجه فى إطار الحرمان من اللذات المـادية فلا يتصور أن العذاب الدنيـوى يمكن أن يكون ابتلاء أو امتـحانا من الخـالق الذى خلق. ويظل علم النفس سـجينا لهـذه المحدودية وهذه الرؤية المادية الحسية بكل شىء بشكل ينتهى به إلى الخطأ فى جميع أحكامه.

رابعـا: ولهذا ينظر علم النفس إلى العمل فى نـطاق الفعل والحافز دون أن يتعب نـفسه فى تحليل مـدى صدق وإخـلاص هذا الحافز ودون أن يتـخطى هدف الفعل ويسأل ماذا يريد صاحبه.. هل يريد تحصيل المال أو الشهرة أو المجد أو الجاه عند الناس؟ أم يعمل خالصا مخلصا لوجه الله؟

خامـسا: لا يرى علم النفس إمكانية لتبديل النفس أو لتغييرها جوهريا لأن النفس تأخـذ شكلها النهائى فى الـسنوات الخمس الأولى من الطفـولة. ولا يبقى

للطبيب النفسى دور سوى إخراج المكبوت إلى الوعى.. أو فتح نوافذ للتنفيس أو التعبير وتخفيف الغليان الداخلى.. وبهدف الوصول إلى ذلك يلجأ الطبيب النفسى إلى العلاج بالتنويم المغناطيسى أو العلاج بالتحليل أو العلاج بالإيحاء أو العلاج بالتنفيس والتعبير والقىء واللعب أو العلاج بالاستغراق فى عمل آلى.

وكل هذه الصور من العلاج أشبه بعلاج السرطان بالمراهم أو المسكنات لأنها لا تحاول أن تغير من النفس شيئا، فكلها تقبل وجود الدمل النفسى على حاله ثم تقول للمريض اصرخ أو غنى وارقص لتنفس عن آلامك.. أو تضع يده على الدمل وتقول له هنا الدمل.. هذا كل جهدهم.

أما الدين فيقول بإمكانية تبديل النفس وتغييرها جوهريا ويقول بإمكانية إخراجها من ظلمة البهيمية إلى أنوار الحضرة الإلهية ومن حضيض الشهوات إلى ذروة الكمالات الخلقية وذلك بالرياضة والمجاهدة.. ويكون ذلك على مراحل.

١- تخلية النفس من عاداتها المذمومة، وذلك بالاعتراف بالذنب والعيوب وإخراج هذه العيوب إلى النور كما قال موسى لربه بعد قتل المصرى خطأ.

﴿ ... رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ... (١٦) ﴾

[القصص: ١٦].

وكما نادى يونس فى الظلمات:

﴿ ... لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾

[الأنبياء: ٨٧].

٢- التوبة وقطع الصلة بالماضى والندم ومراقبة النفس فيما يستجد من أمور ومحاسبتها على الفعل والمخاطر.

٣- مجاهدة النفس المرضية بأضدادها وذلك برياضة النفس الشحيحة على الإنفاق، وإكراه النفس الشهوانية على التعفف، ودفع النفس الأنانية

إلى البـذل والتضـحيـة، وحث النفس المخـتالة المزهوة على التـواضع والانكسـار واستنهاض النـفس الكسولة إلى العـمل.. وبمعالجـة الضد بالضد تصل النفس إلى الوسط العدل.. وهو صراط الحكمة وهو حظ الكاملين من البشر.

ولا تنجح تلك الـرياضـة دون طلب المدد والعـون من الله، ودون الصـلاة والخشوع والخضوع والفناء فى محبة الله ركوعا وسجودا فى توحيد كامل (وتوحيد الله لا يكون إلا بطاعته الكاملـة والاسترسال معه.. فـلا تريد لنفسك إلا ما يريد ربك، ولا تطلب لنفسك إلا ما يطلـبه هو لك، وهنا تحدث المعجزة فيـتبدل القلق سكينة، والفـزع طمأنينة والخسة الشـهوانيـة عفـة وطهارة، والنواقص الـنفسـية كمالات).

وذروة العلاج النفسى فى الإسلام هى «الذكـر»، وذكر الله بالقلب واللسان والجوارح والسلوك والعـمل واستشعـار الحضرة الإلهـية على الدوام وطول الوقت وفى كل قول وفعل.

وفى الذكر شفاء ووقاية وأمن وطمـأنينة لأن الذكر يعيد الصلة المقطوعة بين العبـد والرب ويربط النفس بمنبعـها ويرد الصنعة إلى صـانعهـا، حيث هو الأعلم بعيوبها و الأقدر على علاجها:

﴿ ... ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ... (٦٠) ﴾

[غافر: ٦٠].

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ... (١٥٢) ﴾

[البقرة: ١٥٢].

فـيعـود النور ليـغمـر ظلام النفس ويحل العـمار مـكان الخراب وتتـجلى الكمالات الصفاتية الإلهية على قلب العبد الخاشع.

سادسا: وبينما يرى فرويد الطيبة تخاذلا وسلبية وينصح مريضه قائلا له: «كل وإلا فأنت مأكول» نرى نحن الطيبة قوة وإيجابية، ونأمر بالصفح:

﴿ ... فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) ﴾

[الحجر: ٨٥].

﴿ ... فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا ... (١٠٩) ﴾

[البقرة: ١٠٩].

﴿ ... وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ... (٢٣٧) ﴾

[البقرة: ٢٣٧].

سابعا: وبينما يختار **فرويد** من الأعمال ما يساعد على تفريغ وتنفيس الغليان النفسى، نشترط نحن العمل الصالح.

ثامنا: وبينما يرى أن ماضى الطفولة حاكم على كل إنسان وموجه لأفعاله لا نقول نحن بحاكم إلا الله ونقول إننا بفضل الله يمكن أن يخرج من أى حكم ونتخلص من أى حكومة، وبينما يقول بفطرة عدوانية وبغريزة التحطيم والهدم وغريزة الموت وبالطاقة الشهوانية كدوافع رئيسية، نقول نحن أن الإنسان فطر حرا مختارا بين النوازع السالبة والموجبة يختار ما يشاء منذ البداية.

وسبب كل هذه المادية الفرويدية ومادية علم النفس الحديث بوجه عام هو تصوره للإنسان تصورا حسيا فسيولوجيا.

وقد ظهر فشل الطب النفسى الحديث من التتبع الإحصائى للحالات التى تم علاجها نفسيا.. فقد اتضح أن معدل شفاء المرضى العصابيين ثابت سواء عولجوا على طريقة **فرويد** أو عولجوا بطريقة أدلر أو لم يعالجوا على الإطلاق.. فمن يشفى منهم حاله كحال مريض الانفلونزا مصيره إلى الشفاء سواء بالعلاج أو بدون علاج.

وأخيرا رأينا الطب النفسى ينتكس ويرتد إلى العلاج المادى بالمسكنات والمهدئات والمخدرات.. والمقومات.. وهو اعتراف بالعجز والفشل وهروب من المشكلة كلها بالنوم عنها.

تاسعا: لقد رد **فرويد** الشخصية الإنسانية المتعددة الجوانب، والتى تحمل حد الخير وحد الشر، والحق والباطل والإيمان والكفر، والسمو إلى الكمالات الأخلاقية والسقوط إلى البهيمية، رد **فرويد** حقيقة الإنسان إلى قوى غرائزية غامضة، تدفعه إلى سلوك غير متبصر وأعمال قسرية غير واعية، فحبس عقله وجعله حيوانا أعجميا تقوده ضغوط البيئة فى العمل والسلوك والحياة.

فالذى تقبله البيئة يسلكه الفرد، والذى ترفضه البيئة يكبته.. فأى صورة مشوهة هذه للإنسان؟ ألم يرفعه الله؟ ألم يقل تعالى:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾

[التين: ٤].

عاشرا: ثم إن **فرويد** يدعى أنه يمكن تفسير أمراض وتصرفات الإنسان الحاضرة، دون شىء خارجى أى أن الإنسان يحمل فى ذاته عللاً ومعلولات، وأسباب ومسببات، المطلوب الرجوع إلى السجل لنفتحه ونقرأ، لنعرف سبب ما يحدث له، وما يحدث ليس غريبا ولا غامضا لأننا نكشفه بمجرد أن نرجع لماضى الفرد، وبالأخص لطفولته، وبالتحديد لسنواته الخمس الأولى.

لا داعى إذن للتوبة ولا للندم لأن هناك حياة نفسية، فهذا الإنسان تحركه دوافع وحاجات قسرية، وأن الخطيئة والإثم لا يفعلهما الإنسان، بإرادته، فالإنسان مغلوب على أمره، وهذا الرأى مرفوض فى جميع الشرائع، بل ومرفوض أيضا فى الفطرة السليمة:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾

[الشمس: ٧-٨].

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾

[البلد: ١٠].

أى طريق الخير وطريق الشر.

وأن الإنسان قادر على أن يختار بين:

﴿ ...ولا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ ... (٢٨) ﴾

[الكهف: ٢٨].

وبين:

﴿ ...مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) ﴾

[يوسف: ٩٠].

إذن الإنسان قادر على الاختيار بل قادر على الصبر وكظم الغيظ، وعلى تحمل ضياع المحبوب واحتمال المكروه، وذلك بالعزم ومخالفة النفس ورياضتها وسياستها، فالصبر حابس لنفسه عما تتنازع إليه من الشهوات، وما تشكو من الآلام:

﴿ ... سَتَجِدُنِي إن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً ... (٦٩) ﴾

[الكهف: ٦٩].

والصبر يأمر به العقل، موهبة أودعها الله الإنسان وليس بصحيح ما يدعيه فرويد بأن الكبت لا دخل للعقل فيه، وبأنه عملية لا شعورية.

وإذا فاضلنا بين فوائد الصبر وما يجلبه على الإنسان من الخير عاجلا، ظهرت حينئذ فضائل العقل.

والذى يصبر ويكظم غيظه، قادر أن يغضب وأن يثور وأن يؤذى لأنه فى موقف اختيار.. إلا أنه يختار الأفضل والأحسن والأبقى، وذلك وارد فى قوله تعالى:

﴿ ... وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾

[آل عمران: ١٣٤].

لقد كبت سيدنا يعقوب ـ عليه السلام ـ آلمه، وكظم غيظه، وكتم حزنه،

عندما أخبر كذبا بأن ابنه يوسف ـ عليه السلام ـ قد أكله الذئب، فورد قوله تعالى عنه:

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) ﴾

[يوسف: ٨٤].

لقد صبر يعقوب عليه السلام ـ وتحمل مفارقة ابنه له، وحبس نفسه عن الشكوى لغير الله لأنه آمل في الله، لقد عرف أن ذلك اختبار وامتحان من الله تعالى بقوله عن الله تعالى:

﴿ ... أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٩٦) ﴾

[يوسف: ٩٦].

فالإنسان المؤمن يكظم غيظه، ويصبر لله وفي سبيل الله:

﴿ ... وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ... (١٠٩) ﴾

[يونس: ١٠٩].

كما يتحمل الألم وهو واع به، آمل في الله، عالم بصبره وإلا كيف يصبر كما يقول الله تعالى:

﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) ﴾

[الكهف: ٦٨].

الصبر موقف علم وحال عمل وجهاد للنفس، ومخالفة لأهوائها، وليس موقفا مرضيا أو عصابيا وإنما هو موقف يدل على الصحة النفسية والقدرة على تحمل الابتلاءات[1].

﴿ ... فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ... (٨٣) ﴾

[يوسف: ٨٣].

---

(١) د. حسن الشرقاوي: ألفاظ الصوفية ومعانيها، ص٩٩.

وعكس الصبر الجزع والقلق والخوف والهلع، وذلك وارد فى قوله تعالى عن الصابرين:

﴿ ...وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ... (١٧٧) ﴾

[البقرة: ١٧٧].

أى الصابرون فى جميع الأحوال دون اعتراض أو تمرد أو رفض:

﴿ ...إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) ﴾

[ص: ٤٤].

﴿ ... إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ... (٦٥) ﴾

[الأنفال: ٦٥].

والمكبوت غير الصابر لأن المكبوت كما يتصوره - فرويد - مريضا جزعا، يحيا فى عالم من الأوهام، لا تتحمل أعصابه شيئا، وأنه كآلة مشدودة، تكاد تتقطع أوتارها.

أما الصابر فهو قوى بالله، آمل فى الله، لأنه صاحب عقيدة، يؤمن بها إيمانا لا ريب فيه، الصابر يغلب مائة أو اثنين على الأقل غير صابرين[1].

والصبر ابتلاء من الله، وليس ناتجا عن ضغوط بيئية قسرية كما يدعى فرويد إنما هو امتحان للفرد لمعرفة قدرته على التحمل فى سبيل الله:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ ... (٣١) ﴾

[محمد: ٣١].

فالصبر خوف من وعيد الله، فلا يقدم الصابر على اقتراف إثم أو خطيئة ولا يشعر بحقد أو حسد، والصبر رجاء فى وعد الله، فلا يطلب الصابر لذة حسية أو شهوة عابرة، إنما أمل على الدوام فى فضل الله، ونعم الله وعطاء الله، وعون الله:

(١) المرجع السابق.

﴿ ... إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) ﴾

[البقرة: ١٥٣].

ليس هناك بين الصابر وبين ربه حجاب، فالصابر آنس بالله، آمن بما يمده الله من سكينة وطمأنينة:

﴿ ... وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ... (١٢٧) ﴾

[النحل: ١٢٧].

فالصابر ليس سلبيا، والصابر ليس مغلوبا على أمره، وإنما يقف موقفا إيجابيا فيه سمو عن الأحداث، وارتفاع عن الغرائز، ورضا بالقضاء، وليس هو بموقف المرتعب، وإنما هو موقف المطمئن، هو سكينة ليس فيها عجلة، ولا حركة وإنما موقف علم أو معرفة إيمانية أساسها الحكم السليم، والعقل الراجح الذى يهدف إلى الاستقامة، والاستقامة هنا الوسط العدل، الذى هو العمل الصالح، والخير الفاضل[1].

أما الغفلة فهى حركة فيها ضعف، والضعف اضطراب وقلق فيعمى الإنسان عن الحق، ويخلط الصالح بالطالح، فيسير الإنسان بغرائزه ما دام العقل غافلا.

أما الصابر فهو كمرآة تتلألأ عليها الأنوار وتتلقى الحقائق فى انتظار فرج الله:

﴿ ... إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) ﴾

[يوسف: ٩٠].

حادى عشر: وفى تصورنا أن الإنسان ليس مستودعا للشهوات والرغبات والحاجات الغريزية فحسب - كما يدعى فرويد وتلامذته - وإنما إذا كان الله قد أودع فى جبلة الإنسان بعض الشهوات والآفات والعيوب، فإنه أيضا قد وهبه عقلا

---

(١) د. حسن الشرقاوى: الشريعة والحقيقة - العدل، ص٨٥.

راشدا، وقلبا واعيا، وروحا من لدنه تعالى، فإذا وقع الإنسان فى الإثم، فعليه أن يبادر إلى التوبة.

والتوبة ندم، والندم موقف علم إيجابى، لأن فيه مخالفة لأهواء النفس واختيار الوسط العدل، ورياضة أساسها العزم وسياسة، ورعاية، ومحاسبة، ومراقبة تستهدف رجوع النفس إلى الاعتدال والتوازن.

فالندم توبة، لأنه رجوع إلى الحق، وبُعد عن الإثم والعدوان، بل عن الجهل والجهالة تصديقا لقوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ... (١٧) ﴾

[النساء: ١٧].

أما الذى يعمل السوء، وهو يعلم الحق، فهو المنافق والمرائى والكاذب والمخادع، والمرجف والفاسق، والكافر، وجميعهم أصحاب قلوب مريضة وعقول حمقى، ونفوس فاجرة.

ليس إذن كما يدعى فرويد ـ الإنسان مغلوب على أمره، ،أن الحتمية النفسة هى ميراث مفروض وقدر محتوم، لا يستطيع الإنسان منه خلاصا، إنما حقيقة الأمر، أن الطريق واضح جلى، والإنسان عليه أن يختار، إما طريق الحق أو طريق الباطل:

﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) ﴾

[الملك: ١٣].

فالباطن والظاهر، والشعور واللاشعور، كله بعلم الله ومنة الله، وقضاء الله، والإنسان مطالب بأن يتقى، ويصبر، وأن يهجر فسقه وهوى نفسه، وأن يصدق ظاهره مع باطنه، فإذا تم له ذلك وهداه الله إلى الرشد فلا أمراض نفسية، ولا مذلة، ولا خضوع أو مسكنة لغير الله، إنما يصحب المؤمن قلبا سليما، وعقلا رشيدا، أما الفاسق فهو مخادع، يكذب ويرائى لمرض فى نفسه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾

[الحجرات: ٦].

وهذا الفاسق قد اختار لنفسه الظلمة طريقا مسدودا، فأوقع نفسه للأمراض والعلل لجهله وفساد اختياره، وحمق عقله، ومرض قلبه، فغفل عن الحق، واتبع الهوى:

﴿ ...وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ... ﴿٢٨﴾ ﴾

[الكهف: ٢٨].

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ... ﴿١٢٤﴾ ﴾

[طه: ١٢٤].

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

[الزمر: ٤٥].

﴿ ...إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ ﴾

[الرعد: ١٩].

ثاني عشر: ونحن لا يمكن أن نتفق مع منطق **فرويد** فى أن العصابيين هم حملة مشاعل الحرية والحضارة، بل على العكس، هم حملة الظلمة والخوف والرعب والفزع واليأس والقنوط، وما دام العصابى كما يدعى **فرويد** بركانا يغلى من الداخل، ومستودعا للمتناقضات، والمكبوتات التى لا تستطيع نفاذا على سطح الشعور فإن العصاب ليس تعبيرا عن نفس القوى التى أدت إلى أسمى أمانى جنسنا، وإنما على العكس من ذلك تماما يمثل العصاب أنواعا من الأمراض التى يصاب بها أصحاب الوساوس والرياء والفسق والفجور، والعصيان وكل من فى قلبه مرض، وكل من يشيع الفاحشة والاضطراب فى الناس تصديقا لقوله تعالى:

﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) ﴾

[الأحزاب: ٦٠-٦١].

فالمرجفون كالمنافقون، توعدهم الله تعالى بالرجفة، وهي الاضطراب الشديد والقلق والفتنة، هؤلاء هم المنافقون، الذين فسقوا أو خانوا عهد الله بعد ما بلغوا برسالته ونصحهم النبي ﷺ:

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩) ﴾

[الأعراف: ٧٨-٧٩].

لذلك فإننا نرى الأمراض النفسية والعصبية التي يذكرها فرويد، إنما تنطبق على مريض القلب، الذي لا إيمان له، المتهالك على هوى نفسه، والذي عبدها وسجد لها، وأما المؤمن بالله فلا يصاب، ولن يصاب بهذه الأمراض ما دام مخلصا له تعالى لأنه يعرف طريقه، ويتجه إلى خالقه بكليته، ويخالف حظوظ نفسه وأهوائها وباطنه وظاهره سواء، فهو صادق في سره وعلانيته، لأن الله سبحانه وتعالى يطمئن قلبه، ذلك تصديقا لقوله تعالى:

﴿ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) ﴾

[طه: ٤٦].

أما الفاسق فهو المذكور في الآية الكريمة:

﴿ ... أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) ﴾

[محمد: ١٦].

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) ﴾

[محمد: ٢٣].

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (١٨) ﴾

[البقرة: ١٨].

ثالث عشر: وإذا كان فى زعم فرويد أن هناك فى منطقة اللاشعور تناقضات وخلط بين قوى غريزية جنسية متصارعة[1] فإننا نرى أن ذلك فرضا لا أساس له من الصحة، إنما هناك قلب مريض، فيكون باطن الإنسان مريضا، أو قلب سليم، فيكون باطن الإنسان سليما لقوله تعالى فى ذلك:

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ... (٤) ﴾

[الأحزاب: ٤].

فليس هناك إذن، تناقضات فى قلب الإنسان، وضمير الإنسان وليس هناك ميراث لا شعورى يجهله الإنسان، إنما كل ما يعمله الإنسان مسئول عنه وكل ما يجهله مرفوع عن حسابه ولا يمكن أن يحمل الحق تعالى الإنسان أوزارا أو أعباءً هو غير مسئول عنها.

ولذلك كان الخطاب من الله ـ سبحانه وتعالى ـ دائما للذين كذبوا بآيات الله والذين صدقوا آياته، فيقول تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ...(٣٩) ﴾

[الأنعام ٣٩].

﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ... (٤٠) ﴾

[الزخرف: ٤٠].

والله ينذر قبل أن يحاسب ويحذر قبل أن يعاقب، ويعرّف قبل أن يسائل:

﴿ ... إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) ﴾

[الإسراء: ٣٦].

(١) ك. هوك: نظريات الشخصية، ترجمة: د. فرح أحمد فرح، مراجعة د. لويس مليكة، ص٢٩-٣٤.

الله سبحانه وتعالى إذن يعلم عبده بالطريق الواجب الاتباع:

﴿ ... فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ﴾

[الحديد: ٢٦].

رابع عشر: والادعاء بأن الإنسان مغلوب على أمره قول مرفوض، ذلك أن الله قد أنذر العباد منذ الخلقة الأولى، وأخذ عليهم ميثاقا غليظا ولكن بعضهم نقضوا العهد:

﴿ ... نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) ﴾

[التوبة: ٦٧].

والمشرك بالله فى غفلة، وهذه الغفلة يظن كذبا أنها مؤدية إلى سعادته، والشيطان يحسن له سوء عمله ويوسوس له فينقاد إلى الهوى لغروره.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾

[ص: ٨٢-٨٣].

﴿ ... فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) ﴾

[الحديد: ١٦].

والمنافق فاسق، مريض القلب، يخادع الله، ويستظهر الطاعات وقلبه خال من الصفاء.

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ... (١٤٢) ﴾

[النساء: ١٤٢].

بل إن قلبه كاذب.. كذوب:

﴿ ... وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) ﴾

[المنافقون: ١].

﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) ﴾

[النساء: ١٣٨].

والمنافق والكاذب والفاسق يعلمون الحق، ومع ذلك يحرفون الكلام عن مواضعه ليخادعون، ولسان حالهم يكشف عن باطنهم:

﴿ ... وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ... ﴿٤٦﴾ ﴾

[النساء: ٤٦].

ومثل الفاسق كالذى يبنى فى ملك غيره، ويجور عليه، ويدعى أن ذلك حقه، فذلك استبداد منه وظلم، وغواية، وسقوط بل هو التسلط والتجبر والتكبر وكذلك حال المنافقين فحكمهم كالفاسقين:

﴿ ... إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

[التوبة: ٦٧].

لأن المنافقين ولو أنهم يتظاهرون بالاستقامة إلا أن قلوبهم مريضة:

﴿ ... الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ... ﴿٢٠﴾ ﴾

[محمد: ٢٠].

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ... ﴿٦٤﴾ ﴾

[التوبة: ٦٤].

هناك إذن موقف إيمانى، وموقف انحرافى، فالمنافقون قلوبهم مشحونة بالحقد والكراهية:

﴿ ... رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

[التوبة: ٩٣].

﴿ ... يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ... ﴿١١﴾ ﴾

[الفتح: ١١].

﴿ ... قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ... ﴿٤١﴾ ﴾

[المائدة: ٤١].

فإذا ادعى أصحاب علم النفس الحديث بعد ذلك أن المريض العصابى مغلوب على أمره فهذا فرض غير مقبول نظرا وعملا.

وقبل أن نختم هذا الجزء سوف نشير إلى موقف علم النفس الحديث من موضوع الانحراف والشذوذ(١).

لقد بالغ علم النفس الحديث مبالغة شديدة فى تصوير بعض أنواع الانحراف، بينما أغفل إغفالا معيبا أنواعا أخرى من المرض تبلغ أحيانا درجة الشذوذ، لأن الغرب لا يحسها على أنها أمراض، وهو غارق فيها إلى الأذقان، كما أضاف إلى قائمة المرض حالات سوية لأنها لا تعجبه فى انتكاسه الحاضر ولا ينظر إليها بعين الارتياح!

لقد بالغ علم النفس الحديث مثلا فى تصوير الانحرافات التى تنشأ عن شدة الضبط - أو الكبت - حتى يكاد يوحى بأن الضبط ذاته عملية ضارة لا ينبغى القيام بها، وأن الأطفال لا ينبغى أن يواجهوا خوفا من العقد النفسية التى يمكن أن تصيبهم وإنما يكون التوجيه - إذا لزم الأمر - من بعيد جدا وعلى حذر شديد.

ثم خرج على ضوء هذا «العلم» جيل مائع ورخو متحلل من الأمريكان، هو الذى شكا منه كيندى خشية على مستقبل أمريكا، وطلب تربية جادة تزيل هذا الترهل الخطر والميوعة المتحللة!

وفى الوقت ذاته أغفل علم النفس الحديث إغفالا يكاد يكون تاما كل الانحرافات التى تنشأ من عدم الضبط، أو من الإفراط فى مسايرة الدوافع الفطرية! ولم ير فيها انحرافا على الإطلاق!

ثمة ظروف محلية كثيرة فى أوروبا قد أدت إلى هذا الوضع، وكان فرويد أحد العوامل الرئيسية فى هذا الاتجاه، كما أن الثورة الصناعية والحربين العالميتين

---

(١) محمد قطب: دراسات فى النفس الإنسانية، ص٣٢٤ وما بعدها.

وما أحدثنا من تدمير للقيم والمعتقدات، و«انفلات» من القيود، كانت كلها أسبابا لتبرير هذا الانحراف فى نظر الغربيين، ولكن هذا كله قد يفسر ولكنه لا يبرر! فلا شىء يبرر الانحراف.

كذلك لم يضع علم النفس الحديث فى حسابه وهو يشخص الأمراض النفسية أن نقص الاتجاه الروحى أو انعدامه، هو من الأمراض التى تصيب النفس، لأن الغرب كله واقع فى هذا المرض حتى لم يعد ينكر وقوعه.

ولم يضع فى حسابه كذلك أن الواقعية المفرطة، أو الإيمان المفرط بما تدركه الحواس أمراض نفسية ينبغى أن تعالج، لأن الغرب غارق فى هذا الانحراف.

ولم يضع فى حسابه أن إيمان الإنسان بمثل وقيم مثالية معلقة فى الفضاء، وسريان سلوكه الواقعى بعيدا عن تلك المثل والقيم مرض يفكك الشخصية فى النهاية لأن الغرب كله مصاب بهذا التفكك الوبيل.

ولم يضع فى حسابه أن الابتعاد عن الله، والاستنكاف عن عبادته، والتحرر من التزامات العقيدة أمراض نفسية لا وجود لها فى الفطرة السوية، لأن الغرب كله واقع فى هذا الداء.

ولم يضع فى حسابه أن السعار الجنسى مرض، وأن خروج المرأة للفتنة والإغراء شذوذ بالنسبة للفطرة، لأن الغرب يرى ـ فى نكسته المقلوبة ـ أن هذه هى الفطرة وما عداها شذوذ.

وفى الوقت ذاته ينظر إلى الإيمان بالغيب على أنه انحراف عن الواقعية لا ينبغى أن يقع فيه الأسوياء، وإلى العفة الجنسية على أنها انحراف وكبت لا يلجأ إلى الشخص السوى فتى كان أو فتاة، وهكذا تنقلب الموازين فى حساب «العلم الموضوعى» الذى لا يتحيز ولا يتأثر بالمسائل الشخصية والاتجاهات الذاتية.

إن عيب هذا العلم أنه لا يتبع الفطرة البشرية ذاتها ليتخذ منها الأوزان والمقاييس وإنما يأخذ أحكامه وقيمه وموازينه من واقع جيل منحرف أثرت فيه عوامل محلية – ومؤقتة فأخرجته عن صوابه وانحرفت عن صوابه وانحرفت به عن السبيل.



والعلم ـ نور الإنسانيـة الهادى ـ ينبغى أن يكون أوسع أفقـا من واقع جيل، أى جيل، ينبغى أن يجعل فـى حسابه الأجيال كلها، والبشـرية كلها، وأن يتجاوز النكسة الحـاضرة ويخـرج من أسرها، إن كـان فى إمكانه حقا أن يفـعل، ويكون «موضوعيا».

إن مرجع الحكم على الإنسان، هو الإنسان فى واقعه الأكبر الشامل المحيط، الذى يشمل كل جوانب النفس لا يهمـل منها شيئا ولا يستصغـر منها جانبا، ولا يتحيز لجانب دون آخر.

والانحراف والشـذوذ ينبغى أن يقـاسا بمقـياس الفطرة السـوية المتكاملة، لا بمقيـاس جيل معين، منحرف شـديد الانحراف، وحين نهتدى إلى الفطـرة - كما خلقها الله - فى تكاملها العـجيب وتناسقها الدقيق، سيـتبين لنا على الفور أماكن الانحراف والشذوذ، وطريقة التقويم، بغير كد ولا افتعال ولا تزوير.

من مناقـشة هذا الجـزء يتضح أن النتـائج التى يتوصل إليـها علمـاء النفس التجريبى لا تزودنا بفهم جـديد أو بتعميمات كافية أو مـبررات وافية للحكم على الشخصية، كما أنها لا تبصرنا بما تقـدمه إلينا من فروض وقياسات قاصرة بتعريف واضح يصدق تماما على الشخصية الإنسانية.

ومن ناحـية أخرى فـإن مدارس التـحليل النفسى، وإن اخـتلفت وسائـلها المستخدمة عن مدارس علم النفس التجريبى والقياس النفسى، إلا أنها مع ذلك لم تنجح فى إمدادنـا بمعرفة طيـبة عن الشخـصية، إذ أنـها هى الأخرى قـد وضعت فروضا نظرية حاولت بها أن تفسر مظاهر السلوك الإنسانى ودوافعه على أساسها.

لقد فرض أصحاب التحليل النفسى ـ تعسـفا ـ نظريات الشخصية كأمر واقع مسلم به لا يقبل المناقشة، فجعلوا من الحتمـية النفسية حكما أبديا عاما على سائر الجنس البشرى، وتصوروا الكبت هو الأساس الوحيد للنشاط البشرى، فهو عملية دائمة ومسـتمرة لا تفتـر لأن هناك شيئا فى النفس يحـاول ويلح فى الوصول إلى الإدراك الواعى أو الخـروج إلى عالم الواقع من أجـل التحـقق، وأن المقصـود فى الكبت هو إبعاد ما هو مؤلم عن نطاق الوعى أو الشعور.

ويمكننا القول إن أصحاب التحليل النفسى لم ينجحوا فى إثبات فروضهم الأسطورية رغم كثرة تفسيراتهم وتحليلاتهم لمجالات الشعور واللاشعور، والأنا، والسهو، والأنا العليا واستحداث قصص خيالى وإلصاقه بالشخصية كمحرك وباعث ودافع للأنشطة والسلوك.

لقد جعلوا من أسطورة «أوديب» و«الكترا» حقائق تمتاز بها كل شخصية إنسانية، ونسوا أن لكل شخصية مفردة طابعها المميز فى السلوك والحياة المجتمع[1].

والدليل على عقم هذه الفروض المتخيلة أنها فشلت رغم كل التفسيرات والتحليلات فى علاج أمراض النفس، بل ربما زادت من شقاء الإنسان المعاصر.

وها هو أحد كبار علماء النفس المعاصرين، هو Eysenck **إيزنك** يقول:

إن معدل شفاء العصابيين ثابت فعليا سواء عولجوا بأساليب العلاج النفسى المعروفة أو تركوا دون علاج.

والواقع أن عالم النفس عالم عجيب، فهو يتغير باستمرار أو لا يمكن التنبؤ بتصرفات الفرد وسلوكه المقبل مهما وضعنا من المقاييس الدقيقة والمناهج الموضوعية، ذلك لأن النفس البشرية ليست مادة جامدة، وإنما هى عالم له أبعاد عميقة الغور متشابكة المصالح، غير مقيدة ولا معينة ولذلك لا يمكن قياسها بقياسات وأدوات محدودة.

كما أنه من الصعوبة بمكان إخضاعها لأى منهج من هذه المناهج سواء كانت عملية أو موضوعية، إذ كيف نحكم على ما ليس مقيداً ولا محدوداً بما هو مقيد ومحدود؟

علينا إذن أن نسعى جاهدين للبحث عن فهم رشيد للشخصية الإنسانية لنستقى منه الحقائق التى لا جدال فيها ولا نتصور ذلك ممكنا إلا إذا اتجهنا إلى النبع الفياض، والحق الذى لا يتطاوله عقل.

(١) د. حسن الشرقاوى. نحو علم نفس إسلامى

فنعرف الشخصية بتعريف لـم يصفه بشر عاجز ولا حس مريض، ولا عقل ناقص، ولا إرادة مائلة إلى الهوى، إنما وصفه إله كامل، ثابت، ليس كمثله شيء أزلي أبدي لا تبديل لكلماته، ولا تغيير في آياته، فهو تعالى عالم بخلقه وبجبلات نفوس مخلوقاته بصير بعيوب عباده.

لقد عرفنا تعالى بنفوسنا أكمل معرفة، وبين لنا الطريق الحق للصحة النفسية في الدنيا والآخـرة، وإذا كان علم النفس الحديث بمدارسـه المختلفة قـد تخبط في وصف أمراض النفس وحـاول علاجها بطرق سلبـية وأساليب تخـديرية هي بمثابة مسكنات لأمراض سرطانية، وما يلبث تأثيرها فيرجع المريض إلى حالته الأولى من المرض والعصاب.

ولقد استخدم لذلك أساليب وطرقا عـميقة كالإيحاء، والتنويم المغناطيسي، والتنفيس، واللعب، والتداعي الحر، وتفسـير الأحلام، والأباطيل، وغير ذلك من الطرق السطحية، وحتى لو افترضنا تخلص المريض بهذه الطرق من بعض أمراضه الباطنة فـإنه ما يلبث أن يشحن مرة أخـرى بأمراض جديدة أكثـر ضراوة تزيد من تفاهيم حالته.

إن الطريق الحق لعلاج النفـس من أمراضها إنما يكمن فـي تخلية النفس من نزعاتهـا الشهوانيـة وأهوائها النفسـية، وأوصافـها المذمومـة، وتحليتهـا بالأوصاف المحمودة، وبذلك يمكن فراغ الـنفس بعد التخلية، بمفاهيم إيجابيـة جديدة ومبادئ سامـية قويمة، حـتى تتغـير حال النفس وتتـطبع بالمثل العليا والأخـلاق الفاضلة، وتسلك طرقا أكثر أمنا وأعظم أملا.

ولن يتحقق للإنسان ذلك إلا بالتربية السليمـة، والتنشئة على محبة الفضائل وبالتمـسك بمكارم الأخلاق وبالتبـصر بطريق الله، وبالصبـر على المكاره، وتحمل الفاجعات والتـزهد فيما عند الناس والصبر على الابتلاءات، والرضـا بالاختبارات وبهذا الطريق وحده تتـفوق النفس على أنانيتها وتقوى على شـيطانها فلاتنزع إلى الأهواء ولا تميل إلى الشهوات.

وإذا استـقام الإنسان، فإنه يلـهم بالحقائق - فضـلا من الله ومنة - فيحـيا

بالخشية قربيا من الله، ويقبل بالرجاء فى وعده تعالى فتطمئن نفسه بحب الله، فلا تنشغل بسواه، وبذلك تنسى غرورها، وتكبرها، وتجبرها، وتعاليها، فينصلح حالها وتبتعد عن النقائص والآفات، وعن الوساوس والهواجس والأمراض[1]

فإذا كان علم النفس يريد حقا أن يتعرف على حقيقة النفس البشرية، ويسعى إلى حكم رشيد على الشخصية الإنسانية، فعليه أن يغير من وسائله وغايته، ويبدل نظرته المحدودة ليصبح قادرا على الوصول إلى نتائج إيجابية تفسر السلوك الإنسانى تفسيرا صادقا وسليما.

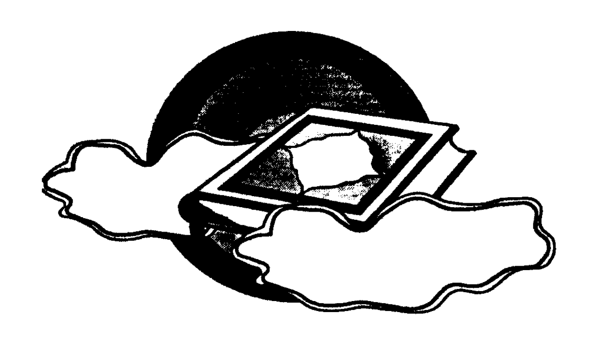
ولن يتمكن علم النفس من الوصول إلى ذلك إلا إذا اتبع منهجا إسلاميا قد استقى مادته من علم الله، ومن آياته تعالى ـ نظرياته وأفكاره فيعمق بذلك أبحاثه ودراساته، ولا تناقض مع نفسه فى تبرير فروضه المتخيلة وتفسيراته العاجزة وتحليلاته السطحية الفاترة.

* * *

(١) د حسن الشرقاوى نحو علم نفس إسلامى

الفصل الثاني

الآفات النفسية





الفصل الثانى
الآفـــات النفســـية

•••••••

إن فهم النفس الإنسانية جزء من فـهم الإنسان ولقـد أوضح الإسلام هذا الفهم خـير توضيح والقـرآن الكريم صور هذه النفس الإنسانيـة خير تصوير كـما أرادها الله سبحانه وتعـالى ولقد جعل الإسلام معرفة النفس سبـيلا إلى إصلاحها وإلى تهذيب أخلاقهـا وتهذيب الأخلاق لا يتأتى إلا بمعرفة عـيوب النفس وآفاتها التى ينبغى على الإنسان أن يتجنبها حتى يسير فى الطريق إلى الله.

والآفات النفسية كـثيرة منها: داء الرياء، كلبية الغضـب، الغفلة والنسيان، والوساوس، واليأس والقنوط، الطمع، الغرور، العـجب، الحقد والحسد، القلق، الكبت، ... إلخ. وكمـا سبق إيضاحه فسـوف نستفيض فى آفـة الرياء كنموذج للآفات النفسية حيث إن الرياء من آفات النفس الرئيـسية والتى تتجمع فيها مظاهر بعض الآفات الأخرى مثل الحـقد والحسد والعجب والوسوسـة التى ستتعرض لهم بإيجاز:

أولا: الرياء:

الرياء نوع من الشـرك الخـفى[1] والمرائى يظهـر غير مـا يبطن ويبين للناس خلاف ما هو عليه حقيقة ليخدعهم إذ إنه ادعاء كاذب حيث يزعم المرائى أقوالا أو أفعـالا خلافا للحـقيقـة ليغش الآخرين به.. يقـول الرسول ﷺ: إن أدنى الرياء الشرك[2].

---

(١) د. حسن الشرقاوى: الشريعة والحقيقة - الرياء، ص٧٤.

(٢) رواه البخارى ومسلم.

والرياء يمشى إلى النفس البشرية مثل دبيب النمل[1]، فلا يسلم منه أحد إلا العارفين بالله المخلصين الطائعين، لأنهم ارتفعوا عن رؤية أنفسهم بما أودعه الله فى قلوبهم من نور اليقين، فلا يطلبون من الناس منفعة ولا يرجون منهم خدمة، ولا يخشون منهم ضررا، إذ أن أعمالهم جميعا خالصة لله، وإن كانت ظاهرة للناس.

أما المرائى فإنه يولع بالأقنعة الكاذبة، ويتلثم بالأغطية البالية ليكبت ـ باطنه ـ القبيح، ويتستر على نفسه الأمارة، فيوارى الشر، ويحسن الباطل، ليخفى الحقيقة غشا وخداعا يقول الرسول ﷺ:

«تجدون شر الناس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين، الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»[2].

والمرائى فاقد الجمال والصدق، وفاقد الشيء لا يعطيه، فهو وإن كان يتكلم كلاما ظاهره الرحمة، فباطنه العذاب.. كالذى يدس السم لمضيفيه، أو يطعن أصدقاءه.

والمرائى يصير بالتعود كاذبا منافقا ومخادعا ومن ثم يعمى قلبه عن كل بصيرة ويقع فى شرك خداعه، فيحجب قلبه ويعبد ذاته ولا يرى غيرها محبوبا.. حتى ولو ظلم الناس جميعا.

﴿ ...يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) ﴾

[النساء: ١٤٢].

والمرائى خادع مخدوع، خادع للناس ولنفسه، يهتم بنفسه ويقدمها فى كل الأمور وينافق ليحقق لذاته ويشبع حظوظه وأهواءه وشهواته.

﴿ ...نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) ﴾

[التوبة: ٦٧].

---

(١) د. حسن الشرقاوى: نحو علم نفس إسلامى - داء الريا - ص٦٩ وما بعدها.
(٢) عن معاذ وقد ذكره المحاسبى فى الرعاية.

الرياء إذن فسق[1] وعبادة للذات، ونسيان لله، وهي ثمرة فجة لاستحواذ الشيطان على نفس المرائى الذى يغويها بالأباطيل، ويوقعها بالتلبيسات والأكاذيب حتى إذا لبست قناعه الخادع، ظنت أنها مركز الكون كبرياء وغرورا. . والمرائى وإن عرف حقيقة نفسه إلا أنه ينعزل ناسيا ربه فى غربة غريبة.

﴿ . . . يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ . . . (١٤٣) ﴾

[النساء: ١٤٢-١٤٣].

يقول الرسول ﷺ[2]:

«أخوف ما أخاف على أمتى. . الرياء والشهوة الخفية».

ويقول ﷺ:

«يخرج فى آخر الزمان رجال يختلسون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم قلوب ذئاب».

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال[3]: «إنى أقف الموقف أريد وجه الله، وأريد أن يرى موطنى». . فلم يرد عليه رسول الله لأنه مراء رغب أن يعمل لله، على أن يراه سبحانه وهو يعمل ليكافئه على صنيعه أولاً بأول، ومعنى ذلك أنه يساوم الله ليبدل آخرته بدنياه.

ويورد صاحب الرعاية[4] أن رجلا عاد إلى الرسول ﷺ. . قال: يا رسول الله أسر العمل لا أحب أن يطلع (غيرى) عليه فيطلع (غيرى) عليه فيسرنى (عندما أعلم ذلك) فقال الرسول: لك أجران:أجر السر، وأجر العلانية.

---

(١) الإمام عبد القادر الجيلانى - فتوح الغيب، ص٩٢.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الإمام الشعرانى - كشف الغمة، ج١، ص٢٤.

(٤) الإمام الجيلانى - الفتح الربانى، ص٣١-٣٤، ٦٥.

والمرائى ثوبه نظيف، وقلبه نجس، يزهد فى المباح، ويتكاسل عن الجهاد فى العمل وطلب الرزق، ويأكــل بدينه، ولا يتورع عن الحرام يخـفى أمره عن الناس ولا يعرفه إلا أهل الحق.. أصحاب الفراسات[1].

ويعدد لنا الإمام الغزالى[2].. بعض أصحاب الكبر والرياء والحسد وطلب الرياسة، فيقـول عنهم ما قاله الرسول ﷺ - من أنهم أصحـاب الشرك الأصغر، لأنهم تركـوا المعـاصى الظاهرة، ومـع ذلك فـإن قلوبهم لم تمح عنهـا الصـفـات المذمومة، ومثلهم كالذى أصيب بالجرب فأمره الطبيب بتناول الدواء ودهان الجلد، فترك شرب الدواء، واهتم فقط بالدهان.. فأزال ما بظاهر الجلد من أمراض، ولم يزل باقيا ما بباطنه، فلا يستـقيم له حال إلا إذا عالج ما فى باطنه من الجرب الذى يطفح على ظاهره ويزداد يوما بعد يوم.

وتظهر المباهاة فى العمل، فإن صلى المرائى ركـوعا أو سجودا فإنه يزيد أمام الناس خوفـا أن يسبقـه أحد ممن يصلى معه، ويجـزع إن علاه غيـره فى عمل من الأعمال كمـا يجزع عندما ينفق غيره أكثر منه، ويـحاول أن يزيد عليه.. ولو كان وحده ما أنفق وكذلك فيما يتعلق بالرياش والخدم.

والمرائى يتفاخر بالدنيا ويتباهى بها فيقول لغيره أنت فقير لا مال عندك.. أو يسأل كم ربحت وكم عندك من المال وأنـا عندى أكثر مما عندك ويفاخـر أيضا (فى العـمل) فيـقول لغـيره أنا جـاهدت وحاربت ـ وأنت لم تحـارب وقد جـبنت عن الاشتراك فى النضال. وفى مجال العلم يتفاخر بعلمه ومجالسة العلماء وتقديمهم له على غيره.

والعبـد الصادق ـ فى حقـيقة الأمـر ـ لا يهتم بنظر الآخـرين، ويكتفى بأن يعلم به رب العالمين، أمـا الذى يحب أن يعرف الناس فضله وعمله، فـهو مراء، ومن رغب فى أن يتعرف الناس على حالة واستقـامته فهو كاذب، لأن المؤمن الحق

(١) الحارث المحاسبى - الرعاية، ص٢٧.

(٢) الإمام أبو حامد الغزالى - الكشف والتبيين، ص٣- ٣

هو الذى يخفى حاله عن الناس ويجتهد فى ألا يذكره الناس بطاعته، بل عليه أن يكتم عنهم إخلاصه فى طاعة الله ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

ويرى بعض الصوفية[1] إن الذى يعصى الله أخف ضررا من هذا المرائى لأن العاصى إنما هو ظاهر للناس، يمكن أن يقام عليه الحد على ما اقترف من ذنوب، كما أنه يمكن أن يرجع عن غيه ويتوب عن آثامه، أما المرائى فهو مريض بالقلب الذى يظهر غير ما يبطن فهو أكثر الناس نفاقا وكذبا ورياء.

ولذلك يعتبر المرائى عند أئمة الصوفية أشد فجورا وفسقا من العاصى لأنه يستظهر الطاعات وأعمال البر وأفعال الخير، ويبطن فى داخله الكفر والفسوق والعصيان[2].

عن أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل (التمرة) لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر»[3].

وبناء على هذا الحديث الشريف، قسم النبى الكريم ﷺ الناس إلى أربعة أقسام:

١- مؤمن يقرأ القرآن ويعمل بما فيه فهو فى أعلى المراتب والدرجات.

٢- ومؤمن لا يقرأ القرآن ولكنه مصدق بما فيه فهو ناقص الإيمان.

٣- ومنافق يقرأ القرآن ولكنه لا يعمل بما فيه فهو ضال لا يهتدى بهدى الله.

---

(١) الشيخ بنانى - مدارج السلوك، ص٤٦، ٤٧.

(٢) الإمام عبد القادر الجيلانى: فتوح الغيب، هامش بهجة الأسرار، ص٩٢، ٩٣.

(٣) محمد على الصابونى: من كنوز السنة - دراسات أدبية ولغوية من الحديث الشريف، ص٦٧ وما بعدها.

٤- ومنافق لا يقرأ القرآن ولا يدرى ما فيه فهو فى أحط الدرجات وأشقى المنازل.

فقد شبه عليه الصلاة والسلام:

الصنف الأول: (بالأترجة) وهى الفاكهة الطيبة، ذات الريح العاطر الذى ينعش النفس ويبهج القلب بحلاوتها وطيبها، وقد كانت معروفة عند العرب.. قال الشاعر:

يحملن أترجة نضج العبير بها كأن تطيابها فى الأنف مشموم

وفى التعبير بقوله ﷺ (ريحها طيب وطعمها طيب) إشارة إلى بلوغ درجة الكمال فى طيب الباطن والظاهر.

والصنف الثانى: شبهه ﷺ بالتمر فى طيب الباطن لوجود الإيمان دون الظاهر لهجرة تلاوة القرآن، فالباطن جميل يشبه حلاوة التمر، وأما الظاهر وهو (طيب الرائحة) فإنه مفقود لأن التمرة لا ريح لها.

الصنف الثالث: وهو (المنافق الذى يقرأ القرآن) فقد شبهه صلوات الله عليه بالريحانة فى الظاهر، وفساد الباطن، فالريح طيب والطعم مر علقم، وهذه المرارة إنما جاءت من النفاق، وليس فى الحديث ما يدل على المديح والثناء لهذا الصنف بل على العكس هو ذم لأنه ذكره باسم النفاق.

والصنف الرابع: وهو أشر الأصناف وأخبثها وأبعدها عن الله عز وجل فهو ذلك (المنافق) الذى شبهه ﷺ بـ (الحنظلة) فى خبث الظاهر والباطن، فهو قد جمع الشر من أطرافه، فلله ما أروع هذا التشبيه وأجمل تصويره فى النفس!!

إن الرياء حرام والمرائى عند الله ممقوت[1] ولقد شهدت بذلك الآيات الكريمة:

---

(١) الإمام الغزالى: إحياء علوم الدين، ج٣، بيان ذم الرياء، ص٥٣.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ④ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ⑤ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ⑥ ﴾

[الماعون: ٤-٦]

﴿ ... وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ⑩ ﴾

[فاطر: ١٠]

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ⑨ ﴾

[الإنسان. ٩].

فمدح المخلصين ينفى كل إرادة سوى وجه الله والرياء ضده فقال تعالى

﴿ ... فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ⑪⓪ ﴾

[الكهف: ١١٠].

وقد قال ﷺ حين سأله رجل فقال: يا رسول الله فيم النجاة؟ فقال: أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس

وقال ﷺ: إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر وقالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال الرياء، ويقول الله عز وجل، يقوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: «اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء» وقال ﷺ استعيذوا بالله عز وجل من جب الحزن قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال واد فى جهنم أعد للقراء المرائين

وقال ﷺ: يقول الله عز وجل من عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فهو له كله وأنا منه برىء وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك

وقال ﷺ لا يقبل الله عز وجل عملا فيه مثقال ذرة من رياء إن الرياء[1]

(١) الإمام الغزالى إحياء علوم الدين، ج٣، ص٢٦٣

جلى وخفى.. فالجلى هو الذى يبعث على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب وهو أجلاه وأخفى منه قليلا والخفى هو ما لا يحمل على العمل بمجرده إلا أنه يخفف العمل الذى يريد به وجه الله كالذى يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه فإذا أنزل عنده ضيف تنشط له وخفف عليه وعلم أنه لولا رجاء الثواب لكان لا يصلى لمجرد رياء الضيفان.

علاج الإسلام للرياء:

نجد أن المرائى يتشابه مع النرجسى[1] الذى يراه علماء النفس الحديث عابدا لذاته، لا يعمل إلا لمنفعته الشخصية، أو لإشباع غروره وتعجبه بنفسه أو مداراة أمراضه الدفينة من نقص وعجز باستظهار العظمة والاستعلاء والغطرسة.. وطلب مدح الناس له وثنائهم عليه لتسكن بذلك مخاوفه، وهذا ما يسمى بنوبات الهستريا.

ويعتقد بعض علماء النفس أن الطريق لعلاج النرجسية أو حب الذات، إنما يتم بشغل النرجسى باهتمامات أخرى، وتبديل أفكاره بأفكار جديدة، غير التى تستحوذ عليه وتستعبده، فإذا استبد بشخص حب التعظيم، فعليه أن يعالج نفسه بمشاعر أخرى بديلة.

وربما لا يكون ذلك علاجا باترا لأمراض النفاق والرياء، إذ إن علاج الداء بزرع داء آخر صورة ذات وجهين.. وأما الطريق الإسلامى فى علاج المرائى يكمن فى كسر شهوته، وهذا لا يتأتى إلا بالتواضع، وأن يغرس فى نفسه أن خالق الكون وصاحبه هو الله، وأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا إلا إذا أراده الله، فينتقل من حب ذاته إلى المحبة الإلهية، ومن الشك إلى الإيمان، ومن الكذب إلى الصدق ومن الخداع إلى الحق، وبذلك يمكن أن تتغير نفسه تغيرا عميقا فلا يطمع إلا فى مرضاة الله، فتهدأ نفسه بعد أن فرغت من أهوائها الدنيوية، ولا يعود إلى تبرئة نفسه عند الناس، ولا تشغله عيوبه، ولا يحاول أن يسترها بقناع الغش والخداع، ويعمل على تخلية ما فى قلبه من العجب والكبرياء، وبذلك يتجنب الشعور

(١) يستخدم علماء النفس تعبير نرجسى ويقصدون به المحب لذاته لدرجة العبادة.

بالنقص والذنب، ويستعيد ثقته بالله.. وليس هذا العلاج كما يدعى علماء النفس تخفيفا أو تنفيسا أو حيلة هروبية، وإنما ذلك تقويما للنفس ورجوعا لحظيرة الإيمان، وبترا لأمراض القلب، فيعود المريض صحيحا سليما عارفًا بنفسه وربه جميعا

إن الدواء العملى للرياء[1] هو أن يعود الإنسان نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواحش حتى يقنع قلبه بعلم الله وإطلاعه على عبادته وعلى تنازعه النفسى إلى طلب علم غير الله به

وإخفاء العبادات هو دواء الرياء وإن كان يشق فى بداية المجاهدة إلا إذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله وما يمد به عباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد ولكن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.. فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب والله لا يضيع أجر المحسنين.

﴿ إنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) ﴾

[النساء: ٤٠].

ثانيا: العجب:

العجب بالنفس آفة خطيرة، تعمى القلوب وتخفى الذنوب، وتزين الأخطاء، وتستظهر الزلل، حتى يحسب المعجب بنفسه الإساءة إحسانا، ويظن البخل سخاءً وجودا، وهو واهم فى ظنه، كاذب فى حدسه، هالك حيث يعتقد النجاة، غارق فى بحر الظلمات.

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ... (٥١) ﴾

[فصلت: ٥١].

والمعجب بنفسه يركن إلى الغرور، يستصغر ما أتاه من الكبائر، ويستكثر ما

(١) الإمام الغزالى إحياء علوم الدين، ج٣، ص٢٦٥

قدمه من الخير، وينسى ويتناسى فواحشه، ويعمى عن الحقائق حتى يجعل من الخير شرا ومن الشر خيرا.

﴿ ... وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾

[الشورى: ٤٨].

يقول النبي ﷺ:

«ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»[١].

والإنسان إذا أعجب بأفعاله وأعماله، لم يفطن إلى ضلاله وانحرافه ولم ير ما يجب أن يتوب عنه، لأنه مستصغر لما أتاه من الذنوب محتقر لما ارتكبه من آثام بالنسبة إلى ما فعله من طاعات ومجاهدات وأعمال الخير والبر.

ويرتبط العجب بالكبر والاستعلاء، يتخيل المعجب أنه فوق سائر العباد، ويغتر بالله، فيدعى أنه قريب من الله، وذلك باستعراض ما يقوم به من أعمال الخير، وترديد مزيد من عمله وتحصيله، حتى وكأنه صاحب المنة على الخلق أجمعين.

فالعمل الطيب يجب أن يقرن بمنة الله وفضله على صاحبه، وذكر توفيقه له تعالى بالإقدام عليه، أما إذا فسر هذا العمل بنسيان الله وإرجاعه إلى النفس كالقول:

«لو لم أحسن إلى فلان لمات جوعا».

فالثناء والحمد هنا ليسا لله فى هذا العمل، إنما هما راجعين إلى عجب النفس، وبذلك يبطل العامل أفعاله الحسنة وأعماله الطيبة بالمن والاستعلاء والتكبر والتجبر.

وما تزال النفس تستكثر أفعالها مع نسيان نعم الله، وبإضافة ذلك إلى

(١) الرعاية لحقوق الله: المحاسبي، ص٣٩٨ وما بعدها.

صاحبها دون أن تشعر أن ذلك يحبط من أعمالها، ويحجبها عن الوصول إلى منازل المتقين.

كما أن العجب يظهر فى استحسان النفوس لجمال جسمها فى قوته وتمام خلقته، وبديع صنعه، وعظيم هيبته،ورجاحة عقله، ودقة عليه، وحسن الصوت.. وما زالت النفس تثنى على حالها وتفتتن بجمالها حتى يشغلها عن ذكر ربها، فتقع فى الغرور وتظن التفوق على غيرها.. فتهلك مع الهالكين.

ثالثا: الكبر:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ... (١٤٦) ﴾

[الأعراف: ١٤٦].

وقوله تعالى:

﴿ ... إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) ﴾

[البقرة: ٣٤].

والكبر آفة العلماء، وباب المفاسد والضلالات، والمدخل الذى يتصور الإنسان أن فيه الراحة والأمن، ولا يعرف أنه دليل البعد عن الله وسبيل الكذب والنفاق والرياء، وأكبر مغريات الكبر التظاهر بالتواضع، والقلب منه خال، والشيطان يحسن للمرء سوء عمله ليوقعه فى حبائل مكائده، حتى إذا ما تم له ذلك، وأصبح من حزب الشيطان[1].. وتظاهر بأنه تقى - ورع - خاشع - زاهد، تركه الشيطان فريسة للاضطراب والقلق والحسرة والندم.

وليس الكبر هو ظاهر العبد من التعالى على الخلق، ولا السخرية والازدراء من فقراء العباد فحسب، فهذا الكبر الظاهر يمكن أن يعالج منه الإنسان، إما بالنهى عن المنكر، أو بالنصح لصاحبه لأنه ضلالة، فهذا المتكبر الظاهرى قد تملكته الدنيا بمظاهر خادعة، وملذات مؤقتة وشهوات عابرة، يمكن أن ينفر عنها وأن ينصلح

(١) الإمام السمرقندى: تنبيه الغافلين، ص٩٥.

أمره، ويعرف نفسه، ويرجع عن غيه وذلك عن طريق العلم أو النصيحة الصادقة فيترك النفاق ويهجر المدح الكاذب والرياء ويعرف أن كل ذلك لا يقود إلا للخسران أو الضلال.

أما صاحب الكبر الخفى فإنه أعظم فحشا، فهو عكس المتكبر الظاهرى تماما، مظهره التواضع، وظاهره الحياء، وكلامه الرجاء، وحديثه الخوف من الله، يجتمع مع إخوانه فى المحافل فيظهر غير ما يخفى، ويعلل النفس بالورع والتقوى، ويبث نفاقا فى الحاضرين الخشية والرهبة من الله[1]، فيجلس فى أدنى مقعد من الناس، ويرفع صغار القوم منه حتى يلقب بالمتواضع، ويطلب الدعاء من فقراء الناس حتى يوصف بالصلاح والتقوى، ويوهم غيره بأنه طالب الآخرة، بعيدا عن مطالب الدنيا وما فيها، ويقرن ذلك بالصلاة كذبا وخداعا، وبالإحسان نفاقا ورياء، وبالتذلل لله طمعا فى المغانم والمكاسب الدنيوية[2].

فهو المتكبر بإظهار التواضع، المتجبر بإخفاء العدوان، والاستعلاء، الحريص على أن يظهر غير ما يبطن، المتقرب إلى عامة الناس، وقلبه بعيد عنهم يحسبه العامة مؤمنا ورعا، وهو مراء يتخفى فى زى الطاعة، متدثرا بسموح الإخلاص، ويعلم الله أن الضلال إمامه، والخداع قوامه، وإن الدين منه براء.

فالنية هى أساس الحكم على قلب الإنسان، وفى ذلك يقول الله تعالى:

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

[الشعراء: ٨٩].

ذلك أن هذا المستظهر للتقوى الحريص على إيهام الناس بالورع، إنما قد خلى قلبه من نعمة التواضع. وبلى فى حب الدنيا وإدعاء الإخلاص والتوبة. وهو فى الحقيقة عبد لا يصلح معه نصح ولا إرشاد، ولا ينفع معه علم ولا معرفة، وإن تظاهر بالصدق وادعى الإخلاص. وهذا المتكبر، إنما يكشف أمره عندما

---

(١) تنبيه الغافلين، ص٩٥-٩٩.

(٢) عبد القادر الجيلانى: الفتح الربانى، ص١١٣-١١٥.

يتخلى الناس عنه أو يذمون وينصرفون عنه، فتثور نفسه الأمارة وتحزن وتنقلب إلى نفس شرسة ناقمة، تعتدى وتؤذى، ولا يشبع من الأذى والعدوان لأنه كشف عن حقيقته، وبدت شرور نفسه الطاغية التى كانت متقنعة بالرياء الخفى، والتواضع الظاهرى الذى يكمن وراءه الكبرياء والاستعلاء وادعاء الربوبية.

فهو شيطان يسير على الأرض، ولكنه فى ثوب الصالحين، وإزار المتواضعين، والدين منه براء.

رابعا: الغرور:

من الأمراض التى قل أن يُعصم منها الإنسان ـ الغرور، وهو آفة خطيرة تصيب المؤمن والكافر على السواء[1]، وغرور الكافر ينحصر فى قسمين[2]:

١ـ الاغترار بالدنيا: هو اعتقاد الإنسان أن الدنيا هى كل شىء بالنسبة له، فهى الغاية والوسيلة والأمل والقصد. فيحسب عن جهل أن لذاتها دائمة، وشهواتها يقينية.

والمغرور يعتقد عن فساد فى طبعه، وبعد عن الفطرة السليمة، أن الحياة الآخرة مشكوك فيها.. لذلك فهو لا يترك لذات الدنيا التى لا يؤمن بغيرها. ولا ينتظر لذات الآخرة المشكوك فيها، كما أنه يقيس قياسا فاسدا الدنيا بالآخرة، فيظن أن الدنيا هى الباقية والآخرة ليست آتية[3].

وعلاج هذا النوع من الغرور لا يتم إلا بالتصديق الإيمانى، وهو طريق إلى الصحة النفسية كما ورد عن الله تعالى:

﴿ ...وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ... ﴿٦٠﴾ ﴾

[القصص: ٦٠].

(١) الشيخ الدسوقى: تنبيه الغافلين، ص٢٥٣.

(٢) الإمام الغزالى: الكشف والتبيين، ص١٠٨-١٢٩.

(٣) د. حسن الشرقاوى: نحو علم نفس إسلامى، ص١١١.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾

[الحديد: ٢٠].

فيوقن الإنسان أن متاع الدنيا قليل وأنها قصيرة مهما طالت، كما أن الغرور بالدنيا يحتاج إلى تربية نفسية قوية لتخلية نفسه من العادات الفاسدة والاعتقادات الكاذبة وتحليتها بالقيم السليمة، وتغذية عقله بنور الحكمة، فإذا بدأ الإنسان فى سلوك طريق العلم، وتخلص من العادات السيئة، كان قابلا للاقتناع بالحق، مؤثرا الصدق متجها بنور العقل إلى تجنب الاغترار بالحياة الزائلة، متمسكا بالحياة الأشرف والأبقى.

٢ـ الاغترار بالله: والآفة الثانية هى اغترار الكافر، وتنحصر فى اعتقاده الفاسد أنه إذا كان الله معيده فى الآخرة، فإنه أحق بمودته وإحسانه، وقربته من غيره فى الدنيا وذلك بناء على قياس كاذب، وشرط باطل، وهو أن الله قد غمره فى الدنيا بنعمة، لذلك فإنه تعالى حتما سيغمره بنعمة فى الآخرة أيضا!! أى أنه يقيس الدنيا على الآخرة، فيعتقد كذبا وغرورا بحتمية الثواب والرحمة والنعم، كما أنه يناصر شيطانه ويوافق هوى نفسه، فيزعم أنه ما دام الله قد أخر عنه عذاب الدنيا، فقياسا على ذلك سيؤخر عنه عذاب الآخرة بالضرورة إذا كان هناك آخرة حقا!!

ويؤكد بعض الأئمة[1] أن نشأة الغرور تأتى من الجهل بالله تعالى، وصفاته، فالله ربما يعطى الإنسان وهو كافر ليستدرجه، فلا يكون له بعد ذلك قائمة، ومن عرف الله فإنه لا يأمن مكره، وقصص فرعون وهامان، والنمرود، شاهدة على مكر الله، واختبار الله، وامتحانه لمخلوقاته.

﴿...وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

[الأنعام: ١٣٠].

(١) الإمام الغزالى: الكشف والتبيين ص١٠٨-١٢٩.

أما غرور المؤمن.. فينصب فى اعتقاده أن الله غفور رحيم، فيأمل عفوه وإحسانه، ويهمل الأعمال الصالحة، ويتكل على رحمة الله وتسامحه تعالى.

ومنشأ هذا الاعتقاد فاسد لتصوره أنه ما دام أبواه صالحين فإنه سينعم حتما برحمة من الله مثل آبائه.. ويقيس ذلك فيقول: إن الله إذا أحب إنسانا أحب أولاده، وهذا افتراء وغرور، إذ الشيطان يحسن له الأفعال الفاسدة والأعمال الباطلة ليسرى به إلى التهلكة..

﴿ ...وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً (٦٤) ﴾

[الإسراء: ٦٤].

والدليل على فساد هذا الاعتقاد.. أن نوحا عليه السلام ـ أراد أن يحمل ابنه المشرك فى السفينة ـ فنهاه الله عن ذلك، وغرق مع القوم الضالين فكل إنسان مسئول عن عمله «فإذا اجتهد فى سلوك طريق الله وخاف الله واتبع ما أمره به، ثم رجاه، فإن الله يفيض عليه بالنعم، ويظله بالأمن والسكينة فضلا ومنة منه تعالى.

وهناك نوع آخر من المغرورين لهم طاعات، كما لهم معاصى، ومعاصيهم أكثر من طاعاتهم، ثم أنهم يظنون أن ترجح كفة حسناتهم على كفة سيئاتهم وهذا جهل عظيم، ومثلهم كمثل من يتصدق بمال فيه حرام وفيه حلال فيتداخل فى هذه الصدقة ما يتناوله من أموال الناس، وما يشتبه فيه، ويظن أن ذلك لله وهذا غاية الجهل.

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ... (١٠٢) ﴾

[التوبة: ١٠٢].

وهناك بعض المغرورين طاعته أكثر من معاصيه، بسبب ضعف مراقبته لحاله، فلا يتفقد نفسه، ولا يحاسبها على معاصيها ومثله مثل الذى يقوم الليل سجودا وتسبيحا، يستغفر الله بلسانه، ثم يغتاب الناس، أى أنه يعتد بصلاته وتسبيحه ويتغافل عن غيبته ونميمته وكذبه، وذلك غرور.

الغرور العلمى:

هناك نوع آخر من الغرور يتجاوز العامة من الناس إلى المتعلمين والمثقفين من أصحاب العلوم العقلية والشرعية والتجريبية الذين تعمقوا فيها واشتغلوا بها، واغتروا بعلمهم، وظنوا أن لهم مقاما عاليا فى العلم وظنوا ـ كبرا ـ أن الله لن يعذبهم، وبناء على هذا الاعتقاد الباطل أهملوا حفظ جوارحهم عن المعاصى والتزام الطاعات. وهم مغرورون لأنهم نسوا أن العلم نوعان علم معاملة، وعلم مكاشفة.

وكثير من العلماء يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب، ومنهم علماء يظنون أنهم تبحروا فى علوم المحبة الإلهية، وأنهم من الناجين ويعتقدون أنهم يذكرون الله وهم ناسون، ويذمون الصفات المذمومة وهم بها متصفون.

وبعض العلماء من يكون غروره فى الصلاة والصيام والحج والزهد والجهاد، أو الاشتغال بالنوافل، ثم أنه يهمل الفرائض، ومثله كمثل الذى يبالغ فى الوسوسة والوضوء فلا يرضى بالماء المحكوم بطهارته، فلا يصلى.

وبعض المغرورين من يقرأ القرآن بالليل والنهار، لكن قلبه فى وادى الأمان متفكر فى الدنيا، وربما يقرأ القرآن ويتلذذ فيه ولكنه لا يعمل بما جاء فيه.

خامسا: الطمع:

تميل النفس الإنسانية بطبيعتها إلى الطمع، وتصديق الأمور الوهمية التى تستحوذ عليها، التى تقودها إلى عالم متوهم، فتحيا حياة خالية من كل حق وصدق، لأنها تتبع الظن، وتنزع إلى الهوى الذى هو دليل الانحراف لأنه ضد الفطرة السليمة.

﴿ ... إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ... (٢٣) ﴾

[النجم: ٢٣].

ولذلك فإن العارفين بالله يدأبون على التخلص من الطمع وتصديق الظنون، وموافقة الأوهام الفارغة، فيرون أنها طمع فى غير مطمع، وأصحاب الحق

يجتهدون فى أن تكون هممهم مع الحق، بعيدة عن الأوهام والأمانى الكاذبة، فلا يلجأون إلا إلى الله ولا يتوكلون إلا عليه، وقد انعقدت قلوبهم معه تعالى فلا يحل بهم طمع متوهم، ولا أمانى كاذبة.

فإذا تخلص الإنسان من الطمع، فرغ قلبه لله، فلا تشغله الشهوات، إذ الشهوات أطماع لا تشبع، فهو عبودية للصماء[1].

وإذا زهد الإنسان وقنع، عاش حياة الحرية، وامتلأ قلبه بها، فتحرر من كل شيء ولم تعد الدنيا وزخارفها الزائفة تشغل قلبه، إذ يرى لذته الحقة فى القناعة مع الله، وهى تحرر خالص من شوائب المادة.

إن العبودية الحقة، هى المتوجهة دوما لله تعالى العاملة له على الحقيقة، العارفة بمقامها على الاستمرار، السائرة فى رحابه على الدوام لا تطمع إلا فى رحمته، ولا تقنع إلا بقربته.

﴿ ... نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ ﴾

[ص: ٣٠].

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾

[مريم: ٣٠].

والقلب السليم لا يقبل على الطمع، وإنما يقبل بكامل حريته على الله لأنه يعرف أنه المحسن على الدوام، السخى على الاستمرار وهو موقن من قوله تعالى:

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾

[مريم: ٩٣].

أما القلب المريض، يتعلق بأحبال واهية، فى عالم متوهم فيختار الأدنى المتهالك ويترك الخير الدائم.

---

(١) د. حسن الشرقاوى: نحو علم نفس إسلامى، ص١٠٨.

إلا أن هناك نوعا من الطمع المحمود، هو طمع فى عفو الله وتجاوزه تعالى عن السيئات، وعما اقترف العبد من الهفوات عندما يأتى يوم الحساب، وهو طمع المؤمن الصادق فى الله الرحيم القادر وثقته الكبيرة فى مغفرة الله تعالى له كما فى قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾

[الشعراء: ٨٢].

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ... (١٦) ﴾

[السجدة: ١٦].

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) ﴾

[الشعراء: ٥١].

سادسا: الغضب:

الغضب ابتلاء، وكظمه تكليف، والإنسان محوط باللذات والمكاره ويمتحن العبد فى عمله، وفى سلوكه الذى يسلكه ليعرف صدقه من كذبه.

والغضب من القوى الشيطانية[1] التى أودعها الله فى الإنسان، فإذا استفز الإنسان الغضب فقط ارتبط بهذه القوة النارية، والإنسان من طين ساكن فيه وقار، وأما الشيطان فمن نار تلظى بالحركة والاضطراب، لذلك يقول الرسول ﷺ:

ليس الشديد بالصرعة، وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب[2].

من نتاج الغضب الحقد والحسد، فهو يسوق الإنسان إلى المرض وتكدر الطبائع واختلالها ولذلك وجب معرفة مكانته ليمكن علاج المذموم منه وبيان فضيلة كظم الغيظ ثم الحلم والعفو والرفق وفى ذلك ورد قوله تعالى:

---

(١) أبو طالب المكى: قوت القلوب.

(٢) عن أبى يعلى فى سفره عن زيد بن أرقم وذكره السيوطى فى الجامع الصغير.

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ... (٢٦) ﴾

[الفتح: ٢٦].

وربما يتمكن الغضب من الإنسان، فلا يستطيع إطفاءه لا من الداخل أو الخارج حتى يحترق ما يقبل الاحتراق، وربما تجف رطوبة القلب في الغاضب فيموت كمدا وغيظا، إذ أن السفينة التي تجري في بحر لجي، متلاطم الأمواج أفضل حالا من النفس المشحونة غيظا، لأن السفينة يحاول ربانها إنقاذها أما في الغضب، فالقلب هو صاحب السفينة وقد سقطت حيلته وأعماه الغضب فلا يستطيع أن يدبر شيئا.

ولو رأى الغضبان ـ في حالة غضبه ـ قبح صورته لكن غضبه حياء، من نفسه بل لوجد أن قبح باطنه أعظم من قبح ظاهره، إذ أن الظاهر عنوان الباطن.

يقول الرسول ﷺ:

إن خير الرجال من كان بطيء الغضب سريع الرضا، وشر الرجال من كان سريع الغضب بطيء الرضا[1].

أما أثر الغضب في الظاهر فيظهر في السباب والاعتداء بفحش الكلام أما أثره على الأعضاء فالضرب والتهجم والقتل والجرح بدون مبالاة، فإذا لم يتمكن الغاضب من المغضوب عليه، رجع غضبه إلى نفسه فمزق ثوبه، ولطم وجهه، أو حفر الأرض أو الجدار، يقول الرسول ﷺ:

«إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»[2].

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه أبو داود عن أبي نعيم عن معاوية (نقلا عن د. حسن الشرقاوي نحو علم نفس إسلامي ٧٩).

أما أثر الغضب فى القلب: فإنه يولد الحقد والحسد وإضمار السوء والشماتة والحزن على نعم الغير، وإفضاء الأسرار، والاستهزاء.

إذا كانت زيادة الغضب دالة على المرض النفسى، فكذلك كان نقص الحمية تولد ضعف النخوة فى الدفاع عن العرض والوطن، واحتمال الذل من الأخساء، وصغر النفس والدناءة، وهذا مذموم أيضا.

ومن ضعف الغضب الخور والسكون عند مشاهدة المنكر والفسوق، ومن فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه، إذ لا تتم رياضة النفس إلا بتسليط الغضب على الشهوة، فيغضب الإنسان عند ميل نفسه إلى الشهوات الجنسية.

والغضب المحمود هو الذى يساوق الفعل، ويواكب الدين ويستمد منهما اعتداله واستقامته التى كلف الله بها عباده، وهو الوسيط.

الرياضة النفسية وسيلة لتخفيف الغضب إلى ما هو ضرورى، أو إضعافه لحد الاعتدال وليس مقصودا بالرياضة محوه وإعدامه وإنما المقصود منها عدم إطالة الغضب عملا بالشرع، ومما يستحسنه العقل، وذلك ممكن بالتحقيق بالمجاهدة وتكلف الحلم حتى يصير الحلم طبعا راسخا، وخلقا دائما»[1].

والغضب إذا كان لله، فهو محمود، وإذا كان لغيره فهو مذموم والمؤمن يغضب لنصرة دينه.

ولكن إذا غضب الإنسان مدعيا أنه غاضب لله، وهو غاضب لنفسه كان منافقا، فالغضب لله يبقى ويزداد ويستمر، أما لغير الله فيتغير ويزول.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا... (٨٦)﴾

[طه: ٨٦].

وينبهنا الرسول ﷺ ان الرجل الشديد هو الذى يستطيع أن يكظم غيظه ويملك زمام نفسه الثائرة، وهذا لا يمكن إلا بمجاهدة النفس ومخالفة أهوائها.

(١) الإمام الغزالى: إحياء علوم الدين، ص٩، ص١٦٤٠ وما بعدها.

سابعا: الحقد والحسد:

من أمراض القلب التى قل أن يخلو منها إنسان، الحسد إلا أن من الحسد ما هو مباح، بل ومنه ما هو نقص وحرام.

وتعد المنافسة من الحسد المباح لأنها مسابقة بين العباد، ومجاهدة فى طريق الله، ولتوثيق عرى الإيمان والمسارعة إلى طلب عفوه ومغفرته تعالى، وبذلك يكون هذا الحسد المباح فرض على كل مسلم تأييدا لقوله تعالى:

﴿ ... وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

[المطففين: ٢٦].

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ... ﴿١٣٣﴾ ﴾

[آل عمران: ١٣٣].

أما الحسد المكروه، كأن يأتى الله رجلا مالا فينفقه فى المعاصى فيتمنى الحاسد أن يعطيه الله مثل هذا المال ليصرفه كما يصرفه الآخر فهما من الإثم سواء(١).

وأما الحسد المحرم كله فوارد فى قوله تعالى:

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ... ﴿١٠٩﴾ ﴾

[البقرة: ١٠٩].

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... ﴿٥٤﴾ ﴾

[النساء: ٥٤].

والحاسد هنا يريد لنفسه الرياسة والرفعة وعلو المنزلة، وينكرها على غيره ويكره أن يكون تابعا لأحد أو مؤتمرا بأمره، كما أنه يرغب أن يزول على غيره ما فيه من نعمة وجاه فيخالف المتحاسدون بعضهم بعضا بغيا وحقدا وينشغلوا بأهوائهم، ويتركوا الحق ويبتعدوا عن الخير حسدا بينهم.

---

(١) الإمام الحارس المحاسبى: الرعاية لحقوق الله ص٥٧٤ وما بعدها.

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ (٥٠)﴾

[التوبة: ٥٠].

والحسد المذموم يقع فيه المؤمن والكافر ويظهر الحاسد فى كراهية النعم للغير ومحبة زوالها، فإذا رأى نعمة لغيره فى دين أو دنيا أو بلغه أن أحدا كره ذلك استاء لسماعه، وتمنى زوالها عنه وفى ذلك يقول الله تعالى:

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ... (١٢٠)﴾

[آل عمران: ١٢٠].

فالحاسد يشمت عند زوال النعمة عن غيره، ويسوءه أن استمرت النعم ولو كانت نعمة الإيمان.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ... (٨٩)﴾

[النساء: ٨٩].

وما زال الحاسد يعبر بلسانه عما فى قلبه حتى يندفع آخر الأمر إلى الجنوح عن الرشد فيؤذى ويتطاول على صاحب النعمة كما فعل أخوة يوسف عليه السلام به:

﴿...لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩)﴾

[يوسف: ٨-٩].

والحسد المذموم بهذا المعنى نتاج الكبر والعجب والحقد والبغضاء والرياء فيغتم الحاسد عند سماعه الخير ولا يسعده إلا الإضرار بمن يحسده، فإذا سمع من إنسان كلمة حق يحقد عليه، ويتقول بما لم يقل، بل ويكيد له ويخطئه فيما يقول حتى لو كان صادقا ويستهدف من ذلك أن يبعد الناس عنه ليطفئ نوره بينهم لحقده

عليه وكراهيته أن ترتفع منزلته عندهم ومثال ذلك ما فعل اليهود بالرسول ﷺ عندما بشر بدعوته، فرغم علمهم بنبوته، تملكهم الحقد والحسد، وخافوا أن تذهب الرئاسة عنهم إليه فيكونوا أتباعا له بعد أن كانوا متبوعين.

ولا يقتصر الحسد على العامة، بل لا يسلم منه العلماء، إذ ينشأ الحسد المذموم بهم نتيجة الخوف من زوال الرئاسة، كأن يجزع الحاسد أن ترأس غيره عليه، أو أن يحظى بمرتبة عالية لم يصل إليها، فيرغب أن تزول عمن يحسده كل منزلة فى مجالس العلم حتى تبقى له الرئاسة.

ثامنا: اليأس والقنوط:

إن اليأس هو انقطاع الأمل والرجاء، ويقال إن من كثر يأسه فهو يئوس لقوله تعالى:

﴿ ... وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) ﴾

[الإسراء: ٨٣].

واليأس أعلى درجات القنوط، والقنوط انقطاع الأمل فى الخير أو اليأس منه، فيقال رجل قانط، وامرأة قانطة وفى هذا المعنى ورد قوله تعالى:

﴿ ... وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) ﴾

[الحجر: ٥٦].

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ...(٥٣) ﴾

[الزمر: ٥٣].

اليأس صفة لازمة للمشرك والكافر عند تجربته بالفاجعات وامتحانه بالمصائب، واختباره بنقص فى الأموال والأملاك، لأنه يظن أن الأحداث يجب أن تسير وفق هواه، فإذا جاءت بخلاف ما يهواه، ضاق وتبرم ويأس من رحمة الله، ونعم الله، وفضل الله.

وكذلك القانط، شديد اليأس فى الخير والبركة والهدى:

﴿ ... وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) ﴾

[فصلت: ٤٩].

إذن سليم القلب لا ييأس، ولا يقنط من روح الله، لأنه يعلم أن الله يختبره بشتى أنواع الابتلاءات، ويختبره ليعلم هل هو مؤمن حقا أم مراء فإذا اتجه إلى الله وعلم أن لا ملجأ إلا إليه، وضاقت عليه الدنيا بما رحبت جاءت رحمة الله، فتاب عليه من الهم والغم، وبشره بالنعم:

﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) ﴾

[الفرقان: ٧١].

﴿ ... لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) ﴾

[النحل: ١٠٢].

الله يجرب عباده ويختبرهم، فمنهم من يصبر ويتقه ويحسن، ومنهم من ييأس ويقنط ويكفر ليمضى إلى الضياع، ويقع فى الانحراف، ويهوى إلى الضلال.

فإذا جرب القانط فى امتحان أو اختبار أو ابتلاء، انهار ولم يتحمل وسقط وفقد ثقته فى نفسه التى يعبدها وشيطانه الذى يؤلهه:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) ﴾

[هود: ٩].

أما إذا تاب وأناب، كشف الله عنه الغمة، ورفع عنه القنوط وفتح له باب الرحمة، وأغلق عنه باب المذلة.

﴿ ... وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ... (١١٨) ﴾

[التوبة: ١١٨].

فالقانط لا يقدر على تحمل صدمة من الصدمات، أو مصيبة من المصائب لأنه عود نفسه على إشباعها بما تحتاج إليه، دون التوفيق بما يعمله، ولم يأخذ نفسه بالرياضة والتربية حتى يقوى عزمه وتشتد همته، لذا فهو فريسة سهلة للأمراض والآفات.

أما الذى ينظر إلى الدنيا كدار فناء، وينظر إلى الآخرة كدار بقاء لا يمكن أن ييأس أو يقنط من رحمة الله.

تاسعاً: الغفلة والنسيان:

يرى علم النفس الإسلامى أن الغفلة باب لنسيان الحق[1] ومنبع للأنانية، والشره، وقسوة القلب، وإنه من طول استحواذ الغفلة على الإنسان يأتى النفاق، والكذب، وأباطيل الشيطان، وثمرة الغفلة الخيانة، وغلبته الأهواء لقوله تعالى:

﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ... (١٩) ﴾

[المجادلة: ١٩].

فإذا زادت الغفلة، غلب على الطبع النسيان، وكان البعد وقسوة القلب لأن الله وضع مقداراً محددا للذنوب إذا تجاوزه الإنسان طبع على قلبه فلا يوفق إلى الخير أبدا، وإذا غفل الإنسان ونسى، فإن الله لا يغفل ولا ينسى.

﴿ ... وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) ﴾

[البقرة: ٨٥].

فإذا زادت الغفلة فى القلب ضعف استلهام الإنسان للحقائق فلا يسمع ولا يرى:

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ...(٣٩) ﴾

[الأنعام: ٣٩].

(١) د. حسن الشرقاوى: نحو علم نفس إسلامى، ص٨٦.

وعدم رؤية وسماع خاطر الحق، يبعد الإنسان عن الخير والرحمة فينقاد بذلك إلى الأهواء ويقع فى التهلكة والضلال والظلمة:

﴿ ... وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾

[الشورى: ٨].

﴿ ... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

[الأعراف: ١٤٦].

والغافل ينسب جميع الأفعال والأعمال إلى نفسه متكبرا مغرورا، وينسى أن هناك خالقا مدبرا فيرجع إلى نفسه كل توفيق ونجاح وينسى أن الله هو الفاعل على الدوام، وأن العبد مهما ينجح ويوفق مفتقر إلى الحق تعالى على الاستمرار، لأن كل فعل وأمر بمشيئته تعالى.. والناس لله.. ينساه تعالى لقوله:

﴿ ... نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

[التوبة: ٦٧].

أما العاقل فلا ينسى الحق تعالى، ولا يغفل عنه، كما أن كل ما يجول بخاطره يرجعه إليه فهو عبد ذاكر له، موافق لقضائه، يدفع عن نفسه غوائل الشيطان التى هى الغفلة والنسيان، بدوام التفكير وذكر الله عملا بقوله تعالى:

﴿ ... وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ... ﴿٢٤﴾ ﴾

[الكهف: ٢٤].

والخاطر الشيطانى يغوى الإنسان ويدفعه إلى الانحراف والميل به عن جادة الحق وعن سبيل الرشاد والسواء، بل انه يورده مورد التهلكة، وأما الخاطر الملائكى فإنه يوثق العبد بالله، فيوفقه ويرشده بالأمن والأمل والسكينة.

وأفضل السبل لعلاج الغفلة، إنما يكون بالتوبة، وهى الندم على ما اقترف الإنسان من الذنوب والآثام.

مما تقدم يتضح أن النسيان آفة يجب القضاء عليها لأنه يباعد بين العبد وربه، بل يجعل بينه وبين الله حجابا كثيفا، مما يوقعه فى الانحراف والغواية بل وفى الضلال والضياع، فلا يعرف طريقه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة[1].

أما أصحاب القلوب السليمة فإنهم يخلدون إلى الراحة، وينعمون بالطمأنينة لقوله تعالى:

﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾

[الشعراء: ٨٩].

وما دام الإنسان بعيدا عن الغفلة، متجنبا للأهواء، فإنه ينعم بلذات عظيمة فى المعانى[2]، فكما تنعم البطون بلذات الأطعمة، تنعم القلوب بلذات الفكر، والذى يتذوق هذه اللذات حقا، من رضى بالله ربا، فوجد لذات المعانى، فى التفويض وعدم التدبير مع الله، فيحيا حياة مليئة بالرضا مع الله، ويجد حلاوة ذلك فى قلبه وعقله جميعا.

عاشرا: الوساوس:

ينظر أئمة الإسلام إلى الوسوسة على أنها نتاج حديث النفس وأمانيها وأحلامها فى الشهوات واللذات، وتوقد نار الغفلة ونسيان الحق، ويزيد سعيرها الشيطان، وذلك بتحسين الأفعال والأعمال وما يفتأ يزيد فى لهيبها حتى ينحرف الموسوس إلى الغواية والضلال ويرتكب أفحش الأعمال ويسقط فى النهاية صريع الفتنة وثقل الأمراض وإذا اعتاد الإنسان على الغفلة أصبحت الوسوسة طبعه الغالب واستمر فى ذلك الطريق الذى لا يملك منه هروبا.

والوسواس عند الأئمة شيطان رجيم يدخل إلى صدر العبد الذى يوسوس له، فإذا ذكر الله خنس الشيطان وخرج من صدره.

(١) د حسن الشرقاوى. المرجع السابق، ص ٩

(٢) الشيخ ابن عطاء السكندرى التنوير فى إسقاط التدبير، ص٧-٨

والشيطان يزين للعبد طريق الضلالات ويحسن له سبل العصيان ويخدعه بوسوسته، وإلا أنه لا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك لقوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ... (16) ﴾

[ق: ١٦].

ويستطيع العبد أن يجتهد فى دفع وسوسة الشيطان عن نفسه وذلك بمخالفته، والابتعاد عنه، لأنه عدوه اللدود، كما ورد فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ... (6) ﴾

[فاطر: ٦].

والعاقل[1] يعرف عدوه من صديقه، فيطيع صديقه، ولا يتبع عدوه أما الجاهل فيتبع الشيطان لأن الجاهل له أوصاف أربعة:

١- الغضب بغير سبب.

٢- اتباع الباطل.

٣- إنفاق المال بغير حق.

٤- قلة معرفة صديقه من عدوه.

لذلك فهو يختار طاعة الشيطان، وهذا هو طبع الجاهلين تصديقا لقوله تعالى:

﴿ ... أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ... (50) ﴾

[الكهف: ٥٠].

أما العاقل فله أربع علامات:

١- الحلم.

٢- رد النفس عن الباطل.

(١) الإمام السمرقندى: تنبيه الغافلين، ص٢٠٥.

٣ـ إنفاق المال فى الحق

٤ـ معرفة الصديق من العدو

والوسوسة تحتاج فى ردها إلى الاستعاذة بالله من الشيطان الذى لا يفتأ يعاود منازعة الإنسان إلى التشكيك فى دينه، ويزين له قبح أمره، ويحسن له سوء فعله، بل ويأتيه من جهة الدين والطاعات ليفسدها عليه، ويأتيه من شماله، ومن جهة المعاصى ليحسنها له ويأمره بالفحشاء والمنكر وفى ذلك يقول الله تعالى.

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً... (٢٦٨) ﴾

[البقرة: ٢٦٨].

ولكن الوسوسة ليست فقط من الشيطان فحسب، فهناك أعداء للمؤمن من غير الشيطان، كما ورد عن الرسول ﷺ من حديث أنس بن مالك:

قال الرسول ﷺ: للمؤمن خمس أعداء:

١ ـ مؤمن يحسده.

٢ ـ منافق يغلبه

٣ ـ عدو يقاتله

٤ ـ شيطان يضله

٥ ـ نفس تغويه.

هذه هى الآفات النفسية التى من الممكن أن تصاحب الإنسان والتى ينبغى أن يعرفها ويتجنبها فيقوم برياضة نفسه وتهذيب أخلاقها حتى يسير فى طريق الله

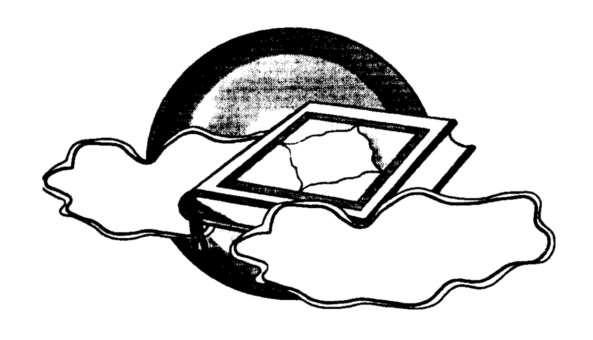
وإذا انصلح حال الإنسان استطاع بفضل الله أن يجنب نفسه ويقيها من الوقوع فى الضلال والضياع عن طريق هذه الآفات فهو الإنسان السائر فى طريق الله المنعم بالطمأنينة والسكينة المتمتع بالرضا والأمن النفسى

* * *



الفصل الثالث

السلوك العملى
عند
الصوفية





الفصل الثالث
السلوك العملى عند الصوفية

●●●●●●●

المقصود بالتصوف الإسلامى[1] هو التخلى عن كل دنى والتحلى بكل سنى سلوكا إلى مراتب القرب والوصول إلى الله فهو إعادة بناء الإنسان وربطه بمولاه فى كل فكر وقول وعمل ونية وفى كل موقع من مواقع الإنسانية فى الحياة العامة.

ويمكن تلخيص هذا التعريف[2] فى كلمة واحدة هى التقوى فى أرقى مستوياتها الحسية والمعنوية فالتقوى عقيدة وخلق فهى معاملة الله بحسن العبادة ومعاملة العباد بحسن الخلق وهذا الاعتبار هو ما نزل به الوحى على كل نبى وعليه تدور حقوق الإنسانية الرفيعة فى الإسلام فهو التزكى وقد أفلح من تزكى.

ولهذا حرص الصوفية على الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنى وجعلوا أسوتهم فى سلوكهم العالى سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، إتباعا لقوله تعالى.

﴿ لقدْ كان لكُمْ في رسُول الله أُسْوةٌ حسنةٌ لِّمن كان يرْجُو الله والْيوْم الآخر وذكر الله كثيراً (٢١) ﴾

[الأحزاب: ٢١].

وامتثالا لقوله تعالى.

﴿ ... وما آتاكُمُ الرّسُولُ فخُذُوهُ وما نهاكُمْ عنْهُ فانتهُوا ... (٧) ﴾

[الحشر: ٧].

---

(١) التصوف الإسلامى ما له وما عليه. مجلة المسلم العدد ١، ٢، ٣ مايو ١٩٨٢م.

(٢) حسن كامل المطاوى الصوفية فى أخلاقهم، فى تدبرهم للقرآن الكريم، فى جهاد النفس، ص٦ وما بعدها

والمؤمنون فى كل جيل مجـمعون على التأسى به ﷺ ولكنهم مـتفاوتون فى درجات التأسى ولما كان الصوفية هم أئمة المؤمـنين وخاصتهم فإنهم فهموا عن الله بحسن الاتباع وأخـذهم الدين بقوة العزائم دون الرخص والتـأويلات وقد قال الله تعالى:

﴿ ... وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ... (٥٤) ﴾

[النور: ٥٤].

لذلك رأيناهم حريصين كل الحـرص على طاعة رسول الله ﷺ لأن طاعـته طاعة لله، بدليل قوله تعالى:

﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ... (٨٠) ﴾

[النساء: ٨٠].

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) ﴾

[آل عمران: ١٣٢].

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم ... (٦٩) ﴾

[النساء: ٦٩].

كما أنهم يحذرون مخالفته رسول الله ﷺ ويتذكرون قول الله تعالى:

﴿ ... فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) ﴾

[النور: ٦٣].

وهم يقولون أن محبة الله للمؤمنين ومحبة المؤمنين لله فى اتباعه ﷺ بدليل قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) ﴾

[آل عمران: ٣١].

وعند الصوفية أن الأسوة الحسنة برسول الله رسول الله ﷺ، هى التأسى به فى جميع ما صح من أخلاقه وأفعاله وأحواله وأوامره ونواهيه وندبه وترغيبه وترهيبه إلا ما قام الدليل على خلافه كقوله تعالى فى زواج الهبة:

﴿ ... خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ... (٥٠) ﴾

[الأحزاب: ٥٠].

لذلك قال الصوفية أنه يجب علينا نحن المؤمنين أن نعظم ما عظم ونصغر ما صغر ونقلل ما قلل ونكثر ما كثر ونكره ما كره ونختار ما اختار ونترك ما ترك ونصبر على ما صبر ونعادى ما عادى ونوالى من والى ونفضل من فضل ونرغب فيما رغب ونحذر ما حذر.

وعلى أساس ما وضح فالتصوف كما عرفه أهله (التخلى عن كل دنى والتحلى بكل سنى حسا ومعنى خصوصا وعموما مع الفرد والمجتمع) يقوم على ما تقرر فى كتاب الله الكريم وسنة رسوله وبخاصة فيما يتعلق بالأخلاق والآداب والسلوك والعبادة والدعوة فالتصوف بهذا المعنى هو حقيقة الإسلام وهو ما نعتقده ونخدمه ونتعبد به إليه ونكافح دونه.

وبهذا فإن الحياة الصوفية ليست إلا حياة مع النفس الإنسانية فى علاقتها المختلفة وأساس سلوك هذه النفس هو الأخلاق أى أن الأخلاق جزء هام من هذه النفس يجب الاهتمام به لكى تستقيم هذه النفس ولذلك اهتم الصوفية بالأخلاق حتى يعالجوا آفات وعلل النفس ويسيروا فى طريق المجاهدة للتحلى بأخلاق القرآن الكريم. أليس ذلك دافعا أساسيا لكى نتحدث فى هذا الجزء عن الصوفية وبخاصة سلوكهم العملى وارتباطه[3] بالنفس الإنسانية.

إن هناك من الصوفية من يقف بتصوفه عن حد الغاية الأخلاقية وهى تهذيب النفس وضبط الإرادة وإلزام الإنسان بالأخلاق الفاضلة، وهذا التصوف يتميز بأنه تربوى، وتغلب عليه الصبغة العملية.

وهناك من يتجاوز هذه الغاية الأخلاقية إلى غاية أبعد، وهى معرفة الله،

ويضع لتحقيق هذه الغاية من تصوفه شروطا خاصة، ويعنى أصحاب هذا التصوف خصوصا بالكلام عن مناهج المعرفة وأدواتها، ويؤكدون من بينها الكشف[١].

لقد كان التصوف فى القرنين الثالث والرابع[٢] علما للأخلاق الدينية أساسا ومن الطبيعى أن ترتبط الناحية الأخلاقية للتصوف لهذا العهد بالكلام فى النفس الإنسانية وتصنيف قواها، وبيان آفاتها وأمراضها وطريق الخلاص عنها. ولذلك يمكننا القول أيضا بأن التصوف آنذاك كان مطبوعا بطابع سيكولوجى إلى جانب الطابع الأخلاقى.

إن مبحث الأخلاق عند الصوفية وقتئذ كان قائما على أساس تحليل النفس الإنسانية لمعرفة أخلاقها الذميمة، والتكمل الخلقى عندهم يكون بإحلال الأخلاق المحمودة عندهم محل الأخلاق الذميمة.

ولقد بين السهروردى البغدادى فى (عوارف المعارف) ذلك الارتباط الوثيق بين علم الأخلاق وعلم النفس عند الصوفية، فيقول أن الصوفية رزقوا سائر العلوم التى أشار إليها المتقدمون، ومن أعز علومهم علم النفس ومعرفتها، ومعرفة أخلاقها[٣].

ويقول الطوسى فى اللمع: «للصوفية أيضا تخصيص فى معرفة النفس وأماراتها وخواطرها ودقائق الرياء والشهوة الخفية والشرك الخفى»[٤]

ويقول الكلاباذى فى التعرف: «فأول ما يلزمه السالك لطريق الله علم آفات النفس ومعرفتها ورياضتها وتهذيب أخلاقها»[٥].

---

(١) د. أبو الوفا التفتازانى: مدخل إلى التصوف الإسلامى، ص٩

(٢) نفس المرجع السابق، ص١٠٣.

(٣) عوارف المعارف بهامن الإحياء ج١، ص١٤٤ (عن د. التفتازانى، مدخل إلى التصوف الإسلامى، ١٠٤).

(٤) اللمع، ص٣٢ (عن د. التفتازانى - مدخل إلى التصوف الإسلامى ص٤ ١).

(٥) التعرف، ص٨٧ (عن د. التفتازانى - مدخل إلى التصوف الإسلامى ص٤ ١)

فإننا نرى من كل هذه الشواهد الارتباط الوثيق بين التصوف كعلم للأخلاق وعلم النفس، فكان المتقدمون من الصوفية يجعلون علم النفس مندرجا تحت الأخلاق أو التصوف، فلقد كان علم النفس عندهم علما غائيا يهدف إلى غاية أخلاقية هى تهذيب النفس بتعويدها الفضائل الأخلاقية على اختلافها، فلم يكن علم النفس عندهم إذن مستقلا أو موضوعيا كما هو شأنه فى العصر الحاضر.

والكلام فى الأخلاق ومعانيها كالمجاهدة والتوبة والصبر والرضا والتوكل والتقوى والخوف والرجاء والمحبة والذكر وغير ذلك، والنفس وعللها والسلوك وآدابه ومراحله خط مشترك بين صوفية القرنين الثالث والرابع جميعا.

وكان لأخلاق الصوفية التى تحلوا بها مقتدين بالقرآن والسنة سلوك متميز حول كل خلق، ومن هذه الأخلاق التقوى والصدق والإخلاص والطاعة والإحسان والتوبة والخوف والرجاء والصبر فى الله ومحبة الحق كلها أخلاق سامية وعالية لابد من التحلى بها للوصول إلى معرفة الله تعالى والفوز بالقربة منه وكان هذا هو هدف وغاية الصوفية.

إن التصوف الإسلامى هو إيمان وعمل وعبادة ودعوة وأخلاق وبر مطلق وهو إرادة وجه الله فى كل قول أو عمل أو نية أو فكر وهو التسامى بالبشرية إلى مستوى الإنسانية الرفيعة فهو وحى من الوحى وهو الدين كل الدين لأنه بهذا الوصف (طلب الكمال) وطلب الكمال فرض عينى وهو علاج لأمراض النفوس وما من إنسان إلا وهو مبتلى بجانب (قل أو كثر) من النقص الذى نسميه مرض النفس أو الخلق وإنما جاءت رسالات السماء كلها لعلاج هذه الأمراض النفسية والخلقية أول ما تعالج في بنى آدم ولما كان التصوف قد تخصص فى هذا الجانب كان طلبه فرضا شرعيا وعقليا وإنسانيا واجتماعيا حتى يوجد الإنسان السوى الذى به تتسامى الحياة وتتحقق خلافة الله على أرضه وينتشر الحب والسماحة بين الناس(1).

---

(1) التصوف الإسلامى ما له وما عليه: مجلة المسلم العدد (١، ٢، ٣) مايو ١٩٨٢م ص:٩-١٠.

إن التحلى بمكارم الأخلاق من أهم مبادئ الصوفية حيث يقول السادة الصوفية إن التصوف أخلاق، فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى التصوف(1).

وقد اتصف السادة الصوفية بأحسن الأخلاق وأركاها لأنهم تأسوا فى مسلكهم بمولانا رسول الله ﷺ. وقد نال من ربه أعظم شهادة فى الخلق الكريم فى قوله تعالى:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

[القلم: ٤].

وقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن خلق مولانا رسول الله ﷺ: فقالت فى روعة علمية: كان خلقه القرآن. ومن ذلك نعلم أنه ﷺ ائتمر بأوامر القرآن وانتهى بنواهيه فكمل خلقه مع ربه ومع المؤمنين.

وكان ﷺ بالمؤمنين رؤوفا رحيما، فمن تأسى به ﷺ، امتلأ قلبه رحمة بإخوانه المؤمنين، يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، ولذلك جاء فى الحديث الشريف (لا يؤمن أحدكم - أى لا يكمل إيمانه - حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

وهذا الحديث الشريف قاعدة عظيمة من قواعد الدين، وقد اتفقت الأخلاق والعوائد والشرائع والأحكام على أن مكارم الأخلاق منحصرة فى تلك القاعدة العظيمة، ولا عجب فقد قامت الأخوة بين المؤمنين بأمر الله (إنما المؤمنون أخوة)، والأخوة تقتضى التعاطف، والتراحم، والتعاون، والمؤمن الكامل لا يقتصر على الكف عن الشر، بل يفعل الخير ما استطاع إليه سبيلا، لأن الاستقامة تنهى عن الشر، والصلاح يأمر بالخير.

وفيما أثنى به سبحانه على سادتنا الصحابة قوله تعالى.

---

(1) حسن كامل المطاوى. مناهج الصوفية، ص١١٧- ١٢

﴿ ... رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ... (٢٩) ﴾

[الفتح: ٢٩].

فقد قال فى معناه عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: يدعو صالحهم لطالحهم، وطالحهم لصالحهم.

ويروى السادة الصوفية فى مكارم الأخلاق، أن جنديا قال لسيدى إبراهيم بن أدهم: أين العمران؟

فأشار سيدى ابن أدهم إلى المقابر، فظن الجندى أنه يهزأ به فضربه فشجه، فطأطأ سيدى إبراهيم رأسه وقال للجندى: اضرب رأسا طالما عصى الله، فقال الناس للجندى: هذا إبراهيم بن أدهم زاهد خراسان، فانكب الجندى على رجليه يقبلهما ويعتذر إليه، فقال له سيدى ابن أدهم رضى الله عنه: «والله ما رفعت يدك من ضربى، إلا وأنا اسأل الله لك المغفرة، لأنى علمت أن الله يثيبنى على ما فعلت بى، ويؤاخذك على ما فعلت، فاستحييت أن يكون حظى منك الخير وحظك منى الشر».

ومن آداب السادة الصوفية أنهم يتأذون مما يتأذى منه المسلمون، ويستندون فى ذلك إلى الحديث الشريف (من لم يحمل هم المسلمين فليس منهم) ويحكون أن حريقا وقع فى السوق فخرج السعرى السقطى يطمئن على دكانه فى قطع من الليل فاستقبله قوم فقالوا: يا أبا الحسن، احترقت دكاكين الناس إلا دكانك، فقال الحمد لله، ثم تفكر فى ذلك فقال: قلت الحمد لله فى سلامة مالى وهلكت أموال إخوانى المسلمين، فتصدق بجميع ما كان فى دكانه كفارة لكلمته هذه، وكان يقول: قلت كلمة فأنا أستغفر الله منها منذ ثلاثين سنة، ولا تنسى أن مولانا رسول الله ﷺ قال أمتى ولم يقل نفسى، ووجهنا إلى أن تكون أمة واحدة ذات جسد واحد فقال ﷺ: «مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

ويقولون إن السنة النبوية حثت على تعميم الدعاء للمسلمين، لرياضة نفوسهم على التراحم والتماسك، ويقولون إن الله علمنا أن نقول فى فاتحة الكتاب

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤﴾ فلا يقول المؤمن ولو كان منفردا إياك أعبد وإياك أستعين، وذلك لنكون مع جماعة المؤمنين، وتحصل لنا بركة الجماعة. وكان الإمام أحمد بن حنبل يقول: لو كان لى دعوة مستجابة، لدعوت للوالى بصلاح الحال، لأن فى صلاحه صلاح الرعية.

ويقول الإمام زروق رضى الله عنه: أصول الخير ثلاثة: التواضع وحسن الخلق والنصيحة، فالتواضع تتبعه ثلاث: الإنصاف من نفسك، وترك الانتصاف لها، وخدمة المؤمنين.

وحسن الخلق تتبعه ثلاث: العدل فى الرضا والغضب والقصد فى الفقر والغنى، والخشية فى السر والعلانية.

والنصيحة تتبعها ثلاث: العمل الصالح، والعلم الصحيح، واتباع الحق فى كل حال.

ويرشدنا السادة الصوفية إلى الحديث الشريف: «لا يكمل إيمان أحدكم حتى يكون فيه ثلاث خصال: من إذا غضب لم يخرجه غضبه عن حق وإذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل وإذا أقدر لم يتناول ما ليس له».

وإذا تعرضنا لمبادئ الصوفية وارتباطها بالنفس الإنسانية نجد أن من أهم مبادئ الصوفية محاسبة النفس[1] أى على ما فرط منها فى كسر حدود الله ولا يقع الذنب إلا من غفلتها عنه سبحانه، والغفلة آفة من آفات النفس يقاومها السادة الصوفية بكثرة الذكر، فتزداد إيمانا تسكن به عن الهوى بإذن منفسها سبحانه، لأنها فطرت على حب الشهوات، وأمرت بالابتعاد عنها. وهذا هو ابتلاؤها. وحكمته أن تخرج من حولها إلى حول الله وقوته، وتشعر بافتقارها إليه ـ جل جلاله. وتقدر فضله الكبير فى المغفرة التى لولاها لكنا من الخاسرين. كما قال أبو البشر سيدنا آدم وزوجته سيدتنا حواء فى رجوعهما إلى الله. فى توبتهما من الخطيئة التى وقعت منهما بالأكل من الشجرة المنهى عنها:

(١) حسن كامل المطاوى: مناهج الصوفية، ص٩ ١-١١١

﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)﴾

[الأعراف: ٢٣].

فتاب الله عليهما وهدى، ودل ـ سبحانه ـ بذلك المذنبين على باب توبته الذى محيت على أعتابه الخطيئة الأولى للإنسان الأول.

ويقول سيدى أبو طالب المكى فى كتاب «قوت القلوب»: وإن أردت أن تقوى على نفسك فأضعفها بقطع أسباب هواها، وحبس مواد شهواتها، وإلا قويت عليك وصرعتك فأول الملكة لها أن تحاسبها فى كل ساعة وتراقب حسبتها فى كل وقت وتقف عند كل همة من خواطرها، فإن كانت الهمة لله عز وجل سابقت الموت، وبادرت الغوث فى إمضائها، وإن كانت الهمة لغير الله تعالى سابقت وبادرت فى محوها لئلا تثبت.

ويستطرد رضى الله عنه قائلا: كان الحسن إذا تلا قوله تعالى: «كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية»، قال يا إخوانى هى والله أيامكم هذه فاقطعوها بالجد والاجتهاد ولا تضيعوها. فقد قالت النفس الأمارة بالسوء (يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله) يعنى أيام الدنيا التى ضيعت العمر فيها فخلت من الثواب والجزاء غدا.

وينصح السادة الصوفية المؤمن أن يحاسب نفسه مرتين، مرة بعد صلاة الضحى، لما مضى من ليلته وما سلف من غفلته فإن رأى نعمة شكر الله. وإن رأى بلية استغفر الله.

ومرة بعد الوتر وقبل النوم، لما مضى من يومه من طول غفلته وسوء معاملته. وقد قالوا إن السلف كانوا يحاسبون أنفسهم أشد من محاسبة الشريك لشريكه. كما قالوا إن من علامة المقت أن يكون الإنسان ذاكرا لعيوب غيره، ناسيا لعيوب نفسه.

ويقول إمامنا على بن أبى طالب رضى الله عنه: «من استعظم خطيئة غيره نسى خطيئة نفسه». كما قال ـ كرم الله وجهه: «كل يوم لا يعصى الله ـ عز وجل ـ فيه فهو لنا عيد». ولا يستطيع المؤمن أن يتجنب معصية الله إلا بمخافة نفسه وهواه.

ويقول السادة الصوفية ناصحين لنا: على العاقل أن يكون له أربع ساعات: ساعة يناجى فيها ربه ـ عز وجل ـ وساعة يحاسب فيها نفسه. وساعة يفكر فى صنع الله عز وجل، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب، فإن فى هذه الساعة عونا له على الطاعات.

وكان الإمام سهل التسترى ـ رضى الله عنه ـ يقول: لا يبلغ العبد منازل الصديقين حقيقة حتى يكون فيه هذه الأربع، أداء الفرائض بالسنة، وأكل الحلال بالورع، واجتناب النهى فى الظاهر والباطن، والصبر على ذلك إلى الممات.

وكان سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ إذا تلا قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ... (٣٠) ﴾

[فصلت: ٣٠].

قال: استقاموا والله لربهم ولم يراوغوا روغان الثعالب.

ويقول السادة الصوفية إن من صفة الصوفى أن يكون أكله فاقة، ونومه غلبة، وكلامه ضرورة، ومن سهر بالليل حبا فى حبيبه لم يخالفه بالنهار، فإنه أسهره بالليل فى خدمته.

ويقولون: تعلم الصمت كما تتعلم الكلام فإن يكن الكلام يهديك، فإن الصمت يقيك، ولك فى الصمت خصلتان: تدفع به جهل من هو أجهل منك، وتعلم به علم من هو أعلم منك، ويذكرون فى هذه الأيام الحديث الشريف: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله». كما يذكرون قوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: «كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ثلاثة: أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، أو ذكر الله عز وجل».

وهكذا إذا تعرضنا لمزيد من الدراسة لأوصاف الصوفية اللاتى يعرفون بها ولأخلاقهم اللاتى يتصفون بها ولآدابهم اللاتى يتفقون على اتباعها ولتعاليمهم اللاتى لا يختلفون عليها[1] لتوصلنا إلى أن التصوف ليس كما يشيع عنه غالبية الناس من أنه عزوف عن الحياة بل هو مشاركة إيجابية فى مختلف الأنشطة ـ مع المحافظة فى نفس الوقت على آداب الشريعة الإسلامية وكمالاتها[2]

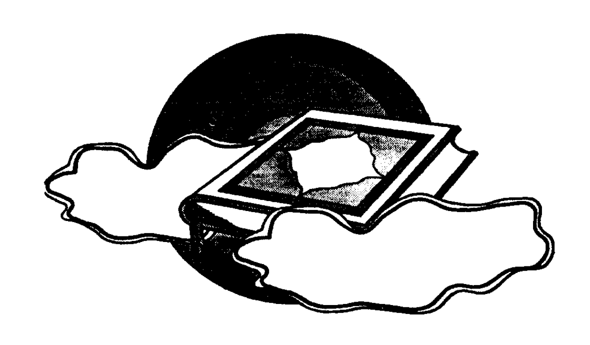
* * *

(١) د. حسن الشرقاوى: الحكومة الباطنية، ص٣٠.
(٢) نفس المرجع السابق.



الفصل الرابع

القرآن الكريم
وأثره
فى الأمن النفسى





الفصل الرابع
القرآن الكريم وأثره فى الأمن النفسى

•••••••

الحياة كنوز ونفائس.

وأعظمها الإيمان بالله . . وطريقها مناره القرآن الكريم.

فالإيمان إشعاعه أمان . .

والأمان يبعث الأمل . .

والأمل يثمر السكينة . .

والسكينة نبع للسعادة . .

والسعادة حصادها أمن وهدوء نفسى . .

فلا سعادة إنسان بلا سكينة نفس، ولا سكينة نفس بغير إيمان القلب . .

مما لا شك فيه أن كل واحد منا يبحث عن السعادة ويسعى إليها ـ فالسعادة هى جنة الأحلام التى ينشدها كل البشر، من الفيلسوف فى تفكيره وتجريده، إلى العامى فى سذاجته وبساطته، ومن الملك فى قصره المشيد إلى الفقير فى كوخه الصغير. ولا تحسب أحدا يبحث عن الشقاء لنفسه، أو يرضى بتعاستها.

والسؤال الذى حير الجميع هو: أين السعادة؟

لقد طلبها الأكثرون فى غير موضعها، فعادوا كما يعود طالب اللؤلؤ فى الصحراء، صفر اليدين، مجهود البدن، كسير النفس، خائب الرجاء.

أجل جرب الناس فى شتى العصور ألوان المتع المادية، وصنوف الشهوات الحسية فما وجدوها ـ وحدها ـ تحقق السعادة أبدا وربما زادتهم مع كل جديد منها ـ هما جديدا.

فالسعـادة ليست فى وفرة المال، ولا سطوة الجاه، ولا كـثرة الولد، ولا نيل المنفعة، ولا العلم المادى.

السعادة شىء معنوى لا ترى بالعين، ولا تقـاس بالكم، لا تحتويها الخزائن، ولا تشترى بالمال.

السعادة شىء يشعر به الإنسان بين جوانحه.. صفاء نفس، وطمأنينة قلب، وانشراح صدر، وراحة ضمير.

السعادة شىء ينبع من داخل الإنسان ولا يستورد من خارجه.

قالوا: إن زوجا غاضب زوجته فقال لها متوعدا: لأشقينك.

فقـالت الزوجة فى هدوء: إنك لا تـستطيع أن تشـقينى. كمـا لا تملك أن تسعدنى.

فقال الزوج فى حنق: وكيف لا أستطيع؟

فقالت الزوجة فى ثقة: لو كانت السعادة فى راتب لقطعته عنى، أو زينة من الحلى والحلل لحرمتنى منها، ولكنها فى شىء لا تملكه أنت ولا الناس أجمعون.

فقال الزوج فى دهشة: وما هو؟

فقـالت الزوجة فى يقين: إنى أجد سعـادتى فى إيمانى، وإيمانى فى قلبى لا سلطان لأحد عليه غير ربى.

هذه هى السعادة الحقة، السـعادة التى لا يملك بشر أن يعطيها، ولا يملك أن ينتزعهـا، السعادة التى شعر بنشـوتها أحد المؤمنين الصالحين فـقال: إننا نعيش فى سعادة لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف[1].

هذه السعـادة هى التى أثمرت الأمن والأمل والرضـا والحب وأودعتـها فى كـيان الإنســان سكينة تجلب الهناء والاسـتقـرار والهـدوء والأمن الروحى والقلبى الكامل.

---

(١) د. يوسف القرضاوى: الإيمان والحياة، ص٧٣.

هذه السكينة هى التى عمرت قلب رسـول الله يوم الهجرة فلم يعره هم ولا حزن، ولم يستبد به خوف ولا وجل، ولم يخالج صدره شك ولا قلق.

﴿ ... فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ...(٤٠) ﴾

[التوبة: ٤٠].

لقد غلبت على صاحبه الصديق مشاعر الحزن والإشفاق، لا على نفسه وحياته، بل على الرسول وعلى مصير الرسالة، حتى قال والأعداء محدقون بالغار:

«يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا فيقول الرسول مثبتا فؤاده: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟».

هذه السكينة روح من الله، ونور، يسكن إليه الخائف، ويطمئن عنده القلق، ويتسلى به الحزين، ويستروح به المتعب، ويقوى به الضعيف، ويهتدى به الحيران.

هذه السكينة نافذة على الجنة يفتحها الله للمؤمنين من عباده: فيها تهف عليهم نسماتها، وتشرق عليهم أنوارها ويفوح شذاها، جزاء ما قدموا من خير، ويريهم نموذجا صغيرا لما ينتظرهم من نعيم.

فإذا كانت السعادة شجرة منبتها النفس البشرية والقلب الإنسانى، فإن الإيمان بالله وبالدار الآخرة هو ماؤها وغذاؤها وضياؤها.. والقرآن الكريم.. النبع الفياض الذى لا ينضب هو نور هذا الإيمان والسلوك الأمثل الذى يجب على الإنسان أن يسلكه ويقتدى به.

ولنتأمل معا السطور التالية حتى نستطيع أن نتبين أثر القرآن الكريم والإيمان فى تحقيق السعادة والهناء للنفس الإنسانية.

فالقرآن فيه من عطاء الله ما تحبه النفس البشرية ويستميلها، إنه يخاطب ملكات خفية فى النفس لا نعرفها نحن، ولكن يعرفها الله سبحانه وتعالى..

وهذه الملكات تنفعل حينما يقرأ القرآن، ولذلك حرص الكفار على ألا يسمع أحد القرآن.. حتى الذين لا يؤمنون بالله. ذلك لأن كل من يسمع القرآن، سيجد له تأثيرا وحلاوة، قد لا يستطيع أن يفسرها، ولكنها تجذبه إلى الإيمان، ومن هنا كان أئمة الكفر يخافون من سماع الكفار للقرآن أن يميلوا إليه، ولو كان القرآن لا يعطى شيئا من هذا، ولا يخاطب الملكات الخفية فى النفس، لما اهتم الكفار بأن يسمعه أحدهم أو لا يسمعه، ولكن شعورهم بالقوة والقدرة للقرآن على النفس البشرية، جعلهم لا يمنعون سماع القرآن فقط، بل ويعتدون على من يتلوه ولا يمكن أن يكون هذا هو مسلكهم وتلك طريقتهم، إلا خوفا مما يفعله القرآن الكريم فى النفس البشرية.. كيف يستطيع أن يؤثر فيها وأن يجذب النفس الكافرة أو غير المؤمنة إلى الإيمان، وتلك من معجزات القرآن الكريم[1].

والقرآن الكريم هو المعجزة التى أيد الله بها سبحانه وتعالى رسوله الأمين سيدنا محمد ﷺ وفى ذلك تقول آيات القرآن الكريم:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) ﴾

[الحجر: ٨٧].

﴿ الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) ﴾

[البقرة: ١-٥].

وإذا نظرنا إلى المصدر الأول للإسلام وهو القرآن كتاب الله وتدبرنا آياته وتأملنا موضوعاته واهتماماته نستطيع أن نصفه بأنه كتاب الإنسان فالقرآن كله إما حديث إلى الإنسان أو حديث عن الإنسان[2].

---

(١) الشيخ محمد متولى الشعراوى: معجزات القرآن، الجزء الخامس، ص٨٤.

(٢) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للإسلام، ص٧٩ وما بعدها.

وإذا نظرنا إلى الشخص الذى جسد الله فيه الإسلام، وجعله مثالا حيا لتعاليمه وكان خلقه القرآن، نستطيع أن نصفه بأنه الرسول الإنسان وسيرته هى سيرة النبى الإنسان.

إن كل دارس للإسلام فى كتاب الله وسنة رسوله، يتبين له بجلاء: أنه وجه عناية بالغة إلى الجانب الإنسانى وأعطاه مساحة رحبة من رقعة تعاليمه، وتوجيهاته، وتشريعاته.

نزل القرآن الكريم أساسا لهداية الناس ولدعوتهم إلى عقيدة التوحيد، ولتعليم قيم جديدة وأساليب جديدة من التفكير والحياة، لإرشادهم إلى السلوك السوى السليم الذى فيه صلاح الإنسان وخير المجتمع، ولتوجيههم إلى الطرق الصحيحة لتربية النفس وتنشئتها تنشئة سليمة تؤدى إلى بلوغ الكمال الإنسانى الذى تتحقق به سعادة الإنسان فى الحياة الدنيا وفى الحياة الآخرة.

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) ﴾

[الإسراء: ٩].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) ﴾

[يونس: ٥٧].

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا (٨٢) ﴾

[الإسراء: ٨٢].

﴿ ... قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ... (٤٤) ﴾

[فصلت: ٤٤].

﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) ﴾

[الجاثية: ٢٠].

ولقد كان للقرآن الكريم أثر عظيم الشأن فى نفوس العرب، فقد غير شخصياتهم تغييرا تاما، وغير أخلاقهم وسلوكهم وأسلوب حياتهم، وكون منهم أفرادا ذوى مبادئ وقيم إنسانية نبيلة، وكون منهم مجتمعا متحدا منظما متعاونًا فاستطاعوا أن يهزموا الروم والفرس أكبر دولتين فى العالم فى ذلك الوقت، وانتشروا فى معظم بلاد العالم، وقاموا بنشر دعوة الإسلام فيها. إن هذا التغيير العظيم الذى أحدثه القرآن فى نفوس العرب وفى نفوس جميع المؤمنين به من مختلف شعوب العالم لم يعرف التاريخ نظيراً له بين جميع الدعوات العقائدية التى ظهرت عبر عصور التاريخ المختلفة(١).

ولا شك أن فى القرآن طاقة روحية هائلة ذات تأثير بالغ الشأن فى نفس الإنسان. فهو يهز وجدانه، ويرهف أحاسيسه ومشاعره، ويصقل روحه، ويوقظ إدراكه وتفكيره، ويجلى بصيرته، فإذا بالإنسان بعد أن يتعرض لتأثير القرآن يصبح إنسانا جديدا، كأنه خلق خلقا جديدا.

إن كل من يقرأ تاريخ الإسلام، ويتتبع مراحل الدعوة الإسلامية منذ أيامها الأولى، ويرى كيف كانت تتغير شخصيات الأفراد الذين كانوا يتعلمون الإسلام فى مدرسة الرسول صلوات الله عليه وسلامه، ويستطيع أن يدرك إدراكا واضحا مدى التأثير العظيم الذى أحدثه القرآن ودعوة الإسلام فى نفوسهم.

وبالرغم من الجهود الكثيرة التى تبذلها المجتمعات الحديثة فى ميادين التربية والتعليم لتوجيه النشء وتعليمهم وإرشادهم لكى يكونوا مواطنين صالحين، إلا أن هذه الجهود لم تثمر الثمرة المرجوة فى تكوين المواطنين الصالحين، فالجرائم والانحرافات المنتشرة فى جميع المجتمعات لدليل واضح على فشل أساليب التربية الحديثة وعجزها عن تكوين المواطنين الصالحين(٢).

إن الاختلافات الكثيرة الموجودة الآن بين المدارس المختلفة للعلاج النفسى فى نظرتها إلى طبيعة الدوافع الأساسية المحركة للسلوك، وإلى طبيعة التهديدات المثيرة

(١) د. محمد عثمان نجاتى: القرآن وعلم النفس، ص٢٣٧.

(٢) نفس المرجع السابق.

للقلق والمسببة لنشوء أعراض الأمراض النفسية والعقلية، يجعل من الصعب الوصول إلى اتفاق عام بين هذه المدارس المختلفة حول نظرية متكاملة فى الشخصية وتوافقها، وفى العوامل المسببة لسوء التوافق، وفى أساليب العلاج النفسى، فكل مدرسة من هذه المدارس تنظر إلى الإنسان من زاوية معينة محددة، ولم تستطع أن تنظر إليه نظرة كلية شاملة الأمر الذى جعلها عاجزة عن فهم الإنسان فهما سليما ودقيقا.

ولكن بدأت تظهر حديثا اتجاهات بين بعض علماء النفس تنادى بأهمية الدين فى الصحة النفسية فى علاج الأمراض النفسية، وترى أن فى الإيمان بالله قوة خارقة تمد الإنسان المتدين بطاقة روحية تعينه على تحمل مشاق الحياة، وتجنبه القلق الذى يتعرض له كثير من الناس الذين يعيشون فى هذا العصر الحديث الذى يسيطر عليه الاهتمام الكبير بالحياة المادية ويسود التنافس الشديد من أجل الكسب المادى، والذى يفتقر فى الوقت نفسه إلى الغذاء الروحى، وجعله نهبا للقلق، وعرضة للإصابة بالأمراض النفسية.

ومن أوائل من نادوا بذلك وليم چيمس William Jams الفيلسوف وعالم النفس الأمريكى، فقد قال: إن أعظم علاج للقلق ولا شك هو الإيمان.

وقال أيضا: الإيمان من القوى التى لا بد من توافرها لمعاونة المرء على العيش، وفقدها نذير بالعجز على معاناة الحياة.

وقال أيضا: إن بيننا وبين الله رابطة لا تنفصم، فإذا نحن أخضعنا أنفسنا لإشرافه تعالى تحققت كل أمنياتنا وآمالنا.

وقال أيضا: إن أمواج المحيط المصطخبة المتقلبة لا تعكر قط هدوء القاع العميق ولا تقلق أمنه، كذلك المرء الذى عمق إيمانه بالله، فالرجل المتدين حقا عصى على القلق، محتفظ أبدا باتزانه، مستعد دائما لمواجهة ما عسى أن تأتى به الأيام من صروف(1).

(1) ديل كارنيجى: دع القلق وابدأ الحياة، ترجمة عبد المنعم الزيادى، طبعة ٥، القاهرة، ص٢٩٢، ٢٩٨، ٣٠١.

وقال **كارل يونج Carl Jung** المحلل النفسى:

استشارنى فى خلال الأعوام الثلاثين الماضية أشخاص من مختلف شعوب العالم المتحضرة وعالجت مئات كثيرة من المرضى، فلم أجد مريضا واحدا من مرضاى الذين كانوا فى المنتصف الثانى من عمرهم - أى جاوزوا سن الخامسة والثلاثين - ما لم تكن المشكلة فى أساسها هى افتقاره إلى وجهة نظر دينية فى الحياة.

وأستطيع أن أقول إن كل واحد منهم قد وقع فريسة المرض لأنه فقد ذلك الشىء الذى تمنحه الأديان القائمة فى كل عصر لاتباعها، وأنه لم يتم شفاء أحد منهم حقيقة إلا بعد أن استعاد نظرته الدينية فى الحياة[1].

ويقول أ.أ. بريل A. A. Brill المحلل النفسى:

إن المرء المتدين حقا لا يعانى قط مرضا نفسيا[2]. وذكر هنرى لينك Henry Link العالم النفسى الأمريكى فى كتابه العودة إلى الإيمان أنه وجد نتيجة خبرته الطويلة فى تطبيق الاختبارات النفسية على العمال فى عملية الاختبار المهنى والتوجيه المهنى أن الأشخاص المتدينين والذين يترددون على دور العبادة يتمتعون بشخصية أقوى وأفضل ممن لا دين لهم أو لا يقومون بأية عبادة[3].

وفضلا عن علماء النفس والمحللين النفسيين فقد أشار كثير من المفكرين الغربيين فى العصر الحديث إلى أن أزمة الإنسان فى العصر إنما ترجع أساسا إلى افتقار الإنسان إلى الدين والقيم الروحية. فقد أشار المؤرخ أرنولد توينبى Arnold Toynbi إلى أن الأزمة التى يعانى منها الأوربيون فى العصر الحديث إنما ترجع فى أساسها إلى الفقر الروحى، وأن العلاج لهذا التمزق الذى يعانون منه هو الرجوع إلى الدين[4].

(١) د. محمد عثمان نجاتى: القرآن وعلم النفس، ص٢٤٠.

(٢) ديل كارنيجى: دع القلق وابدأ الحياة، ص٢٨٦.

(٣) د. يوسف القرضاوى: الإيمان والحياة، ص٣٤٢.

(٤) أنور الجندى: مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق فى ضوء الإسلام، القاهرة، دار الاعتصام، ١٩٧٧، ص١٩٥.

إن للإيمان تأثيرا عظيما فى نفس الإنسان، فهو يزيد من ثقته بنفسه، ويزيد قدرته على الصبر وتحمل مشاق الحياة ويبث الأمن والطمأنينة فى النفس، ويبعث على راحة البال، ويغمر الإنسان الشعور بالسعادة.

وتتفق جميع مدارس العلاج النفسى على أن القلق هو السبب الرئيسى فى نشوء أعراض الأمراض النفسية، ولكنها تختلف فيما بينها فى تحديد العوامل التى تسبب القلق، وتتفق هذه المدارس أيضا على أن الهدف الرئيسى للعلاج النفسى هو التخلص من القلق وبث الشعور بالأمن فى نفس الإنسان.

وتمدنا دراستنا لتاريخ الأديان، وبخاصة تاريخ الدين الإسلامى، بأدلة عن نجاح الإيمان بالله فى شفاء النفس من أمراضها، وتحقيق الشعور بالأمن والطمأنينة، والوقاية من الشعور بالقلق وما قد ينشأ عنه من أمراض نفسية، ومما يجدر ملاحظته أن العلاج يتدخل عادة بعد حدوث الإصابة بالمرض النفسى، أما الإيمان بالله إذا ما بث فى نفس الإنسان منذ الصغر فإنه يكسبه مناعة ووقاية من الإصابة بالأمراض النفسية. وقد بين القرآن ما يحدثه الإيمان من أمن وطمأنينة فى نفس المؤمن بقوله:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) ﴾

[الأنعام: ٨٢].

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾

[الرعد: ٢٨].

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) ﴾

[التغابن: ١١].

وتتحقق للمؤمن سكينة النفس وأمنها وطمأنينتها لأن إيمانه الصادق بالله يمده بالأمل والرجاء فى عون الله ورعايته وحمايته، فالمؤمن دائم التوجه إلى الله تعالى فى عبادته وفى كل ما يقوم به من أعمال ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى، ولذلك

فهو يشعر أن الله تعالى معه دائما، وهو فى عونه دائما، وأن شعور المؤمن بأن الله تعالى فى عونه كفيل بأن يبث فى نفسه الشعور بالأمن والطمأنينة[1].

إن المؤمن بالله إيمانا صادقا لا يخاف من شىء فى هذه الحياة الدنيا، فهو يعلم أنه لا يمكن أن يصيبه شر أو أذى إلا بمشيئة الله تعالى، ولا يمكن لأى إنسان أو لأية قوة أخرى فى هذه الحياة أن تلحق به ضررا أو تمنع عنه خيرا إلا بمشيئة الله تعالى. ولذلك فالمؤمن الصادق إنسان لا يمكن أن يتملكه الخوف أو القلق.

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112) ﴾

[البقرة: ١١٢].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) ﴾

[فصلت: ٢٠-٢١].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) ﴾

[الأحقاف: ١٣].

والمؤمن الصادق الإيمان يعلم أيضا أن رزقه بيد الله، وأنه سبحانه وتعالى قد قسم الأرزاق بين الناس وقدرها، لذلك فهو لا يخاف الفقر، وإذا قدر الله تعالى له أن يكون قليل الرزق، فهو راضٍ بما قدره الله له، قنوع بالقليل الذى لديه، كثير الحمد لله تعالى على نعمه الأخرى الكثيرة نعمة الحياة، ونعمة الإيمان، ونعمة الصحة وراحة البال[2].

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58) ﴾

[الذاريات: ٥٨].

---

(١) د. يوسف القرضاوى: الإيمان والحياة، ص١١٣-١١٥.

(٢) د. محمد عثمان نجاتى: القرآن وعلم النفس.

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) ﴾

[الذاريات: ٢٢].

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ... (٦) ﴾

[هود: ٦].

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠) ﴾

[العنكبوت: ٦٠].

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ... (٢٦) ﴾

[الرعد: ٢٦].

والمؤمن الصادق الإيمان لا يخاف الموت، إنه ينظر إلى الموت نظرة واقعية، فهو يعلم أنه حقيقة لا مفر منها، وأن لكل إنسان أجلا محدودا، فإذا جاء أجله فلن يستطيع تأخيره.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ... (١٨٥) ﴾

[آل عمران: ١٨٥].

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ... (٧٨) ﴾

[النساء: ٧٨].

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ﴾

[الزمر: ٣٠].

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾

[الأعراف: ٣٤].

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ... (١١) ﴾

[المنافقون: ١١].

﴿ ... وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ... ﴿١١﴾ ﴾

[فاطر: ١١].

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٦﴾ ﴾

[الأحزاب: ١٦].

﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾

[الجمعة: ٨].

إن المؤمن الصادق الإيمان يعلم أنه ليس فى الحياة الدنيا إلا كعابر سبيل، سرعان ما ينتقل إلى الحياة الآخرة الباقية، ولذلك فهو يعمل فى حياته الدنيا على الأساس، معدا نفسه للحياة الآخرة بالإيمان بالله وعبادته والعمل الصالح حيث ينعم برضوانه ويسعد بلقاء النبيين والصديقين، ويحظى بما وعد الله تعالى المؤمنين من نعيم الجنة.

والمؤمن الصادق الإيمان لا يخاف من مصائب الدهر، وغوائل الأيام، لا يخاف أن تصيبه الأمراض، أو تقع له الحوادث، أو تحل به الكوارث، فهو يؤمن بالقضاء والقدر، ويعلم حق العلم أن ما يحل بالناس من سراء أو ضراء إنما هو ابتلاء من الله تعالى ليعلم من سيحمده على ما يناله من سراء، ومن سيصبر على ما يناله من ضراء، ولذلك فهو لا يجزع إن أصابه الشر، بل يتحمل ويصبر ويحمد الله تعالى، ويدعوه أن يرفع عنه الشر والبلاء.

﴿ ... وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

[الأنبياء: ٣٥].

والمؤمن الصادق الإيمان لا يجتر أحزانه، ولا يعيش مهموما بذكريات الماضى ولا ينحسر على ما فاته، ولذلك فهو لا يشعر بالهم الذى يثقل كاهل كثير من

الناس الذين يعيشون فى أحزان الماضى وآلامه[1]. كما أنه إذا نال خيرًا لا يبطر ولا يستكبر ولا يطغى بل يحمد الله تعالى على ما أنعم عليه من خير.

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) ﴾

[الحديد: ٢٢-٢٣].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) ﴾

[آل عمران: ١٥٦].

والمؤمن الصادق الإيمان لا يشعر بالقلق الناشئ عن الإحساس اللاشعورى بالذنب وهو ما يعانى منه كثير من المرضى النفسيين، ويرجع ذلك لعدة أسباب:

أولا: إن المؤمن الذى تربى منذ طفولته على التربية الإسلامية الصحيحة لا يتعرض بسهولة للإغراءات التى تدفعه إلى ارتكاب الذنوب والمعاصى التى تؤرق ضميره، وتشعره بالدونية وحقارة النفس، وتجعله فريسة للشعور بالذنب وتأنيب الضمير.

ثانيا: إن المؤمن إذا أخطأ، وهو أمر لا مفر منه، فإنه لا يلبث أن يتذكر خطأه ويعترف به ويستغفر الله تعالى على ما ارتكب من خطأ، ويتوب إليه، وهو يعلم أن الله سبحانه وتعالى يقبل التوبة، ويغفر الذنوب[2].

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) ﴾

[النساء: ١١٠].

---

(١) د. يوسف القرضاوى: الإيمان والحياة، ص١١٩-١٢١.

(٢) د. محمد عثمان نجاتى: القرآن وعلم النفس، ص٢٤٦.

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢) ﴾

[طه: ٨٢].

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾

[الزمر: ٥٣].

إن اعتراف المؤمن بذنبه، واستغفاره لله سبحانه وتعالى، وتوبته إليه تحول دون محاولة إقصاء فكرة الذنب عن ذهنه تخلصا مما تسببه له من ألم نفسى، وأن محاولة إقصاء فكرة الذنب عن الذهن تؤدى فى النهاية إلى الكبت اللاشعورى لفكرة الذنب، غير أن فكرة الذنب لا تقضى على الطاقة الانفعالية التى كانت مصاحبة لفكرة الذنب، وهى الشعور بالدونية، فتظهر هذه الطاقة الانفعالية فى صورة قلق غامض مبهم يزعج الإنسان ويسبب له كثيرا من التوتر النفسى فيحاول أن يخفف من حدته بالالتجاء إلى أعراض الأمراض النفسية، وأن كثيرا من مجهود المعالج النفسى فى مثل هذه الحالات يتجه إلى البحث عن هذه الخبرات المؤلمة القديمة المكبوتة فى اللاشعور، ودفع المريض إلى تذكرها ومواجهتها من جديد، وإصدار نوع من الحكم العقلى فيها بدلا من إنكارها والتهرب من مواجهتها عن طريق الكبت.

ولهذا كان تذكر المؤمن لذنوبه واعترافه بها، واستغفاره لله سبحانه وتعالى عن ارتكابه لها وتوبته إليه إنما يعمل على وقايته من الكبت اللاشعورى للإحساس بالذنب وهو ما يسبب القلق ونشوء أعراض الأمراض النفسية[1].

يتبين لنا مما سبق أن المؤمن الصادق الإيمان لا يخاف من الأشياء التى يخاف منها معظم الناس عادة وهى: الموت، والفقر، والمرض. كما أنه لا يخاف الناس ولا مصائب الدهر، وهو ذو قدرة كبيرة على تحمل المصائب لأنه يرى فيها ابتلاء

(١) د. محمد عثمان نجاتى: المرجع السابق، ص٢٤٧.

من الله تعالى يجب أن يصبر عليه، وهو لا يكبت شعوره بالذنب، بل يعترف بذنوبه ويستغفر الله عنها. فلا غرابة بعد ذلك كله أن يكون المؤمن الصادق الإيمان آمن النفس، مطمئن القلب، يغمره الشعور بالرضا وراحة البال.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾

[النحل: ٩٧].

إن فقدان الإيمان بالله يجعل الحياة خالية من المعانى السامية، والقيم الإنسانية النبيلة، ويفقد الإنسان الشعور برسالته الكبيرة فى الحياة كخليفة لله تعالى فى الأرض، فتضيع منه الرؤية الواضحة لأهدافه الكبرى فى الحياة وهى عبادة الله تعالى، والتقرب إليه، ومجاهدة النفس فى سبيل بلوغ الكمال الإنسانى الذى تتحقق له به السعادة فى الدنيا والآخرة. وقد شبه القرآن حالة الصراع والقلق والحيرة والضياع التى تصيب الإنسان الذى يفقد إيمانه بالله بالحالة التى يشعر بها الإنسان الذى يخر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الرياح فى مكان سحيق.

﴿ ... وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ﴾

[الحج: ٣١].

ويؤكد القرآن بالقسم حالة الخسران والضياع التى يعانيها الكافرون.

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾

[سورة العصر].

ومن أجمل وأروع ثمرات الإيمان، الحب، فالحب هو روح الوجود وإكسير القلوب وصمام الأمان لبنى الإنسان.

فإذا كان قانون الجاذبية يمسك الأرض والكواكب والأفلاك أن تصطدم

فتتساقط أو تحترق وتزول، فقانون الحب هو الذى يمسك العلاقات الإنسانية أن تتصادم فتحترق، وتستحيل إلى دماء.

هذا هو الحب الذى عرف الناس قيمته فى القديم والحديث، وقالوا:

لو ساد الحب ما احتاج الناس إلى العدل ولا إلى القانون(١) وقديما قال شاعر صوفى كبير(٢):

إن الحب يحول المر حلوا،والتراب تبرا، والكدر صفاء، والألم شفاء، والسجن روضة، والسقم نعمة، والقهر رحمة، وهو الذى يلين الحديد، ويذيب الحجر، ويبعث الميت، وينفخ فيه الحياة.

* إن الحب هو الجوهر الوحيد الذى يعطينا الأمان والاستقرار والسلام.

* نحب كل شىء.. كل إنسان، نحب حتى الكارثة كما نحب النعمة.

* نحب الوجود كله بدايته ونهايته، الموت فيه والحياة.

* هل يستطيع أحد أن يحب هذا الحب؟ لو فعل لكان ملاكا.

ونحن نجيب على هذا السؤال فنقول: إن الذى يستطيع أن يحب هذا الحب الكبير صنف واحد من بنى الإنسان، إنه الصنف الذى خالطت قلبه بشاشة الإيمان.

* الإيمان وحده هو ينبوع الحب الصافى الخالد.

والمؤمن بعقيدة الإسلام نفذ إلى سر الوجود فأحب الله واهب الحياة.. أحبه حبا عظيما حبا لا يستطيع أى إنسان أن يصفه فهو الحب الخالد الأبقى الذى يفوق كل شىء فلقد أحب كل ما يحبه سبحانه، أحب الكتاب الذى أنزله ليخرج الناس

---

(١) د. يوسف القرضاوى: الإيمان والحياة، ص١٤٦.

(٢) هو الصوفى الكبير جلال الدين الرومى: وهذه الفقرات من شعره الصوفى الوجدانى وقد نقل هذه الفقرة السيد أبو الحسن الندوى فى كتابه رجال الفكر والدعوة فى الإسلام، ص٢٨٨.

من الظلمـات إلى النور، وأحب النبى الذى أرسـله رحمـة للعـالمين، وأحب كل إنسان من أهل الخير والصلاح الذين يحبهم ويحبونه.

إن ذروة الحب عند الإنسـان وأكثره سـموا وصـفاء وروحـانية هو حبـه لله سبـحانه وتعـالى، وشوقـه الشديد إلى التـقرب منه، لا فى صلواته وتسـبيـحاته ودعـواته فـقط، ولكن فى كل عـمل يقـوم به، وكل سلوك يصـدر منه إذ يكون توجهه فى كل أعمـاله وتصرفاته إلى الله سبحانه وتعالى راجيـا منه تعالى القبول والرضوان.

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) ﴾

[آل عمران: ٣١].

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ... (١٦٥) ﴾

[البقرة: ١٦٥].

وحينمـا يخلص الإنسان فى حـبه لله، يصـبح هذا الحب هو القوة الدافـعة الموجهة له فى حياته وتخـضع كل أنواع الحب الأخرى لهذا الحب الإلهى، ويصبح إنسانا يفيض بالحب للناس والحيوان وجميع مخلوقات الله والكون بأسره، إذ يرى فى كل الموجودات من حـوله آثار ربه الذى تشده إليه أشـواقه الروحيـة، وتطلعاته القلبية[1].

فالمؤمن يحب الطبيعة والوجود حيث أنها أثر من آثار ربه.

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) ﴾

[الأعلى: ٢-٣].

كمـا يحب المؤمن الناس جمـيعا، لأنهم اخـوته فى الآدمية، وشـركاؤه فى

(١) د. محمد عثمان نجاتى: القرآن وعلم النفس، ص٨٣.

العبودية لله وإن أدنى ثمرات المحبة التى يغرسها الإيمان فى قلب المؤمن هى سلامته من الغل والحسد، فإن أنوار الإيمان كفيلة أن تبدد دياجير الحسد من قلبه، وبذلك يمسى ويصبح سليم الصدر، ونقى الفؤاد، يدعو بما دعا به الصالحون:

﴿ ...رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٠) ﴾

[الحشر: ١٠].

والمؤمن لا يحسد، لأن الحسد وكما سماه رسول الله ﷺ داء من أدواء الأمم، داء نفس يصنع بالروح ما تصنع الأوبئة بالأجسام، فهو غم على صاحبه، ونكد دائم له، وغيظ لقلبه لا ينتهى أمده، بل هو داء جسدى أيضا ينهك القوى، ويؤذى البدن ويغير الوجه.

وكما أن المؤمن لا يحسد فهو لا يحقد، ويكظم غيظه، ويعفو وهو قادر على الانتقام، ويتسامح وهو صاحب الحق، فلا يشغل نفسه بالخصام والعداوات، فالعمر لا يتسع لمثل هذا العداء، والدنيا لا تستحق عنده هذا العناء فكيف يبيت وفى قلبه لأخيه شحناء العداء فيبيت بعيدا عن رحمة الله؟

والمؤمن لا يبغض، لأن البغضاء من بذور الشيطان، والمحبة والصفاء من غرس الرحمن.

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ... (٩١) ﴾

[المائدة: ٩١].

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ... (٧) ﴾

[الممتحنة: ٧].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) ﴾

[مريم: ٩٦].

فيحث القرآن المؤمن على أن يحب إخوانه المؤمنين، وأن يحسن إليهم، ويمد إليهم يد العون والمساعدة.

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ⑩ ﴾

[الحجرات: ١٠].

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑨ ﴾

[الحشر: ٩].

ويحث القرآن المسلمين على التعاون والتكافل وتكوين مجتمع موحد الكلمة متضامن يشعر فيه المؤمن أنه لبنة في بناء متكامل.

﴿ ... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ... ② ﴾

[المائدة: ٢].

وأعلى درجات الحب أن يؤثر الإنسان أخاه على نفسه فيجود له بالشيء وهو محتاج إليه، ويجوع ليشبع أخوه، ويكد ليرتاح، ويسهر لينام.

إن هذا الحب هو دليل إيمانه بربه، وقائده إلى جنته، وصدق رسول الله ﷺ إذ قال:

«والذى نفسى بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا».

(حديث شريف رواه مسلم).

إن حرص القرآن على توجيه المسلمين إلى حب الآخرين، وإلى التجمع وتوحيد الصفوف إنما ينمى فى نفوسهم حب الغير، ويقوى فيهم الميل إلى الإيثار والعمل على خير الناس والمجتمع عامة، ويضعف فيهم انفعالات الكراهية والبغضاء ودوافع الظلم والعدوان، والميل إلى حب الذات والأثرة، ولا شك أن القدرة على حب الناس وإسداء الخير لهم، والقيام بأعمال مفيدة للمجتمع إنما يقوى الشعور بالانتماء إلى الجماعة ويقضى على مشاعر العزلة والوحدة التى يشعر

بها المرضى النفسيون. إن لشعور الفرد بانتمائه إلى الجماعة، وبأن له دورا فعالا فى المجتمع أهمية كبيرة فى الصحة النفسية للإنسان[1].

ولا شك أن انتماء الفرد إلى جماعة يحبهم ويحبونه، وارتباطه بهم بعلاقات إنسانية جيدة إنما يعتبران من العوامل الهامة التى ساعد على تكوين شخصيته تكوينا سليما، وعلى تحقيق الأمن والطمأنينة فى نفسه.

وإذا تعمقنا فى القرآن الكريم، والسنة المحمدية الشريفة، وجدنا أن الإسلام يربط بين الأمن والإيمان برباط وثيق لا ينفصم عراه مصدقا لقول الحق تعالى:

﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾

[قريش: ٤].

والقرآن الكريم يهدى إلى الرشد فيبين أن الصحة النفسية لا يتحقق بالتخويف والإكراه والضغط على حرية الإنسان، ولذلك فإن الظالمين هم الجبارون فى الأرض.

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ... (٢٥٦) ﴾

[البقرة: ٢٥٦].

﴿ ... أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) ﴾

[يونس: ٩٩].

ومن أجل تحقيق الأمن والسكينة للنفس الإنسانية أعطى الله سبحانه وتعالى ـ الحرية فى الاعتقاد الدينى، فحرم الله تعالى ممارسة الضغط والإكراه فيها، ودعى إلى الألفة والمحبة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وذلك لحماية حقوق الإنسان، فالشريعة الإسلامية حريصة على حماية الإنسان من الخوف والفزع وكل ما يحد من حريته وإنسانيته حرصها على حقوقه الشرعية فى الأمن والسكينة والطمأنينة. ولذلك تركز الآيات القرآنية على ربط الإيمان بالأمن والأمل بالطمأنينة.

(١) د. محمد عثمان نجاتى: القرآن وعلم النفس، ص٢٥٠.

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ... (٢٨) ﴾

[الرعد: ٣٨].

فالمؤمن يسير مطمئن النفس ساكن القلب، مصدقا لقوله تعالى:

﴿ ... فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) ﴾

[الفتح: ١٨].

فالسكينة هدوء ورضا تسكن بها النفس، مع طمأنينة القلب، والقلب المطمئن يزداد ثباتا وثقة فى طريقه.

كما أن السكينة والأمن والطمأنينة مترادفات للإيمان، وثمرات الإيمان من ثمار التقوى ونتاج العلم بالله، وذلك وارد فى قوله تعالى:

﴿ ... قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ... (٢٦٠) ﴾

[البقرة: ٢٦٠].

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) ﴾

[الفجر: ٢٧ـ٢٨].

فالأمن ضد الخوف والفزع والاكتئاب والرعب والابتئاس.

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ... (١٥٤) ﴾

[آل عمران: ١٥٤].

﴿ ... وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) ﴾

[النمل: ٨٩].

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا ... (١١٢) ﴾

[النحل: ١١٢].

﴿ ... وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ... (٥٥) ﴾

[النور: ٥٥].

﴿ ... يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (٣١) ﴾

[القصص: ٣١].

ويرتبط الأمن أيضا بالأمل، وليس الأمل هنا فى تحقيق الرغبات المكبوتة كما يدعى علماء النفس، ولا حماية البناء النفسى من عدم إشباع غرائزه ونزعاته المنحرفة.

وإنما الأمل هنا أمل هادف، ودليله الإيمان، وهذا الأمل هو ثمرة يانعة من ثمار الخير على العمل الصالح كثواب من الله:

﴿ ... وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) ﴾

[الكهف: ٤٦].

﴿ ... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ﴾

[الطلاق: ٤].

وليس الخير فى تحقيق المال والأملاك، ولا فى إشباع رغبات النفس فى التظاهر بحسن الزى واللباس، إنما الخير فى تحقيق الأمن والسكينة، يقول الرسول ﷺ:

«ليس البر فى حسن اللباس والزى، ولكن البر فى السكينة والوقار»[1].

مما تقدم يتبين لنا أن القرآن الكريم عنى عناية شاملة بالنفس الإنسانية فى محاولة لفهمها والتعمق في معرفتها، معرفة واسعة ومستمدة أصولها وحقيقتها من القرآن الكريم حيث أن دراسة النفس الإنسانية هى جزء من دراسة الإنسان الذى خلقه الله ليؤدى رسالته فى الحياة ليكون خليفته فى الأرض.

وإذا تأملنا فى آيات الله البينات وجدنا أن هناك طريقا واحدا يتعين علينا أن نسلكه هو طريق الإيمان، إنه الطريق الفذ لتحقيق كل ما نريد من أهداف وما نصبو إليه من آمال.

---

(١) رواه الديلمى عن ابن سعيد.

إن كنا نريد الآخرة.. فطريقها هو الإيمان.

وإن كنا نريد الدنيا.. فطريقها هو الإيمان.

وإن كنا نريدهما معا.. فطريقهما الإيمان.

* إن الإيمان الحق هو سبيلنا إلى الدنيا وتحقيق آمالنا فيها، وغايتنا منها وسعادتنا بها.
* إن كنا نريد السعادة الشخصية، فلا سعادة بغير سكينة النفس، ولا سكينة بغير إيمان.
* وإن كنا نريد الحياة النظيفة، فلا نظافة بغير استقامة، ولا استقامة بغير إيمان.
* وإن كنا نريد الرخاء، فلا رخاء بغير إنتاج، ولا إنتاج بغير أخلاق، ولا أخلاق بغير إيمان.
* وإن كنا نريد الإصلاح الجذرى لحياتنا، فلا إصلاح إلا بتغيير نفسى، ولا تغيير إلا بتصميم، ولا تصميم إلا بالإيمان.
* وإن كنا نريد الحكم العادل، فلا عدل بغير قانون، ولا فائدة فى قانون بغير ضمائر ولا أمل فى ضمائر بغير إيمان.

الإيمان هو قوة الخلق، وخلق القوة، وروح الحياة وحياة الروح، وسر العالم وعالم الأسرار، وجمال الدنيا ودنيا الجمال، ونور الطريق وطريق النور[1].

إن كنا نريد الحب الحقيقى الخالى من الشوائب والآفات النفسية فسبيله الرضا ولا رضا بغير إيمان.

* الإيمان هو مصنع البطولات ومحقق المعجزات ومفتاح المغاليق، ومنار الطريق.

(١) د. يوسف القرضاوى: الإيمان والحياة، ص٣١١.

* الإيمان فى كلمة واحدة، ضرورة للحياة الإنسانية، ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد ويرقى، وضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك ويبقى.

والإيمان الذى نعنيه هو إيمان الإسلام فى شموله وتوازنه وعمقه وإيجابيته، إيمان القرآن والسنة، إيمان الصحابة والتابعين لهم بإحسان، معرفة ونية، اعتقاداً وعملا.

هذا الإيمان ليس مجرد شعار يرفع، أو دعوة تدعى.. إنه أسلوب حياة متكامل للفرد والأمة، إنه ضياء ثاقب ينفذ إلى الفكر والعاطفة والإرادة فى دنيا الفرد، فيجرى فى كيانه عصارة الحياة وينشئه من جديد ويحوله من مخلوق تافه إلى إنسان ذى رسالة وهدف، ومن حيوان إلى كائن أشبه بالملاك.

الإيمان الحق هو الذى يخط آثاره فى الحياة كلها، ويصبغها بصبغته الربانية فى الأفكار والمفاهيم والعواطف والمشاعر، والأخلاق والعادات، والنظم والقوانين.

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ... (١٣٨) ﴾

[البقرة: ١٣٨].

إذن علينا أن نتدبر فى آيات الله البينات ونتأمل فى كلماته التى لا تنفد أبدا:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾

[الكهف: ١٠٩].

حتى نتحلى بالإيمان الكبير فى هذه الرحلة الروحية مع آيات الله فنتزود بما جاء به القرآن الكريم من خلق عظيم، وأدب حميد، وسلوك عظيم، ومعرفة شاملة بحقيقة النفس الإنسانية كما أرادها الله أن تكون وترتقى حيث الحب والخير والصفاء والنورانية فننعم بالأمن النفسى، والسلام الروحى، والطمأنينة القلبية.

إن الإيمان بالله تعالى، واتباع منهجه الذى رسمه للإنسان فى القرآن، وبينته السنة هو السبيل الوحيد للتخلص من الهم والقلق[1]، والطريق الوحيد الذى يؤدى إلى تحقيق أمن الإنسان وسعادته، وأن فقدان الإيمان بالله، وعدم اتباع منهجه فى الحياة يؤدى إلى الهم والقلق والشقاء.

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾

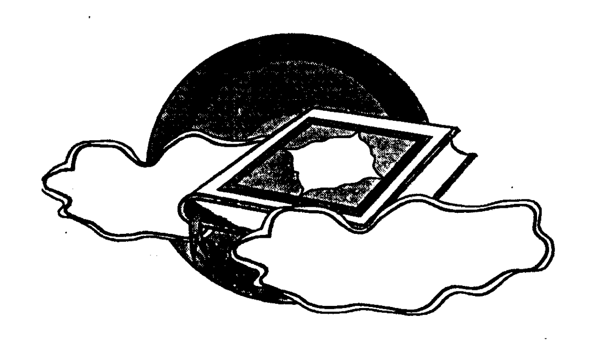
[طه: ١٢٤].

* * *

(١) انظر فى هذا المعنى أيضا: أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب: الأخلاق والسير فى مداواة النفوس، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٨، ص١٥، ١٦.

الفصل الخامس

الطريق إلى الله
هو
الطريق إلى الأمن النفسى





الفصل الخامس
طريق الله هو الطريق إلى الأمن النفسي

●●●●●●●

الله سبحانه وتعالى يعلم ما يخفى وما يظهر وأعلم بالنفس البشرية.

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ... (٢٥) ﴾

[الإسراء: ٢٥].

لذلك أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل لنصح البشر وهدايتهم لما فيه صلاحهم وسعادتهم لأنه سبحانه وتعالى يعلم أن النفس تنزع بما فطرت عليه إلى الأهواء فوجب تقويمها وتوجيهها عن طريق وحى الأنبياء فإذا اتقى الإنسان ربه واتبع إرشاد الأنبياء فهو من الفائزين أما من اتبع هوى نفسه فقد ظلمها وأساء إليها.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ... (٤٦) ﴾

[فصلت: ٤٦].

وعلى ذلك فلو اتبع علماء النفس الرسالات السماوية وهدى الله فى معرفة النفس البشرية وطرق علاجها لأثمرت الدراسات النفسية وتقدمت كثيرا. المشكلة إذن هى قيام علماء النفس بدراسة وفهم وعلاج النفس الإنسانية بمعزل عن الله ومن خلال تجاربهم ومقاييسهم التى ابتدعوها رغم أن الله سبحانه وتعالى حدد فى رسالاته ماهية النفس ووصفها وصفا كاملا محدداً ومبينا مثابها وعيوبها وطرق علاجها ووسائل تربيتها مما لا يحتاج بعد ذلك إلى توضيح أو تفسير. فالنفس الإنسانية فقيرة بذاتها قوية وعزيزة بالله سبحانه وتعالى - خالقها.

وإذا تعرضنا لموضوع الأمن النفسى نجد أن إنسان العصر الحديث، دائم

البحث عن العلاج الناجح للخوف والرعب والفزع والاضطراب الذى يعانى منه بصورة مستمرة وهدف الإنسان هو أن تنعم النفس بالأمن والسكينة والاطمئنان بدلا من الخوف والشك والقلق.

إن النفس الإنسانية بطبيعتها لتخاف وترجو. هكذا فطرتها، وتتنوع المخاوف ويتنوع الرجاء. ونظرا لأن بواعث القلق والفزع والخوف تصاحب الإنسان منذ أن يولد فقد أصبح الخوف هو القانون المسيطر على حياة الإنسان ومن ثم بذل الإنسان الأول أكبر جهده وصرف معظم وقته لتأمين نفسه من عوادى الطبيعة وعوادى الحيوان بل عوادى الإنسان نفسه وأصبح فزعه المستمر يعكر صفوه ويبدو له راحة البال لذلك فالنفس الإنسانية ترجو دائما الأمن والسكينة والطمأنينة.

لذلك كانت قاعدة الإسلام التى يقوم عليها كل بنائه هى حماية الإنسان من الخوف والفزع والاضطراب وكل ما يحد حريته وإنسانيته والحرص على حقوقه المشروعة فى الأمن والسكينة والطمأنينة وليس هذا بالمطلب الهين. فكيف يحقق الإسلام للمسلمين الأمن والسكينة والطمأنينة؟

إن الإسلام يقيم صرحه الشامخ على عقيدة الإيمان التى تجعل النفس الإنسانية وحدة متآلفة متسقة تتضاءل أمامها مفزعات الكون ومن هنا فإننا لنجد أن المؤمنين الصادقين الذين سلمت نفوسهم وصفت قلوبهم بأخلص الإيمان لم يتعرضوا مطلقا للأمراض النفسية التى تجر وراءها الأمراض البدنية - ذلك لأن هذه الأمراض بنوعيها لا تظهر إلا مع ضعف الإيمان أو مع فقده حين تتسرب الوساوس إلى النفس فتنشأ العقد وتكثر الحاجة إلى الأدوية المنشطة والمهدئة والمخدرة التى لا يعتدل بها ما اعوج من النفوس - وسيظل الصراع قائما فى زوايا النفس التى ضعف إيمانها ومن هنا يقول د. بريل «إن المرء المتدين لا يعانى قط مرضا نفسيا».

إذن فالإقبال على طريق الله هو الموصل إلى السكينة والطمأنينة والأمن لأنه سبحانه وتعالى لا يمكن أن يفزع عباده وهو خالقهم.

إن القرآن الكريم يبين لنا فى وضوح تام أن النفس الإنسانية تشتمل على خاصيتين أساسيتين:

* **الأولى**: النزع إلى طلب الشهوات بالفجور.

* **الثانية**: المجاهدة فى طريق الله بالتقوى.

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) ﴾

[الشمس: ٨].

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) ﴾

[البلد: ١٠].

وعلى ذلك فإنه بطريق الله تتطهر النفس الإنسانية من نقائصها وتبتعد عن مخاوفها فتسلم من الأمراض والآفات النفسية وتتجه إلى الأمن والأمان بعد أن كان الاضطراب والقلق والخوف طباعا ملازمة لها. أى أن العلاج الناجح الذى يقدمه علم النفس الإسلامى ـ لتحقيق الأمن النفسى هو عن طريق وصل الإنسان بالله تعالى فيبدأ فى الشعور بالراحة والطمأنينة لأنه يحس بأن له سندا قويا فى هذه الحياة فيبعثه هذا على التغلب على مشكلاته والنظر إلى الحياة بعين راضية وسكينة واطمئنان.

وأساس طريق الله .. هو الإيمان .. والإيمان هو نظافة القلب والنفس من الوساوس والشكوك وهو الدعم الذى ينشأ على هذه النظافة للخلق القويم والجسد السليم ـ والإيمان يزيل جميع العلل المادية والحضارية فى عالمنا المعاصر ـ إذ أن الأمراض النفسية تزداد مع نشاط الحياة القائمة على المادة وحدها بعيدة عن الإيمان وقوته.

ولذلك تركزت الآيات القرآنية على ربط الإيمان بالأمن والطمأنينة والسكينة.

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ... (٢٨) ﴾

[الرعد: ٢٨].

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ... (٤) ﴾

[الفتح: ٤].

فالمؤمنون يخالفون أهواء الناس ويتجنبون الشهوات الرخيصة ويعملون بآيات الله ويقتدون بسلوك الرسول ﷺ فهم الصادقون الصابرون العاملون الحامدون الشاكرون.. وهؤلاء المؤمنون يحظون بالأمن والسكينة النفسية ويبشرون دوما من الله تثبيتا لأقدامهم فى العلم والعمل ويهتئون برضى الله.. وحب الله.. وعلم الله.

إن نزول السكينة على النفس هو أنجح دواء لها لأن السكينة عبارة عن مزيد من التوحيد والإيمان كما أن السكينة والأمن والطمأنينة مترادفات للإيمان وثمرات من ثمار التقوى ونتاج العلم بالله والسير فى طريق الله.

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ... (١٠٩) ﴾

[التوبة: ١٠٩].

ولكن كيف السبيل إلى سكينة النفس وأمنها إذا كانت شيئا لا يثمره الذكاء ولا العلم ولا الصحة ولا المال والغنى ولا الشهرة والجاه ولا غير ذلك من نعم الحياة المادية. إن للسكينة والأمن النفسى مصدرا واحدا هو الإيمان بالله واليوم والآخر، الإيمان الصادق العميق الذى لا يكدره شك ولا يفسده نفاق. وهذا ما يشهد به الواقع الماثل وما أيده التاريخ الحافل وما يلمسه كل إنسان بصير فى نفسه وفيمن حوله.

لقد علمتنا الحياة أن أكثر الناس قلقا وضيقا واضطرابا وشعورا بالتفاهة والضياع المحرومون من نعمة الإيمان وبرد اليقين.

إن حياتهم لا طعم لها ولا مذاق، وإن حفلت باللذائذ والمرفهات لأنهم لا يدركون لها معنى ولا يعرفون لها هدفا، ولا يفقهون لها سرا، فكيف يظفرون مع هذا بسكينة نفس واطمئنان أو انشراح صدر.

إن هذه السكينة ثمرة من ثمار دوحة الإيمان، وشجرة التوحيد الطيبة التى تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها[1].

(١) د. يوسف القرضاوى: الإيمان والحياة، ص٧٦٠.

يقول الله تعالى فى كتابه الكريم:

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ... ④ ﴾

[الفتح: ٤].

وكما لا يتحسر المؤمن على الماضى باكيا حزينا، ولا يلقى الحاضر جازعا ساخطا ولا يواجه المستقبل خائفا وجلا، ولا يعيش فى فزع منه، ورهبة من غموه وتوجس من جبروته، كأنه عدو شرير متربص، بل يعيش آمن النفس كأنه فى الجنة، فإيمانه مصدر أمنه، والأمن من ثمرات الطمأنينة والسكينة بل هو نوع منها، إنه طمأنينة تتعلق بالمستقبل، بكل ما يتوقعه الإنسان، ويخاف منه، أو يخاف عليه، ولا سعادة بدون هذا الأمن النفسى.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ㉂ ﴾

[الأنعام: ٨٢].

ولا عجب أن جعل الله الجنة دار أمن وسلام كاملين، فأهلها فى الغرفات آمنون، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وتتلقاهم الملائكة منذ اللحظة الأولى: «ادخلوها بسلام آمنين».

إن الإيمان هو مصدر الأمان.. الناس يخافون من أشياء كثيرة وأمور شتى ولكن المؤمن سد أبواب الخوف كلها، فلم يعد يخاف إلا الله وحده، يخافه أن يكون قد فرط فى حقه، أو اعتدى على خلقه، أما الناس فلا يخافهم، لأنهم لا يملكون له ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

وعلى ذلك فإن الإيمان الحق هو السير فى طريق الله للوصول إلى حب الله والفوز بالقرب من الله ولكن كيف نصل إلى هذا الإيمان الحقيقى لكى تتحقق السعادة والسكينة والطمأنينة التى ينشدها ويسعى بها الإنسان لينعم بالأمن النفسى. إننا نستطيع أن نصل إلى هذا الإيمان بنور الله وسنة رسوله ﷺ.. ونور الله هنا

هو القرآن الكريم الذى نستدل به على الطريق السليم ونأخذ منه دستور حياتنا.. وننعم بنوره الذى ينير القلب والوجدان والنفس والروح والعقل جميعا.. أليس ذلك طريقا واضحا ووحيدا لنصل إلى نعمة الأمن النفسى.

إن كلمات الله المشرقة بأنوار الهدى.. هى شفاء ورحمة للمؤمنين:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا (٨٢) ﴾

[الإسراء: ٨٢].

فمن اتبع هدى الله فلا يضل ولا يشقى:

﴿ ...فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾

[طه: ١٢٣ـ١٢٤].

أليس ذلك تأكيدا وتوضيحا بأنه لا طريق.. إلا طريق الله.. طريق فيه شفاء ورحمة للمؤمنين.. طريق لا يضل الإنسان فيه ولا يشقى.. ولكن طريق الله لتحقيق سعادة الإنسان وسكينته يلزم بتغيير النفس بمحاسبتها ومراقبتها وتهذيبها وترويضها حتى تسير فى الطريق.. طريق الله وبذلك تستطيع النفس أن ترتقى وتسمو إلى أعلى حيث يريدها الله.. حيث النورانية والصفاء والنقاء والقرب من الله وذلك كله لتنعم النفس بالأمن والطمأنينة والسكينة.. ولأهمية ذلك فإن الله سبحانه وتعالى يأمرنا بأن نجاهد ونسير فى الطريق لنغير من هذه النفس بالتخلى عن صفاتها المذمومة والتحلى بالصفات المحمودة وأن ذلك تقويم للنفس ورجوع لحظيرة الإيمان وبتر لأمراض النفس المختلفة فيعود الإنسان صحيحا سليما آمنا عارفا بنفسه وربه جميعا:

﴿ ... إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... (١١) ﴾

[الرعد: ١١].

ولكن هذا التغير المطلوب ليس بالأمر الهين اليسير، إنه عبء ثقيل فإن الإنسان مخلوق مركب معقد ومن الصعب تغيير نفسه أو قلبه أو فكره، إن أى تغيير فى معالم الكون المادى أسهل بكثير من تغيير النفوس وتقليب القلوب والأفكار ولكن الإيمان الحقيقى هو وحده صانع المعجزات وهو الذى يهيئ النفوس لتقبل المبادئ الخيرة مهما يكمن وراءها من تكاليف وواجبات وتضحيات ومشقات وهو العنصر الوحيد الذى يغير النفس تغييرا تاما وينشئها خلقا آخر ويصبها فى قالب جديد فيغير أهدافها وطرائقها ووجهتها وسلوكها وأذواقها ومقاييسها.. هذا هو الإيمان.. طريق الله إلى أمن وسكينة النفس.

وبصفة عامة فإن الإيمان الحق - كما جاء به الإسلام - الحل الفذ لعقد الحياة المعاصرة التى استعصت على العلم وعلى الفلسفة وحار فيها المفكرون والمشرعون وطلاب الإصلاح.

• القلب علاقته بالأمن النفسى:

إننا الآن نعرف حتما - بعد هذا الاستعراض المختصر - أن أفضل علاج لأمراض النفس وآفاتها هو السير فى طريق الله الذى أساسه الإيمان الحقيقى ومنارته كلمات الله.. القرآن الكريم وسنة رسوله ﷺ... وبغير الاتجاه إلى الله.. لن يستطيع العلم أن يتقدم خطوة فى طريق شفاء الأمراض النفسية بل سيزداد الأمر سوءا والإنسان شقاءً وتعاسة وضلالا.. وهذا هو الفرق بين علم الله.. وعلم الإنسان.. ولكن قبل أن نسترسل فى تحديد الأسس الإسلامية لتحقيق الأمن النفسى من هدى القرآن الكريم.. يجب أن نعرف كيف سيفقه الإنسان الذى يطلب الأمن النفسى.. كيف سيفقه كلام الله لينعم. بما يتمنى من أمن واطمئنان؟

لقد اختلط عند كثير من العلماء معانى النفس والروح والقلب والعقل ويتداخل بعضها فى بعض ويرجع ذلك إلى عدم تحديد دور وعمل كل منهما فى الإنسان.. ولكن بمزيد من البحث والدراسة نجد أن القلب هو الذى يفقه من الإنسان بل هو الذى تعرف به حقائق الأشياء[1] وهو إذن المقياس الدقيق لمعرفة النفس فهو جامع بهذا المعنى للروح والعقل والنفس جميعا بالمعنى المعروف لنا.

---

(١) الإمام أبو حامد الغزالى - إحياء علوم الدين، ج٨، ص١٣٤٢ - ١٣٦٠.

﴿ ... لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا ... (١٧٩) ﴾

[الأعراف: ١٧٩].

﴿ ... صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ (١٢٧) ﴾

[التوبة: ١٢٧].

فالقلب هو الـذى يفقه والله تعـالى جعل القلب مـستودع الأسـرار وخزينة الانفعالات المتقـابلة ومستقر عجائب المعانى والغـيوب وبذلك يصبح القلب وحده هو القادر على كشف أو مـعرفة الحقيـقة اليقينية وذلك إذا أخـذت النفس بالطاعة والإخلاص.

لقد اتضح مدى أهمـية الإيمان لتحقيق الأمن النفسى.. والقلب مـستقر هذا الإيمان:

﴿ ... وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ... (٧) ﴾

[الحجرات: ٧].

﴿ ... وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ... (١٤) ﴾

[الحجرات: ١٤].

﴿ ... أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ... (٢٢) ﴾

[المجادلة: ٢٢].

* والقلب هو محل الطمأنينة:

﴿ ... أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾

[الرعد: ٢٨].

* وطمأنينة القلب تكون بالإيمان:

﴿ ... إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ... (١٠٦) ﴾

[النحل: ١٠٦].

* وهو محل السكينة:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ...(٤)﴾

[الفتح: ٤].

* وهو محل الألفة والحب:

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ... (٦٣) ﴾

[الأنفال: ٦٣].

* وهو محل التقوى:

﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) ﴾

[الحج: ٣٢].

* وهو محل الرأفة والرحمة:

﴿ ... وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ... (٢٧)﴾

[الحديد: ٢٧].

* وهو محل السلامة:

﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤)﴾

[الصافات: ٨٤].

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾

[الشعراء: ٨٩].

* وهو محل الإنابة:

﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣)﴾

[ق: ٣٣].

* وهو محل الذكرى:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ... (٣٧) ﴾

[ق: ٣٧].

* وهو محل الوجل:

﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ... (٣٥) ﴾

[الحج: ٣٥].

* وهو محل الخشوع:

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ... (١٦) ﴾

[الحديد: ١٦].

* والقلب هو محل الربط الإلهى:

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... (١٤) ﴾

[الكهف: ١٤].

﴿ ... وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) ﴾

[الأنفال: ١١].

وكل ذلك يدل على أن القلب هو مستودع سر الله ومستقر غيبه فى الإنسان وأنه هو محل الفقه فى الإنسان.

﴿ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ... (٤٦) ﴾

[الحج: ٤٦].

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾

[محمد: ٢٤].

﴿ ... فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) ﴾

[المنافقون: ٣].

﴿ ... صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ (١٢٧) ﴾

[التوبة: ١٢٧].

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ... (٤٦) ﴾

[الإسراء: ٤٦].

فالقلب هنا هو مشرق الأنوار ومهبط الأسرار ومن ذلك المعنى جاء قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ ... وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ... (١١) ﴾

[التغابن: ١١].

وهداية القلب إلهام وتوجيه وكشف وشهود ومعارف وسمو وترق فى معارج القرب لتحقيق معنى السير فى طريق الله والهجرة إليه.

ولعل مما يكشف بعض أسرار القلب وكيف أنه خزينة النور الأقدس قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ ... (١٩٤) ﴾

[الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

فالقلب بهذه المنزلة هو الذى يفقه وهو مرآة ومقياس النفس فكلما كانت النفس محمودة ازداد القلب إجلالا وإشراقا بالإيمان ونورا وضياءً فيتلألأ فيه الحق وفى هذا يقول الرسول ﷺ:

«إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من قلبه»(١).

وكذلك قوله ﷺ:

«من كان قلبه واعظًا كان عليه من الله حافظ»(٢).

(١) ذكره أبو منصور الديملى فى مسند الفردوس من حديث أم سلمة.

(٢) ذكره الإمام الغزالى فى إحياء علوم الدين، ج٨، ص١٣٥٨.

وأيضا فى الحديث الشريف:

«إذا أراد الله بعبد خيرا فتح له قفل قلبه وجعل فيه من اليقين والصدق وجعل قلبه واعيا سلك فيه وجعل قلبه سليما ولسانه صادقًا وخليقته مستقيمة وجعل أذنه سميعة وعينه بصيرة»[1].

وإذا أردنا أن نوجز ما سبق مناقشته فإننا نستطيع أن نقول إن المؤمن يسير فى طريق الله مطمئن النفس.. ساكن القلب.. فالسكينة هدوء ورضا تسكن بها النفس مع طمأنينة القلب المطمئن يزداد ثباتا وثقة فى طريقه.. طريق الله:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ...④﴾

[الفتح: ٤].

﴿... فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ⑱﴾

[الفتح: ١٨].

إن الذى يعرف الطريق إلى الله هو الإنسان السليم القلب المطمئن النفس من الأصفياء الأتقياء الذين يبشروا فى دنياهم وآخرتهم:

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ...⑫⑥﴾

[آل عمران: ١٢٦].

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ... ⑥④﴾

[يونس: ٦٤].

* كيف نتجه إلى طريق الله لننعم بالأمن النفسى؟

فى هذا الجزء نعرض كيف نتجه بقبلتنا إلى الله لننعم بالأمن النفسى بعد مجاهدة النفس لتحليتها بالأوصاف المحمودة وتخليتها عن الأوصاف المذمومة فتنعم

---

(١) رواه الشيخ أبو ذر الغفارى.

بالأمن والسكينة والطمأنينة.. وسوف نعرض بإيجاز لبعض النقط الرئيسية فى هذا الموضوع:

• تقوى الله:

التقوى هى رجوع النفس إلى حفظ خواطرها الظاهرة والباطنة من كل ما يدنسها خوفا من غضب الله وحبا فى مرضاته والعمل على تحقيق الإيثار والصلاح والعدل فى النفس. كما أنها اختيار للأفعال والأعمال التى تزكى النفس لتسرع فى طريق التكامل وبهذا فإن التقوى ترسم للمؤمنين سبيل صلاحهم واستقرار نفوسهم. وكل إنسان إذا اتقى الله وراقبه امتلأت نفسه بعظمة الله وخاف غضبه ورضى برضائه وامتثل لقضائه وتطهرت نفسه وأشرق عليها نور الحق واليقين. ومبعث التقوى إنما هو القلب ومنبعها الإيمان، وبالتقوى يتم علاج النفس من آفاتها وأهوائها وظنونها وخيالاتها.

وأساس التقوى هى طاعة وإخلاص والطاعة تربى الإنسان على التكامل والخلق الفاضل وتغرس فى النفس الحب والصفاء والاطمئنان الروحى والهدوء القلبى وكل هذا يعطى سكينة واطمئنانًا نفسيًا.

والإسلام يؤمن المؤمن التقى على نفسه ويطمئنه فى دنياه وآخرته:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ .. (٦٤) ﴾

[يونس: ٦٣، ٦٤].

والله سبحانه وتعالى لا يترك المؤمن التقى وإنما يقف معه ويسانده ويساعده:

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا ... (١٢٨) ﴾

[النحل: ١٢٨].

كما أن الله سبحانه وتعالى يلهم المؤمن التقى العلم والحكمة:

﴿ ... إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ... (٢٩) ﴾

[الأنفال: ٢٩].

وهذا يجعل المؤمن التقى تشرق فى نفسه أنوار الحقائق إشراقا ويتعرف على نفسه حق المعرفة فتهدأ النفس وتأمن ولا تتعقد حياته ولا تبتئس نفسه وإنما يجد مع الله دائما الفرج والأمل والأمن واليسر ويرزقه رزقا واسعا وأمنا واطمئنانا.

﴿ ... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ﴾

[الطلاق: ٤].

﴿ ... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ... ﴿٣﴾ ﴾

[الطلاق: ٢-٣].

وكما ذكرنا فى الأجزاء السابقة فإن الإيمان هو حصن الإنسان ولكن الإيمان والتقوى هما نجاح فى الدنيا والآخرة وأمل لا يمكن أن يضارعه أمل واطمئنان نفسى وقلبى لا يدانيهما اطمئنان:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ... ﴿٩٦﴾ ﴾

[الأعراف: ٩٦].

والتقوى هى أن يقى الإنسان نفسه من غضب الله وعذابه بالابتعاد عن ارتكاب المعاصى والالتزام بمنهج الله تعالى الذى رسمه لنا فى القرآن، وبينه لنا رسول الله ﷺ، فنفعل ما أمرنا الله تعالى به، ونبتعد عما نهانا عنه[1].

ويتضمن مفهوم التقوى أن يتوخى الإنسان دائما فى أفعاله الحق والعدل والأمانة والصدق وأن يعامل الناس بالحسنى، ويتجنب العدوان والظلم، ويتضمن مفهوم التقوى كذلك أن يؤدى الإنسان كل ما يوكل إليه من أعمال على أحسن وجه، لأنه دائم التوجه إلى الله تعالى فى كل ما يقوم به من أعمال ابتغاء مرضاته وثوابه، وهذا يدفع الإنسان دائما إلى تحسين ذاته. وتنمية قدراته ومعلوماته ليؤدى عمله دائما على أحسن وجه.

(١) د. محمد عثمان نجاتى: القرآن وعلم النفس، ص٢٥٣.

إن التقوى بهذا المعنى تصبح طاقة موجهة للإنسان نحو السلوك الأفضل والأحسن، ونحو نمو الذات ورقيها، وتجنب السلوك السيئ والمنحرف والشاذ، وهذا يتطلب من الإنسان مجاهدة نفسه والتحكم فى أهوائه وشهواته، فيصبح المسيطر عليها والموجه لها. . فالتقوى إذن من العوامل الرئيسية التى تؤدى إلى نضوج الشخصية وتكاملها واتزانها، وتدفع بالإنسان إلى الارتقاء بذاته متطلعا إلى بلوغ الكمال الإنسانى.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) ﴾

[الحديد: ٢٨].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾

[الأنفال: ٢٩].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾

[الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فالتقوى هى إذن خلق متكامل لنفس طيبة طائعة أثمر عملها ثمرات نتيجة لجهادها فى الله وجزاء ما قامت به من تهذيب ورعاية لنفسها، هذه النفس التى راقبت ذاتها وقامت بواجبها ليرضى الله عنها هى النفس التى تستحق ثمرات الأمن والسكينة والطمأنينة.

• **ذكر الله:**

ذكر الله طريق رائع لأنه يربط العبد بربه بعروة وثقى ويملأ القلب سكينة وطمأنينة وأمنا:

﴿ ...أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾

[الرعد: ٢٨].

وذكر الله من علامات القلوب العامرة بالإيمان إذ أنه يبدل الخوف أمنا والعداوة محبة ويحول القلق والجزع والاضطراب إلى سكينة والفزع والرعب إلى طمأنينة:

﴿ ... فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾

[الفتح: ١٨].

فذكر الله سبحانه وتعالى ركيزة أساسية فى طريق تطهير النفس وتنقيتها من آفاتها وأمراضها، فبالذكر تستريح النفس وتطمئن وتقنع وترضى وتعرف أن الشكوى لغير الله مذلة وأنه مع الله تنتصر فلا يمتلكها يأس ولا اكتئاب.. فلا أنين مع الله، ولا تبرم ولا قلق.

فالذاكر لله تعمر قلبه الطمأنينة ويغمره الرضا ولا يخشى شيئا ولا يخاف شيئا ولا يعتريه شيء.

﴿ ... وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾

[الأحزاب: ٣٥].

والذاكر لله هو الذى يذكره الله:

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ... ﴿١٥٢﴾ ﴾

[البقرة: ١٥٢].

أما الغافل عن الله فقد ظلم نفسه:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ... ﴿١٢٤﴾ ﴾

[طه: ١٢٤].

ويقول الرسول ﷺ:

«لا يجتمع قوم ويذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله تعالى»[1].

(١) رواه ابن ماجه عن أبى سعيد.

ويقول أيضا ﷺ:

«ذكر الله شفاء القلوب»[1].

إن ذكر الله يسلب ما فى النفس من هواجس ووساوس ومخاوف ليستبدل مكانها السكينة والرضا والأمن والمحبة وبذلك يعيد إلى نفس المريض الثقة بالله وفى الله ومع الله فلا يفكر فى آفات نفسه وعيوبها وإنما يتجه بكليته إليه تعالى فيؤنسه فى وحشته ويطمئن قلبه الخائف فتسكن سريرته:

وحينما يداوم المسلم على ذكر الله تعالى، فإنه يشعر بأنه قريب من الله تعالى، وأنه فى معيته ورعايته، يبعث ذلك فى نفسه الشعور بالثقة والقوة، والشعور بالأمن والطمأنينة، قال تعالى:

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ... (١٥٢) ﴾

[البقرة: ١٥٢].

ويقول الرسول ﷺ:

«إن الله تعالى يقول أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه»[2].

ويقول أيضا ﷺ:

«عليك بذكر الله وتلاوة كتاب الله فإنه نور فى الأرض وذكر لك فى السماء»[3].

وذكر الله، إذ يبعث فى النفس الأمن والطمأنينة، فهو بلا شك علاج للقلق الذى يشعر به الإنسان حينما يجد نفسه ضعيفا عاجزا أمام ضغوط الحياة وأخطارها، لا سند له ولا معين.

---

(١) رواه الديلمى عن أنس.

(٢) رواه الإمام الشعرانى فى كشف الغمة، عن د. حسن الشرقاوى: نحو علم نفس إسلامى، ص٣٠٠.

(٣) رواه أبو يعلى عن أبى سعيد: عن د. حسن الشرقاوى: المرجع السابق، ص٣٠٣.

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ... (١٢٤) ﴾

[طه: ١٢٤].

قال الله تعالى فى فضل الذكر:

﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ... (٤٥) ﴾

[العنكبوت: ٤٥].

وقال الرسول ﷺ:

«مثل البيت الذى يذكر الله تعالى فيه، والبيت الذى لا يذكر الله فيه مثل الحى والميت»(١).

وفى الواقع أن جميع العبادات ذكر أو تساعد على الذكر، ففى الصلاة يقوم المصلى بتكبير الله، وتلاوة القرآن، وتسبيح الله راكعا وساجدا، وحمد الله والثناء عليه، والصلاة على النبى ﷺ ثم يعقب الصلاة الاستغفار وتسبيح الله وحمده وتكبيره، والدعاء له، وكل ذلك ذكر(٢).

وقد قال الله تعالى عن الصلاة:

﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) ﴾

[طه: ١٤].

وفى الصوم طاعة الله تعالى، وابتعاد عما يغضبه، وتعظيم له، وشكر له على هدايته، وكل ذلك ذكر، وقد قال الله تعالى عن الصوم:

﴿ ... وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) ﴾

[البقرة: ١٨٥].

---

(١) رواه الشيخان عن أبى موسى الأشعرى: عن د. حسن الشرقاوى: المرجع السابق، ص٣٠٠.

(٢) د. محمد عثمان نجاتى: القرآن وعلم النفس، ص٢٧٣.

وفى الحج يتفرغ المسلم للصلاة والدعاء والابتهال لله والقيام بمناسك الحج وكل ذلك ذكر وقد قال الله تعالى عن الحج:

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ ... (٢٨) ﴾

[الحج: ٢٧، ٢٨].

والمؤمن الذى يريد أن يسير فى طريق التقرب إلى الله تعالى لا يكتفى بذكر الله كل يوم أثناء الصلاة فقط، وإنما يقوم أيضا بذكر الله كثيرا خارج الصلاة، وذلك بالإكثار من التسبيح والتكبير والابتهال والدعاء، أن التقرب إلى الله تعالى عن طريق العبادات وتلاوة القرآن والأوراد والأدعية إنما يعمل على تعميق الإيمان فى القلب، وبث الشعور بالأمن والسكينة فى النفس[1].

• الصبر:

يدعو القرآن المؤمنين إلى التحلى بالصبر لما فيه من فائدة عظيمة فى تربية النفس وتقوية الشخصية، وزيادة قدرة الإنسان على تحمل المشاق، وتجديد طاقته لمواجهة مشكلات الحياة وأعبائها، ونكبات الدهر ومصائبه ولتعبئة قدراته لمواصلة الجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) ﴾

[البقرة: ١٥٣].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾

[آل عمران: ٢٠٠].

والمؤمن الصابر لا يجزع لما يلحق به من أذى، ولا يضعف أو ينهار، إذا

(١) د. محمد عثمان نجاتى: القرآن وعلم النفس، ص٣٧٣.

ألمت به مصائب الدهر وكوارثه، فلقد علمه الله أن ما يصيبه فى الحياة الدنيا إنما هو ابتلاء من الله تعالى ليعلم الصابرين منا

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ ... (٣١) ﴾

[محمد: ٣١].

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾

[البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦) ﴾

[آل عمران: ١٨٦].

والصبر من صفات المؤمنين التى أشاد بها القرآن فى أكثر من موضع:

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) ﴾

[البلد: ١٢ - ١٨].

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾

[سورة العصر].

والصبر مقام من المقامات الرفيعة التى يحظى بها السالك فى طريق الله، ولقد أخبر الله تعالى أنه مع الصابرين، فقال عز من قائل:

﴿ ... وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) ﴾

[الأنفال: ٤٦].

وقوله تعالى:

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ... (١٢٧) ﴾

[النحل: ١٢٧].

والصبر أساس الصدق، ولذلك جعل الله الصابرين هم خصوص الصادقين[1] لأن الله سبحانه وتعالى قد رفع الصابرين على الصادقين فى ترتيب المقامات والدرجات.

ويرى الإمام الغزالى أن مقام الصبر ينتظم من أمور ثلاثة مثله فى ذلك مثل المقامات والمنازل العظيمة، وهذه الأمور هى المعارف والأحوال والأعمال، فالمعارف هى الأصول، وعن طريق المعرفة تشرق النفس بنور الحق، ويفاض عليها بالمنن وتحظى بالفتوحات الربانية، فتقترب من أنوار الحق، كما أن المعارف تورث أحوالا، وهذه الأحوال تثمر أعمالا[2].

وبذلك لا يتم الصبر إلا بمعرفة سابقة، أى أنه شجرة من أشجار الله، كما أنه لا يتم إلا بحال قائم أى بغصن من أغصان الله، كما أنه لا يتم إلا بعمل صالح، أى بثمرة من ثمار الله.

فالصبر إذن نتاج معرفة وحال وعلم، والعمل هو الثمرة التى يحصل عليها كنتاج لصبره[3].

فالإيمان صبر وسماحة وصدق وإخلاص وطاعة، ولذلك فإن الله يضاعف أجر الصابرين على كل عمل، والله سبحانه وتعالى يرفع جزاء الصابرين ويجزيهم أعظم الجزاء، فيجعله بلا نهاية ولا حد.

والصبر صفة من صفات الإنسان، فلا يتصور الصبر فى البهائم لأن البهائم تسير بالغريزة والشهوة، فلا إرادة لها ولا معرفة لها بالصبر وثمراته.

---

(١) الشيخ أبو طالب المكى: قوت القلوب، ص٣٩٥.

(٢) الإمام أبو حامد الغزالى: إحياء علوم الدين، ج١٢، ص٢١٧١ ـ ٢١٧٣.

(٣) د. حسن الشرقاوى: الشريعة والحقيقة، ص٣٠١.

وكذلك الأمر بالنسبة للملائكة، فقد جبلت على الطاعات، وقد فطرت على أعمال البر والخيرات، وليس فى خلقهم غرائز ولا شهوات، فلا وجود للمعاصى فى طبيعتهم، ولا وجود للخير المحض فى جبلتهم، فلا حقيقة للصبر عند الملائكة.

كما أنه لا حقيقة للصبر عند البهائم لعدم تعلقها ولقصورها ونقصانها، أما الإنسان فالصبر من سماته، وهو مفتاح التقوى والورع والإيمان فى نفسه وقلبه جميعا، كما أن الصبر مغلاق لباعث الشهوة أيضا.

ولذلك كان الصبر أفضل المقامات، فإذا صدق الإنسان فى صبره على المكاره، وسد أبواب الجشع والطمع وخالف أهواءه وشهواته، فقد اتصل بحزب الله، وحظى بمقام الصابرين.

أما إذا تخاذل الإنسان وضعف، وغلبته نفسه الأمارة، واتبع هواه، ولم يصبر فى دفع حظوظها ولذاتها.. والتحق باتباع الشياطين.. انحرف عن الطريق القويم.

فالصبر ثبات على أحكام الكتاب والسنة، وترك للشكوى والتبرم وتلقى الابتلاء بالرضا والتوكل، والاستعانة بالله، وقد سأل أحدهم الشبلى[1]:

وأى صبر أشد على الصابرين فقال: الصبر فى الله عز وجل، فقال: لا

فقال الشبلى الصبر لله قال: لا. قال الشبلى: الصبر مع الله. قال: لا

قال الشبلى فأى شىء؟ قال الصبر عن الله[2].

ويقصد الشبلى رضى الله عنه: بالصبر فى الله، أن العبد يصبر فى سبيل الله على ما يبتلى به من خير وشر، فيجاهد فى طريق الله دون تبرم أو شكوى أو اعتراض.

(1) أورده الإمام القشيرى ـ الرسالة القشيرية ج1 ص400 ـ نقلا عن د. حسن الشرقاوى، المرجع السابق، ص302.

(2) الشيخ عبد الرءوف المناوى: الكواكب الدرية، ج2، ص31.

أما الصبر لله فهو صبر المحب لحبيبه، فيصبر العبد من أجل حب الله، ورضا الله، ووعد الله..

أما الصبر مع الله، فهو صبر فيما يختبره الله، ويمتحن به عبده، فلا يخالف له أمرا، ولا يجد لنفسه حظا، فهو مع الله ظاهرا وباطنا، شريعة وحقيقة.

أما أعلى درجات الصبر، فهو الصبر عن الله، وهو مقام عال، فالسالك إلى الله إنما يؤيده الله بنصر من عنده، ويثبته فى حاله ومقامه، ويمن عليه من أسراره وتجلياته ويفتح له أبواب المعارف والفيوضات، فإذا حجبه لحظة عن هذه الأنوار الإلهية، ولم يشكُ ولم يتبرم، فقد صبر عن الله، بعد الله عنه، بعد عن منن الله، وعطايا الله، وهبات الله، ونظر الله، وعلم الله وهذا لا يقدر عليه إلا أصحاب المقامات الرفيعة والولايات الكاملة.

والصبر يعلم الإنسان المثابرة على العمل، وبذلك المجهود لتحقيق أهدافه العملية والعلمية. فإن معظم أهداف الإنسان فى الحياة سواء فى ميادين الحياة العملية التطبيقية من اجتماعية واقتصادية وسياسية أو فى ميادين البحث العلمى تحتاج إلى كثير من الوقت، وكثير من الجهد حتى يمكن بلوغها وتحقيقها، ولذلك كانت المثابرة على بذل الجهد والصبر على معاناة العمل والبحث من الصفات الهامة الضرورية لبلوغ النجاح وتحقيق الأهداف.

والصبر والمثابرة مرتبطان بقوة الإرادة[1]، فالشخص الصابر قوى الإرادة، لا تضعف عزيمته، ولا تثبط همته مهما لقى من مصاعب وعقبات، وبقوة الإرادة يتمكن الإنسان من إنجاز الأعمال العظيمة، وتحقيق الأهداف العالية.

﴿ ... إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

[الأنفال: ٦٥].

(١) د. محمد عثمان نجاتى: القرآن وعلم النفس، ص٢٧٠.

فالصبر هو القوة الدافعة والشحنة الواقية لنا فى السلوك الإنسانى فهو يدفعنا إلى العمل الصالح والخير الفاضل ويقينا من الوقوع فى حبائل الشيطان فنقع فى الإثم والخطأ والعدوان فنضل ونشقى. أن الصبر هو المعرفة الحقة والمسلك الواقعى الذى إذا اتخذه الإنسان فى حياته شعر بقوة كبرى تسرى فى كيانه كله يستمدها من الله عز وجل وتمنحه الإحساس بأنه فى طريق الصبر حبا فى الله.. وطاعة له تعالى وطمعا فى رحمته وثوابه حيث قال عز وجل فى كتابه الكريم:

﴿وبشر الصابرين﴾.

فيهنأ بالرضا والأمان والاستقرار النفسى وينعم بالسكينة والطمأنينة القلبية فيشعر بالسعادة النفسية والروحية.

• التوبة:

إن الشعور بالذنب يسبب للإنسان الشعور بالنقص والقلق، مما يؤدى إلى نشوء أعراض الأمراض النفسية. ويهتم العلاج النفسى فى مثل هذه الحالات: بتغيير وجهة نظر المريض عن خبراته السابقة التى سببت له الشعور بالذنب وشعوره بالنقص، فيخف تأنيبه لنفسه، ويصبح أكثر تقبلا لذاته، فيزول قلقه وأعراض مرضه النفسى.

ويمدنا القرآن بأسلوب فريد وناجح فى علاج الشعور بالذنب، ألا وهو التوبة، فالتوبة إلى الله سبحانه وتعالى تغفر الذنوب، وتقوى فى الإنسان الأمل فى رضا الله، فتخف حدة قلقه، ثم أن التوبة تدفع الإنسان عادة إلى إصلاح الذات وتقويمها حتى لا يقع مرة أخرى فى الأخطاء والمعاصى، ويساعد ذلك على زيادة تقدير الإنسان لنفسه، وزيادة ثقته فيها ورضائه عنها، ويؤدى ذلك إلى بث الشعور بالأمن والطمأنينة فى نفسه.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾

[الزمر: ٥٣].

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) ﴾

[النساء: ١١٠].

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ... (٤٨) ﴾

[النساء: ٤٨].

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) ﴾

[النساء: ١٧].

﴿ فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩) ﴾

[المائدة: ٣٩].

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤) ﴾

[الأنعام: ٥٤].

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٥٣) ﴾

[الأعراف: ١٥٣].

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢) ﴾

[طه: ٨٢].

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ

جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) ﴾

[آل عمران: ١٣٥، ١٣٦].

* ويحدد الإمام عبد القادر الجيلانى[1] التوبة فى أربعة أشياء:

أولا: أن يملك التائب لسانه من الغرور، والغيبة والنّميمة والكذب.

ثانيا: أن لا يرى لأحد فى قلبه حسدا ولا عداوة.

ثالثا: أن يفارق إخوان السوء، فإنهم هم الذين يحملون على هذا الطريق، ويضيعون عليه صحة العزم فى التوبة.

رابعا: أن يكون مستعدا للموت، نادما، مستغفرا لما سلف من ذنوبه، مجتهدا فى طاعة ربه.

فإذا تخلص الإنسان من هذه الآفات والنقائص وتجنبها.. وتخلى عن الحظوظ والشهوات فإنه يكون مقبول التوبة، ويظهر ذلك على قلبه فتبدو عليه **علامات الصدق**. فيتصف حينئذ بالصفات الآتية:

أولا: الانقطاع عن أصحاب الفسق والفجور، ثم أنه يخالط الصالحين.

ثانيا: الانقطاع عن كل الذنوب.. ويقبل على جميع الطاعات.

ثالثا: أن يذهب فرح الدنيا من قلبه.. ويستبدل به حزن الآخرة.

رابعا: أن يرى نفسه غير منشغل بمطالب الدنيا وشهواتها.. مشتغلا بما أمر الله به من الطاعات.

وبذلك يصدق فى هذا التائب.. الصادق المخلص.. قول الله تعالى:

﴿ ...إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) ﴾

[البقرة: ٢٢٢].

---

(١) الإمام عبد القادر الجيلانى ـ الغنية ـ ص١٤٠.

وهنا يمتاز هذا التائب الصادق بميزات وعده الله بها.. وهي[1]:

١ـ حب الناس له، لأن الله تعالى قد أحبه.

٢ـ حفظ الناس له وذلك بالدعاء له، ليثبته الله تعالى على هذه التوبة.

٣ـ أن لا يتهمه أحد بما سلف من ذنوبه السابقة.

٤ـ أن يكرمه الله بأن يجالسه.. ويقدمه في الدرجات كثمرة من ثمار توبته.

كما أن الله سبحانه يمن على التائب بأربع كـرامات نتيجة إخلاصه في توبته النصوح ويدعمه بها.. وهي:

١ـ أن يخرجه الله سبحانه وتعالى من الذنوب كأنه لم يذنب قط.

٢ـ أن يحبه الله تعالى.

٣ـ أن لا يسلط عليه الشيطان، بل ويحفظه منه.

٤ـ أن يؤمنه من الخوف قبل أن يخرجه من الدنيا، وتأييدا لقوله تعالى:

﴿ ...تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) ﴾

[فصلت: ٣٠].

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) ﴾

[التوبة: ١١٢].

والتوبة عند الإمام الغزالي[2] هي معرفة عظم ضرر الذنوب وهذه المعرفة غير معرفة العلوم التي تحصل وتعلم وتدرس، إذ أن هذه المعرفة في رأيه حديث بعد أن

(١) نفس المرجع السابق، ص١٤١ ما بعدها.

(٢) الإمام أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج١١، ص٢٠٧٢ ـ ٢٠٧٣.

كان هناك حجاب بين العبد وبين ربه، فوقع الضرر والذنب، أو الإثم والخطيئة ثم عرف الإنسان التائب طريقه إليه، فتاب عن ذلك جميعا.

التوبة إذن هى معرفة حقيقية، وإيمان غالب على القلب، ويقين مؤكد فإذا ما تمت توبة الإنسان، فإنه يثور نتيجة هذه المعرفة، ويتألم قلبه ويحزن بسبب ما وقع فيه من الذنوب والآثام.

ففى التوبة يرتبط العلم بالندم، بل يرتبط أيضا بالنية والقصد المتعلق بذلك الإثم فى الحال والاستقبال.

فإذا كانت التوبة نصوحة، فإنها مؤدية إلى الندم، ويكون العلم هنا هو المعرفة بضرر الذنب أو الخطيئة، ويكون ترك الإثم هو الثمرة التى يحصل عليها التائب بعد توبته.

أما الإنسان الذى يشعر دائما أنه على حق، مهما ارتكب من أخطاء وآثام وذنوب.. ثم أنه يبررها بمنطق عقلى وحجج ولجاج ولغو، فهو الإنسان الواقع فى غفلة يحسب أنه لا يراه أحد، وأنه يستطيع بالمخادعة أن ينجح بين الناس، إلا أنه ما يلبث أن يقع فريسة الأمراض والضياع النفسى، فالذى يظهر أمام الناس بمظهر العالم التقى، ثم أن قلبه فى واقع الأمر مشحون بالآثام والصدق، وتستمرئ الفجور والإثم بل وتدافع عن الأباطيل، وتبقى على هذه الحال، صاحبها جاهل لنفسه، يدعى العلم اغترارا، حتى يقع موقع التهلكة والضلالة ويندم على ما فات بعد الأوان، فلا تنفع له توبة ولا ندم.

سُئل الحسن[1] ـ رضى الله عنه ـ عن التوبة النصوح فقال:

هى ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح وإضمار أن لا يعود إليها.

إن إيمان المسلم بأن الله جل شأنه يقبل التوبة ويغفر الذنوب، وأن الله

(١) الشيخ أبو طالب المكى: قوت القلوب، ج١، ص٣٦٤، ٣٦٥.

سبحانه وتعالى لا يخلف وعده، وإنما يدفعه إلى الاستغفار والتوبة، والابتعاد عن ارتكاب المعاصي أملا فى مغفرة الله ورضوانه، وإذا تاب المسلم توبة نصوحة، والتزم بطاعة الله وعبادته بالعمل الصالح، ارتاح باله، واطمأنت نفسه، وزال عنه الشعور بالذنب الذى يسبب القلق واضطراب الشخصية[1].

• العبادات:

إن تغيير الأفكار خطوة أولى وضرورية لتغيير شخصية الإنسان وسلوكه غير أن تعلم سلوك جديد يقتضى أيضا ممارسة هذا السلوك مدة طويلة، أى يقتضى التدريب عليه حتى يستقر ويثبت.

وقد اتبع القرآن فى تربيته لشخصيات الناس، وفى تغيير سلوكهم أسلوب العمل والممارسة الفعلية للأفكار والعادات السلوكية الجديدة التى يريد أن يغرسها فى نفوسهم، ولذلك فرض الله سبحانه وتعالى العبادات المختلفة: الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج.

إن القيام بهذه العبادات فى أوقات معينة بانتظام يعلم المؤمن الطاعة لله تعالى، والامتثال لأوامره، والتوجه الدائم فى عبودية تامة، كما يعلمه الصبر، وتحمل المشاق، ومجاهدة النفس والتحكم فى أهوائها وشهواتها، كما يعلمه حب الناس، والإحسان إليهم، وينمى فى نفسه روح التعاون والتكافل الاجتماعى. وكل هذه خصال حميدة تتميز بها الشخصية السوية الناضجة المتكاملة. ولا شك أن قيام المؤمن بهذه العبادات بإخلاص وبانتظام إنما يؤدى إلى اكتسابه هذه الخصال الحميدة التى توفر له مقومات الصحة النفسية السليمة، كما يمده بوقاية من الأمراض النفسية كما سيتضح لنا من شرحنا التالى لتأثير العبادات فى شخصية المسلم وأثر كل عبادة فى الصحة النفسية:

(أ) الصلاة:

يشير اسم الصلاة إلى أن فيها صلة بين الإنسان وربه، ففى الصلاة يقف

---

(١) د. محمد عثمان نجاتى: القرآن وعلم النفس، ص٢٧٦.

الإنسان فى خشوع وتضرع بين يدى الله سبحانه وتعالى خالقه وخالق الكون كله، ويقف بجسمه الضئيل الضعيف أمام الإله العظيم القادر على كل شىء المتحكم فى كل ذرة فى الوجود المدبر للأمر فى السموات والأرض، الذى بيده الحياة والموت، والموزع لأرزاق الناس والذى يتم بأمره القضاء والقدر، والذى يمن علينا بجميع النعم التى ننعم فيها، والذى يتلطف بنا فى أزمات ومصائب الحياة بنسمات عطائه الفياض لنا ومنحه القوة الدافعة للصبر على هذه المصاعب والكوارث، والذى يفيض علينا من لمسات حبه وحنانه العظيم ما يجعلنا نحيا فى سعادة وأمن وسلام.

إن وقوف الإنسان فى الصلاة أمام الله سبحانه وتعالى فى خشوع وتضرع يمده بطاقة روحية تبعث فيه الشعور بالصفاء الروحى، والاطمئنان القلبى، والأمن النفسى، ففى الصلاة، إذا ما أداها الإنسان كما ينبغى أن تؤدى، يتوجه الإنسان بكل جوارحه وحواسه إلى الله تعالى وينصرف عن كل مشاغل الدنيا ومشكلاتها، ولا يفكر فى شىء إلا فى الله سبحانه وتعالى وما يردده من آيات القرآن، إن هذا الانصراف التام عن مشكلات الحياة وهمومها، وعدم التفكير فيها أثناء الصلاة، من شأنه أن يبعث فى الإنسان حالة من الاسترخاء التام، وهدوء النفس، وراحة العقل. ولهذه الحالة من الاسترخاء والهدوء النفسى التى تحدثها الصلاة أثرها العلاجى الهام فى تخفيف حدة التوتر العصبية الناشئة عن ضغوط الحياة اليومية، وفى خفض القلق الذى يعانى منه بعض الناس، يقول الطبيب توماس هايسلوب: وإن أهم مقومات النوم التى عرفتها فى خلال سنين طويلة قضيتها فى الخبرة والتجارب هو الصلاة وأنا ألقى هذا القول بوصفى طبيبا، إن الصلاة أهم أداة عرفت حتى الآن لبث الطمأنينة فى النفوس، وبث الهدوء فى الأعصاب[1].

إن الاسترخاء من الوسائل التى يستخدمها بعض المعالجين النفسيين المحدثين فى علاج الأمراض النفسية. والاسترخاء عادة يمكن أن يتعلمه الإنسان بالتدريب. وتمدنا الصلاة خمس مرات فى اليوم بأحسن نظام للتدريب على الاسترخاء وتعلمه. وإذا تعلم الإنسان عادة الاسترخاء فإنه يستطيع أن يتخلص من التوتر العصبى الذى تسببه ضغوط الحياة وهمومها.

---

(١) ديل كارنجى: دع القلق وابدأ الحياة، ترجمة عبد المنعم الزيادى، ص٣٥٩، ٣٦٠.

وقد كان الرسول ﷺ يقول لبلال رضى الله عنه حينما تحين أوقات الصلاة:

«أرحنا بالصلاة يا بلال»، وقال عليه الصلاة والسلام أيضا: «جعلت قرة عينى فى الصلاة»[1].

وتساعد حالة الاسترخاء والهدوء النفسى التى تحدثها الصلاة على التخلص أيضا من القلق الذى يشكو منه المرضى النفسيون، فإن حالة الاسترخاء والهدوء النفسى التى تحدثها الصلاة تستمر عادة فترة ما بعد الانتهاء من الصلاة، وقد يواجه وهو فى هذه الحالة من الاسترخاء والهدوء النفسى بعض الأمور أو المواقف المثيرة للقلق، أو قد يتذكرها، وتكرار تعرض الفرد لهذه الأمور أن المواقف المثيرة للقلق أو تذكرة لها أثناء وجود هذه الحالة من الاسترخاء والهدوء النفسى عقب الصلوات إنما يؤدى إلى الانطفاء التدريجى للقلق، وإلى ارتباط هذه الأمور أو المواقف المثيرة للقلق بحالة الاسترخاء والهدوء النفسى، وبذلك يتخلص الفرد من القلق الذى كانت تثيره هذه الأمور أو المواقف[2].

ويقوم الإنسان عقب الصلاة مباشرة بالتسبيح والدعاء إلى الله تعالى، وهذا يساعد على استمرار حالة الاسترخاء والهدوء النفسى لفترة ما عقب الصلاة. وفى الدعاء يقوم الإنسان بمناجاة ربه، ويطلب منه أن يعينه على حل مشكلاته وقضاء حاجته. إن مجرد تعبير الإنسان عن مشكلاته التى تزعجه وتقلقه وهو فى هذه الحالة من الاسترخاء والهدوء النفسى يؤدى أيضا إلى التخلص من القلق حيث تفقد هذه المشكلات قدرتها على إثارة القلق تدريجيا، وترتبط ارتباطا شرطيا بحالة الاسترخاء والهدوء النفسى، وهى حالة معارضة للقلق.

وإن مجرد إفضاء الإنسان بمشكلاته لله سبحانه وتعالى، ومناجاته لربه عقب كل صلاة، والاستعانة به وطلب العون منه والدعاء والتضرع إليه عز وجل.. كل هذا يؤدى إلى تخفيف حدة القلق وذلك لأن المؤمن يعلم أن الله سبحانه وتعالى قال فى كتابه الكريم:

---

(١) رواه الطبرى فى الأوسط: عن سعيد حوى، تربيتنا الروحية ٢، القاهرة.

(٢) د. محمد عثمان نجاتى: القرآن وعلم النفس، ص٢٥٧.

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ... ⁽٦٠⁾ ﴾

[غافر: ٦٠].

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ... ⁽١٨٦⁾ ﴾

[البقرة: ١٨٦].

ومن يطلب العون من الله لا يخذله سبحانه وتعالى أبدا، فإذا اتجه الإنسان لله داعيا بكل صدق وإخلاص وعبودية تامة طالبا رحمته تعالى وعونه له.. سوف يجد الله ملهما له بالحلول الملائمة للمشكلات والأزمات التى يعانى منها وتعترضه فى حياته ثم يمده الله بطاقة روحية هائلة تعينه على العمل والمثابرة والصبر على تحمل هذه المشكلات حتى يعبر بها بفضل الله وعونه إلى بر الأمان بهدوء وسلام، ثم إن هذه الطاقة الروحية تعطيه الإحساس بالسعادة والسكينة والأمن النفسى مما يساعد على تقوية إيمانه بالله فتزيده حبا له تعالى وشكرا له عز وجل على القوة الكبرى المستمدة منه عز وجل والتى تعينه فى طريق الحياة، والنعمة العظمى التى أنعمها الله على هذا العبد فى حياته، فأصبحت مصباحًا يضىء له الطريق.

إن ما تحدثه الصلاة من شعور بالأمن وتحرر من القلق يساعد على انطلاق طاقة الإنسان النفسية التى كانت مقيدة فى أغلال القلق، فيشعر الإنسان بتدفق النشاط فى كيانه.

وفضلا عن هذا التحرر من قيود القلق، فإن الاتصال الروحى بين الإنسان وربه أثناء الصلاة يمده بطاقة روحية تجدد فيه الأمل، وتقوى فيه العزم، وتطلق فى نفسه قدرات هائلة تمكنه من تحمل المشاق والقيام بجلائل الأعمال. وفى الواقع، أن الإنسان يتضمن فى كيانه قوى وطاقات عظيمة لا يستخدم منها إلا جزءا صغيرا، يقول وليم چيمس فى هذا الصدد:

إذا قسنا أنفسنا إلى ما يجب أن نكون عليه يتضح لنا أننا أنصاف أحياء.

فإننا لا نستخدم إلا جانبا يسيرا من مواردنا الجسمانية والذهنية، أو بمعنى آخر، أن الفرد منا يعيش فى حدود ضيقة يصطنعها داخل حدوده الحقيقية.

إنه يمتلك قوى كثيرة مختلفة، ولكنه عادة لا يفطن إليها أو يخفق فى استخدامها[1] ولعل اتصال الإنسان الروحى بربه أثناء الصلاة، وتقبله منه تعالى نوعا من الفيض الإلهى أو القبس الروحانى إنما يطلق فيه طاقاته الروحية الكامنة، فيشتد عزمه، وتقوى إرادته، وتعلو همته، فيصبح أكثر استعدادا لقبول العلم والمعرفة، وأكثر قدرة على القيام بجليل الأعمال.

وقد لاحظ الطبيب الفرنسى الكسيس كارليل إن الصلاة تحدث نشاطا روحيا معينا يمكن أن يؤدى إلى الشفاء السريع لبعض المرضى فى أماكن الحج والعبادات[2].

ومما يجدر ملاحظته أن العلاج النفسى يتدخل عادة لمساعدة المريض بعد حدوث المرض النفسى غير أن الصلاة إنما تعمل على وقاية الفرد من الإصابة بالمرض النفسى. ولا شك أن الوقاية خير من العلاج ولذلك كان فضل الصلاة من هذه الناحية عظيما.

ثم إن الوضوء استعدادا للصلاة ليس تطهيراً للجسم فقط مما علق به من أوساخ وأدران وإنما هو أيضا تطهير للنفس من أوساخها وأدرانها. فالوضوء، إذا ما أدى كما ينبغى، يشعر المؤمن بالنظافة البدنية والنفسية معا ويشعره أنه تطهر من أدران أخطائه وذنوبه. إن هذا الشعور بالطهارة البدنية والنفسية يهيئ الإنسان للاتصال الروحى بالله سبحانه وتعالى، والدخول فى حالة الاسترخاء الجسمى والنفسى أثناء الصلاة.

وفضلا عن التأثير النفسى للوضوء، فإن له أيضا تأثيرا فسيولوجيا إذ تبين أن الاغتسال بالماء خمس مرات يوميا وعلى فترات معينة من العمل اليومى إنما يساعد على استرخاء العضلات، وتخفيف حدة التوتر البدنى والنفسى ولذلك أوصى النبى ﷺ بالوضوء إذا غضب الإنسان، فقال ﷺ: «إذا غضبت فتوضأ».

(١) ديل كارنجى: مرجع سابق، ص٢٣٩.

(٢) الكسيس كارليل: الإنسان ذلك المجهول، ط٣، ترجمة شفيق أسعد فريد.

ومن أنجح الوسائل لشفاء النفس من الأسقام الصلاة[1]. إن الصلاة اتصال بين القلب وبين الله فتنشغل الروح بالتقرب إلى الله والتنعم بذكره.. والمشغول بشيء يحبه، وما دام العبد مشغولا بالله والتقرب إليه بالعبادة فكيف يتسنى له الانشغال بالهوى وهو الذى يعكر صفو التنعم بذكر الله، وهكذا يبتعد المصلى عن هوى نفسه الذى يفسد عليه الابتهاج بمناجاة ربه، والوقوف بين يديه خاشعا.

والنفس التى تقبل على الصلاة وتنشرح لها، بعكس النفس التى تستثقل الصلاة وتجد فيها عنتا وتعبا ونصبا، أن تلك النفس الملحدة التى تجد الصلاة عملا لا فائدة منه وتستبدل بالصلاة الإعراض عن الله والغفلة عما جاءت به الرسل والإمعان فى الأهواء والضلالات. ولا علاج لهذه القلوب الجاحدة إلا نار جهنم.

﴿ لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (16) ﴾

[الليل: ١٥، ١٦].

أما المؤمنون الذين عمرت قلوبهم بالإيمان، ونفوسهم بالتوبة، وانشرحت صدورهم بالصلاة، فإن الصلاة تقوى معها طبيعتهم، وتنصلح بها أجسامهم، فيندفع الوجع من الجسم أينما وجد، وتخرج الآلام من أبدانهم بفضل الصلاة، ويكتب لهم الشفاء والصحة والعافية نفسًا وقلبا وروحا وبدنا.

(ب) الصيام:

وللصيام فوائد نفسية كثيرة[2] ففيه تربية وتهذيب للنفس وعلاج لكثير من أمراض النفس والجسد فالصوم هو تدريب للإنسان على مقاومة شهواته والسيطرة عليها ويؤدى ذلك إلى بث روح التقوى فيه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) ﴾

[البقرة: ١٨٣].

---

(١) د. حسن الشرقاوى: الطب النفسى النبوى، ص١٣٦ وما بعدها.

(٢) د. محمد عثمان نجاتى ـ القرآن وعلم النفس، ص٢٦٤.

واستمرار هذا التدريب على ضبط الشهوات والسيطرة عليها لا شك سيؤدى إلى تعليم الإنسان قوة الإرادة، وصلابة العزيمة، لا فى التحكم فى شهواته فقط، وإنما فى سلوكه العام فى الحياة، وفى القيام بمسئولياته، وأداء واجباته، ومراعاة الله تعالى فى كل ما يقوم به من أعمال. وفى ذلك أيضا تربية لضمير الإنسان، فيصبح الإنسان ملتزما دائما بالسلوك الحسن الأمين بوازع من ضميره من غير حاجة إلى رقابة من أحد عليه.

وفى الصيام أيضا تدريب للإنسان على الصبر والجوع والعطش والامتناع عن الشهوات. ويقوم الإنسان بعد ذلك بتعميم خصلة الصبر التى تعلمها من صيامه على جميع نواحى حياته الأخرى، فيتعلم الصبر على تحمل مشاق السعى وراء الرزق وآلام المرض، ومتاعب الحياة ومصائبها، والصبر من الخصال الإنسانية الحميدة التى أوصى الله تعالى الإنسان أن يتحلى بها، فهو خير معين له على تحمل مشاق الكفاح فى الحياة، ومجاهدة النفس ومقاومة أهوائها وشهواتها.

ومن الفوائد النفسية للصيام أيضا أن يشعر الغنى بآلام الجوع، ويبعث فى نفسه عواطف الرحمة والشفقة على الفقراء والمساكين فيدفعه ذلك إلى البر بهم والإحسان إليهم مما يقوى فى المجتمع روح التعاون والتضامن والتكامل الاجتماعى.

وفضلا عن هذه الفوائد النفسية للصيام فإن فيه أيضا فوائد طبية وعلاجا من الأمراض البدنية. ومن المعروف أن لصحة الإنسان البدنية تأثيرا على صحته النفسية ومن الحكم الشائعة: «إن العقل السليم فى الجسم السليم».

إن الصوم فى الهدى النبوى إنما هو أكمل الهدى فيه تعظيم النفوس عن مألوفاتها وعاداتها وشهواتها، ولذلك فإن الصوم من أشق الأمور وأصعبها على النفس والصوم حصن للمؤمنين، ودافع لغواية الشيطان عن النفوس والقلوب، وهو نبذ للشهوات المستكنة وقمع للأهواء المختبئة، لذلك يقول الرسول ﷺ: **«الصوم نصف الصبر»**[1].

---

(١) رواه أبو هريرة: نقلا عن د. حسن الشرقاوى: الطب النفسى النبوى، ص١٤٠.

وما دام الصـوم هو نصف الصبر فـإنه ربع الإيمان، وذلك بمقتـضى حديث رسول الله ﷺ: «الصبر نصف الإيمان»[1].

فكأن الصائم الصابر قد وصل إلى ثلاثة أرباع الإيمان.

إذن نخلص إلى أن اسـتقـامة النفس بـالصوم هى البـاب الملكى إلى الأمن النفسى وتحقيق التوازن والاعتدال بين حاجات النفس والجسم جميعا.

(ج) الحج:

وللحج أيضا فوائد نفـسية عظيمة الشأن، فـزيارة المسلم لبيت الله الحرام فى مكة المكرمـة، ولمسجـد رسول الله ﷺ فى المدينة المنورة، لمنازل الوحـى، وأماكن البطولات الإسلامـية تمد المسلم بطاقة روحـية تزيل عنه كروب الحـياة وهمومـها، وتغمره بشعور عظيم عن الأمن والطمأنينة والسعادة.

وفضلا عن ذلك، فإن فى الحج تدريبا للإنـسان على تحمل المشاق والتعب، وعلى التواضع حيث يتسـاوى جميع الناس الغنى فيها والفقيـر، والسيد والمسود، والحاكـم والمحكوم. وهو يقوى روابط الأخـوة بين جمـيع المسلمين من مخـتلف الأجناس والأمم والطبقات الاجـتماعية، حيث يجـتمعون جميـعا فى مكان واحد يعبدون الله تعالى ويبتهلون إليه ويتضرعون.

وفى الحج أيضا تدريـب للإنسان على ضبط النفس والتـحكم فى شهـواتها واندفاعاتها، إذ يتنزه الحـاج وهو محرم عن مباشرة النسـاء، وعن الجدل والخصام والشحناء والسباب وعن المعاصى وكل ما نهى الله عنه، وفى ذلك تدريب للإنسان على ضبط النفس وعلى السلوك المهذب، وعلى معاملة الناس بالحسنى وعلى فعل الخير.

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ

---

(1) رواه أبو نعيم فى الحليـة والخطيب فى التاريخ من حـديث ابن مسعـود: نقلا عن المرجع السابق.

﴿فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧)﴾

[البقرة: ١٩٧].

فالحج على هذا الأساس، هو جهاد للنفس، يجتهد فيه الإنسان أن يهذب نفسه ويقاوم أهواءه واندفاعاته، ويدرب نفسه على تحمل المشاق، وعلى فعل الخير وحب الناس(١).

إن الحج فرصة عظيمة للنفس اللاهية والقلب الغافل، وللإنسان لكى يغير من مألوفات العادات والطباع المرذولة والمستقبحة، ويغسل نفسه من أوحال الرفث والفسوق والعصيان والجدال(٢).

كما أنه فرصة للنفس لتعيد حساباتها وترجع عن غيها، ليعتدل أمرها، وتجهر فسوقها وعنادها لتدخل فى طاعة الله.

إن فى عمل الحاج بأمر الله، تنزيه لشعائره ومناسكه تعالى، فضلا عن أن طاعة الله تساعد الإنسان على الابتعاد تماما عن الآثام والخطايا فى هذه الفترة الزمنية، الأمر الذى يكسبه عادات جديدة وأخلاقا طيبة.

الحج يفرغ المسلم من الهموم إذ يقف أمام الله مجردا عن حظوظ نفسه، فيسكن قلبه، ويطمئن بذكر الله، كما يفرغ النفس من الهوى عندما تنصرف بالكلية إلى الله ولا تلتفت إلى ما دونه.

كذلك تطالب النفس فى الحج بالبذل والإيثار والإنفاق وتنزيه الله بإخلاص النية، وهذا من أفضل ثمرات الحج على النفس.

إن فريضة الحج تلعب دورا عظيما فى التوازن والاعتدال والقسط والقصد والقوامة، وأنه لو تمسك الحاج بأوامر الله لتغيرت نفسه، وولد ولادة جديدة، وتخلص تماما من أمراضه وأسقامه ونقائصه وآفاته.

(١) د. محمد عثمان نجاتى: القرآن وعلم النفس ص٢٦٧.
(٢) د. حسن الشرقاوى: الطب النبوى ص١٤٥ وما بعدها.

(د) الزكاة:

وفريضة الزكاة التى تفرض على المسلم إخراج نصيب معلوم من ماله كل عام لإنفاقه على الفقراء إنما هى تدريب للمسلم على العطف على المحتاجين من الناس، ومد يد العون إليهم ومساعدتهم على سد حاجتهم الضرورية، إنها تقوى فى المسلم الشعور بالمشاركة الوجدانية مع الفقراء والمساكين، وتبث فيه الشعور بالمسئولية نحوهم، وتدفعه إلى العمل على إسعادهم والترفيه عنهم، إنها تعلم المسلم حب الآخرين، وتخلصه من الأنانية وحب الذات والبخل والطمع، وقد قال القرآن عن الصدقة سواء كانت زكاة مفروضة أو تطوعا إنها تطهر النفس وتزكيها:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ... (١٠٣) ﴾

[التوبة: ١٠٣].

فالزكاة تطهر النفس من دنس البخل والطمع والأثرة وحب الذات والقسوة على الفقراء[1].

للزكاة فضائل أخلاقية عظيمة إذ إنها تعبير صادق عن التقوى والبر والإحسان، ودليل على الأمر بالمعروف، وعمل بما نص عليه الشارع فهى طاعة لله وإخلاص له تعالى. والنفس الإنسانية إذا نظرت إلى الله وهى تؤدى الحقوق، وأيقنت أن ما أنعم الله عليها به هو من حسن التوفيق لها، وآمنت بفضل من تعطيه من مال من الفقراء، فلا تنقص من قدرتهم ولا تزدريهم ولا تستعلى عليهم.

فإذا علمت أيها الإنسان بذلك وأيقنت به، قلبا وقالبا، وسلمت أن الفقير الذى تعطيه خير منك، لأنه عندما يأخذ منك إنما يطهر قلبك ونفسك جميعا من البخل والشح، وأن الله سخره ليكون عونا لك على الخير، وأن زكاتك ترفعك لسبب عطائك للفقير درجات ودرجات فى المقام والحياة.

(١) د. محمد عثمان نجاتى: المرجع السابق، ص٢٦٦.

وأفضل الزكاة ما كانت سرا فلا يطلع عليها غير الله ولا يرجو صاحبها فى إعطائها إلا وجهه الكريم. وأزكاها التى تخلو من المن والأذى: فعلامة فساد الصحة النفسية المن والأذى، وبذلك تشعر النفس بالعجب والخيلاء، ويتملكها الغرور والاعتزاز وتفقد الاعتدال والقوامة والاستقامة والقصد فى العمل، ويرى بعض العلماء المسلمين أن إخفاء الصدقة كنز من كنوز البر، إذ إن إخفاءها يخلص الإنسان من كثير من الآفات النفسية مثل التكبر والتجبر والاستعلاء والشعور بالعظمة والاغترار والمن والأذى.

إن الزكاة تطرد الرياء من النفس إذا كانت تؤدى خالصة لله، أما إذا كان الإنسان مجاهرا بها مشهرا لها، حريصا على سماع الناس بها، فكأنه يشرك غير الله فيما زكى به من أفعال الخير وأعمال البر، فتنقطع عن النفس الغاية العظيمة من الزكاة، وهو إنفاقها فى التقرب إلى الله، وفى مرضاته، وكأنه يستهدف من ذلك اطلاع الغير على جوده وإحسانه وسخائه، ولا يكتفى أن يكون الله هو المطلع وحده، وهذا إبطال لعمله ودليل على ريائه.

لكن إذا كان المزكى يقصد من إفشاء صدقته أن يحمس إخوانه لتقديم العون والمساعدة للمحتاجين، فلا بأس بذلك ما دام قاصدا وجه الله.

إن الزكاة بعامة والصدقة بخاصة وسيلة هامة فى التربية النفسية الإسلامية، إذ تعين النفس على التواضع والإيثار والمحبة، كما تعودها على البذل والعطاء والسخاء والجود.

وبهذه الوسيلة الناجحة التى تعد من الطب النفسى الوقائى من ناحية، ومن الطب النفسى العلاجى من ناحية أخرى، تستطيع النفس الإنسانية أن تسكن فى ذاتها حدة الشهوة وتطفئ الأهواء من حب فى المال ومن رغبة فى المديح والثناء وطلب للمفاخر والأمجاد.

ومن حيث أن الزكاة هى طب علاجى فإنها تساعد على التخلص من آفاتها ونقائصها وأمراضها الباطنية كالكبر والتعالى والاستهزاء والاحتقار والازدراء والاستعلاء والاغترار والعجب والجشع والحرص والطمع والشر وغير ذلك من الآفات.

• الصدق:

الصدق هو الإخبار عن الشيء بما هو عليه، والتخلق به مستحسن فى جميع الناس فهو مطابقة القول للضمير. . فإذا ما انعدم فى شخص ذلك فإنه لا يكون صادقا.

والصدق على الحقيقة هو الفضيلة الأساسية للحياة الإنسانية، فلولاه ما قامت شريعة ولا عرف طريق الحق والرشاد، ولا كتب علم، لأنه لا يمكننا أن نتصور مجتمعا قائما على الكذب، وتستمر له حياة حقيقية، ولذلك وجد الأنبياء والحكماء، وكان خلق الرسول ﷺ الصدق وكان الصحابة يؤثرون الصدق، مهما كان وراءه من الآلام والعنت والصعاب، لأن الكذب لا يدعم الإنسان، ولا ينشئ الأخلاق ولا الأمم ولا المجتمعات.

والصوفية يرون أن الصادق هو من اعتاد الصدق فإذا وصل إلى العادة أصبح صدوقا، وهنا يصبح الصدق من أخلاقه فى الدنيا والآخرة، فيمن الله سبحانه وتعالى عليه بمرتبة هى أعلى المراتب والمقامات الروحية وهى مرتبة الصديقين.

ومن علامات الصدق الطمأنينة الكاملة والرضا، وإسقاط التدبير مع الله.

ولا صدق إلا عن طريق الحق، لأن العدل والحق صدق أو من الصدق، والعارف هو الذى يتجه نحو الصدق، ويمتاز عارف عن عارف بدرجة صدقه، لا بدرجة ما يحصل عليه من العلوم.

فالصدق قوة للعارف فى سيره إلى غايته، ولذلك كانت التقوى درجات والإيمان مراتب، حسب درجات الصدق فى التقوى والإيمان.

وأول درجات الصدق، درجة المتقين، وهم أصحاب الإرادات القوية الذين يتبعون تعاليم الشريعة الإسلامية من أمر بمعروف، ونهى عن منكر، أو أنهم أصحاب الحلال والحرام، والإخلاص فى السير والسلوك، أولى العزيمة والإرادة[1].

(١) عبد المجيد الحسيني: المعرفة عند عبد الحكيم الترمذي: ص٣١٠ ـ ٣١٤.

وإذا صدق هؤلاء النفر من الناس بدءوا طريقهم فى المرحلة التالية، فدخلوا فى رحاب المعرفة، وأصبحوا من الصادقين.

وتلك مرتبة أخرى من مراتب الصدق، وهى تالية لدرجة المتقين، والصادقين يدفعهم صدقهم لمواصلة السير فى طريق الله، وهنا يدركون المرتبة الثالثة، وتلك هى مرتبة الصديقين أصحاب الحكمة العليا أو الولاية العظمى من العلماء والحكماء.

فالمراتب فى الصدق إذن هى: مرتبة المتقين والصادقين والصديقين[1].

ويرى الحكيم الترمذى أن الصدق يتعلق بناحيتين إحداهما عقلية وأخلاقية وبهذا يدخل الصدق فى شعبة العدل الذى هو من شعب المعرفة، ومن ناحية أخرى يتعلق الصدق بالناحية الاجتماعية فيضم بين جنباته أيضا جانبا كبيرا من شعبة الحق.

وبهذا المعنى يكون الصدق عند الحكيم الترمذى الصورة المتطورة للمعرفة والتى تبدأ من الحق ثم تندرج إلى أن تصل إلى الصدق نفسه بعناصره ومقوماته، ويحدد الحكيم مقومات الصدق فى ثلاثة: المثل العليا، وعلم الأسرار، والبصيرة.

ولقد وردت فى القرآن الكريم آيات كثيرة عن الصدق والصادقين والصديقين منها قوله تعالى:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (41) ﴾

[مريم: ٤١].

وقوله تعالى:

﴿ ... فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ... (69) ﴾

[النساء: ٦٩].

(١) د. حسن الشرقاوى: الشريعة والحقيقة، ص٢٤٠.

وقوله تعالى:

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠) ﴾

[الإسراء: ٨٠].

وقوله تعالى:

﴿ ...وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ... (٢) ﴾

[يونس: ٢].

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥) ﴾

[القمر: ٥٤، ٥٥].

وقوله تعالى:

﴿ ...وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) ﴾

[مريم: ٥٠].

وقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾

[التوبة: ١١٩].

وقوله تعالى:

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ﴾

[النساء: ٦٩].

وقوله تعالى:

﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ

والْيَوْمِ الآخِرِ والْمَلائِكَةِ والْكِتَابِ والنَّبِيِّينَ وآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ والْيَتَامَىٰ والْمَسَاكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ والسَّائِلِينَ وفِي الرِّقَابِ وأَقَامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكَاةَ والْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا والصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) ﴾

[البقرة: ١٧٧].

وقوله تعالى:

﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ويُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ... (٢٤) ﴾

[الأحزاب: ٢٤].

وقوله تعالى:

﴿ ...هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ورَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) ﴾

[المائدة: ١١٩].

وقوله تعالى:

﴿ والَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ويَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٥) ﴾

[الزمر: ٣٣ ـ ٣٥].

• الإخلاص:

الفرق بين الرياء والإخلاص، هو أن المرائى يعمل ليرى، وأما المخلص فإنه يعمل ليصل. والمرائى ظاهره الإخلاص وباطنه عدم الإخلاص، وهو الذى يشتغل بالدنيا ويهتم بها ويوافق هوى نفسه، ويسعى لاختيار حظوظها على حقوقها، فهو غافل، ويميل إلى الهوى والشهوات.

ولذلك يقول الله تعالى فى كتابه العزيز:

﴿ ...ولا تُطعْ مَنْ أغفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ... (٢٨) ﴾

[الكهف: ٢٨].

﴿ زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾

[آل عمران: ١٤].

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٣) ﴾

[الجاثية: ٢٣].

أما الإخلاص لله سبحانه وتعالى - فهو اجتناب الدعاوى والتزام الأوامر وهو الطريق الموصل إلى معرفة الله على الحقيقة، فإذا ما اتبعه الإنسان أراحه الله من الدعاوى الكاذبة[1].

فالإخلاص سكون التقوى فى قلب العبد، فإذا سكنت التقوى فى قلبه نزلت عليه بركات العلم وطردت شهوات الدنيا عنه.

والإخلاص زهد فى الرياسة[2] والجاه وحب المال.. ثم إنه الإقبال على كل خلق شريف والعدول عن كل خلق دنىء.. العبد المخلص لله تعالى يصبح حرا بعد أن كان عبدا، فهو توكل وإسقاط للتدبير مع الله سبحانه وتعالى، بل استقامة وسير فى طريق الله، فيستوى فى قلبه المخلص وجود الشىء من عدمه.

فالإخلاص إذن ضد الرياء ونقيضه، والإخلاص مرتبط بالنية، فإذا تظاهر

---

(١) الإمام الجيلانى: الفتح الربانى والفيض الرحمانى ص٣١، وكذلك فتوح الغيب ص٧٤ - ٧٨.

(٢) الإمام عبد الرحمن السلمى: طبقات الصوفية، ص١٠٦ - ١١٠.

الإنسان بالعمل الصالح وهو يحمل قلبا أظلمه الحقد والغضب والكراهية، فإن قلبه منزوع منه اليقين لأن العبرة فى الإخلاص بالرضا والقناعة والصدق والنية.

فلا إخلاص بلا نية، ولا نية بلا إخلاص، فبمقدار الإخلاص فى النية يكون الثواب، ويكون الحق، ويكون الجزاء[1] فالذين يتظاهرون بالأعمال الصالحة بلا إخلاص، إنما لا يؤدون للشريعة حقها، فهم يبنون للخراب، ويعمرون للموت، وكله عمل صالح لا يشفى ولا يغنى من جوع، إذ لابد فى كل عمل يؤديه الإنسان، بل وفى كل أمر يتركه الإنسان من النية والإخلاص معا، وذلك لكى يترتب عليه الثواب، والثمرات، والأجر من الله على هذا العمل.

ويقول الرسول ﷺ فى معنى الإخلاص والنية: «إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى.. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو لامرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[2].

والإخلاص إذن مرتبط بالصدق والعزم والإرادة والمشيئة، والقصد والنية وكلها بمعنى الإخلاص فى الظاهر والباطن.

فالإخلاص بهذا المعنى هو نور استودعه الله قلب عبده المؤمن فقطعه به عن غيره، ذلك هو الإخلاص القائم بين العبد وربه، فلا يطلع عليه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيسلبه.

وكما أن الإيمان درجات والتقوى درجات، فكذلك الإخلاص درجات، يمكن أن تتحدد فى درجتين:.

الأولى: إخلاص لطلب الأجر والثواب، ويزكى المؤمن نفسه، ويتعبد ويؤدى ما أمره الله به حسب قوله تعالى:

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③ ﴾

[النمل: ٣].

(١) فتوح الغيب: ص٩٢ هامش بهجة الأسرار.

(٢) هذا الحديث متفق عليه ـ عن الفاروق عمر رضى الله عنه.

وهذا الإخلاص إنما هو إخلاص الصادقين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه لهم منزلة طيبة عند الله وبقدر هذا الإخلاص فى النية، يكون الثواب ويكون الجزاء[1].

الثانية هناك درجة عالية فى الإخلاص - وهى إخلاص الصديقين الذين يسلكون - على طريق الإخلاص - الشريعة إلى منازل القرب، فهم عباد جبلهم الله تعالى على حسن العبودية ومنحهم أسرار حضرته[2].

فالإخلاص إذن ظاهر وباطن، فإذا كان الظاهر كالباطن، اكتمل معنى الإخلاص، وانتفى معنى الرياء وانكشفت للإنسان حقائق، وفى هذا المعنى يتمثل حجة الإسلام الغزالى فى الإحياء بأمر الرسول ﷺ بوجوب الطهارة عند النوم وذلك لينام الإنسان طاهرا إذ أنه فى النوم يبقى الباطن، وتنقطع العلاقة بالظاهر.

وهذا معناه أن الرسول ﷺ يشير إلى طهارة الباطن من الآفات والعيوب وبذلك يتم فى الإنسان معنى الإخلاص فى الظاهر والباطن والاستعداد لما قد يتجلى على قلبه من رؤى وإلهامات وأسرار وفيوضات وفتوحات وكل ذلك من علم الله[3].

أما عدم الإخلاص فيأتى نتيجة لظلمة القلب، وبه تفسد الرؤيا، لذلك فإن الإخلاص هو دليل العمل والعبادة لأنه بالإخلاص يستحضر المؤمن الله تعالى فى ركوعه وسجوده، وبالإخلاص يستحضر الله تعالى فى التسبيح والتقديس والتوحيد والحمد والشكر، فإذا قال العبد أشهد أن لا إله إلا الله فهو إخلاص له تعالى، لأنه لا يرى شيئا فى السموات ولا فى الأرض إلا ذاته النورانية، فيكون الله تعالى دائما معه يعينه وينصره على قدر إخلاصه فى عبادته[4].

---

(١) الإمام السلمى - طبقات الصوفية، ص١٠٦ - ١١٠.
(٢) د. عبد الفتاح بركة - الحكيم الترمذى، ج١ ص١٤٢ مجمع البحوث الإسلامية.
(٣) الإمام الجيلانى: الفتح الربانى ص٣١.
(٤) الإمام الجيلانى: فتوح الغيب - هامش بهجة الأسرار، ص٧٤ - ٧٨.

لابد للعبد المحق فى إيمانه، والطالب لسلوك سبيل النجاة من معرفة ثلاثة أصول يعمل بها[1]، فبذلك يقوى إيمانه، وتقوم حقائقه فتصفو عند ذلك الأعمال وتخلص إن شاء الله:

• فأولها: الإخلاص:

يقول الله عز وجل:

﴿ ...فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ... (٣) ﴾

[الزمر: ٢، ٣].

• ثم: الصدق:

لقول الله عز وجل:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾

[التوبة: ١١٩].

• ثم: الصبر:

لقول الله عز وجل:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ...(٢٠٠) ﴾

[آل عمران: ٢٠٠].

وقال تعالى:

﴿ ...وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾

[النحل: ١٢٦].

وهذه ثلاثة[2] أقسام لمعانٍ مختلفة، وهى داخلة فى جميع الأعمال ولا تتم الأعمال إلا بها فإذا فارقت الأعمال فسدت ولا تتم.

---

(١) الشيخ عبد الحليم محمود: الطريق إلى الله، ص١٧.

(٢) الإخلاص، والصدق، والصبر.

ولا يتم بعض هذه الأصول الثلاثة إلا ببعض، فمتى فقد إحداها تعطلت الأخرى.

فالإخلاص لا يتم إلا بالصدق فيه، والصبر عليه.

والصبر لا يتم إلا بالصدق فيه، والإخلاص فيه.

والصدق لا يتم إلا بالصبر عليه، والإخلاص فيه.

• طاعة الله:

يقال فى اللغة، شخص طائع، ومطيع، والطوع ضد الكره، أى الاستجابة والانقياد، وكلها بمعنى لان وانقاد.

فإذا مضى الشخص مؤتمرًا بأمر آخر، فقد طاوعه، وإذا وافقه فقد أطاعه وقد ورد هذا المعنى فى قوله تعالى:

﴿ ...وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ... (٨٣) ﴾

[آل عمران: ٨٣].

وقوله تعالى:

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ... (٨١) ﴾

[النساء: ٨١].

كما ورد هذا المعنى فى قوله تعالى:

﴿ ...سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ... (٢٨٥) ﴾

[البقرة: ٢٨٥].

وكل هذه الآيات الكريمة تدل على معنى الطاعة الذى يخالف طبع النفس التى جبلت على عمل المخالفات، وحب المعاصى والانقياد إلى حظوظها وشهواتها، والنزوع إلى اللذة وكراهية الصبر على الألم.

والطاعة لله.. من الصعب جدا بل من العسير الحكم على صاحبها لأن هذه

الطاعة باطنة خفية[1]، إذ يظن بعض الناس أن الطاعة لله هى ورع وخشوع وتقوى ظاهرة فيتقربون إلى الله بالصوم والصلاة والتزهد فى الحياة الدنيا، ولكنهم فى الحقيقة يخفون فى قلوبهم المريضة نفوسا أمارة، قلوبا جاحدة، وظلمة وحقدا، واعتراضا على خلق الله، وميلا إلى العدوان.

وليس من اليسير أن تنكشف سريرة هذا الشخص، ويتضح أمره إذ إنه يتستر بالطاعة بغية تحقيق شهوات نفسه المريضة، ويستظهر تقوى كاذبة لله أمام الناس[2]، أما قلبه المظلم، فمنشغل بغير الله، وهو يقوم فى ظاهره بالطاعات وأداء التكاليف وأعمال البر، إلا أنه يقصد بذلك اهتمام الناس به، وإقبالهم عليه وثناءهم على ورعه وتقواه.

وإذا أردنا أن نمتحن إيمان ذلك الشخص، فإننا نجده يتبرم إذا لم يثن الناس على أفعاله، ويحزن إذا لم يمتدح الناس تقواه وورعه وخشوعه، بل إنه يهاجم من يقصر فى احترامه، ويعتدى على من يتراخى فى تبجيله، ويتوعد من لم يسرع إلى خدمته والعمل على راحته، فهو يعتبر نفسه مستحقا لثناء الناس ومدحهم، وهو فى واقع الأمر مريض النفس، ليس تقيا، ولا طائعا، ولا مخلصا، إنما هو مصاب بداء عضال يصعب تقويمه وعلاجه، لأن مرضه خفى مستور، يستعصى على غير العارف معرفته، لأنه يحتاج إلى فراسة وبصيرة، بل ومعرفة بخفايا النفس وخواطرها، إذ إن هذا الشخص.. يتخفى تحت ستار الطاعة، وهو عاص مشغول بهوى نفسه، ولذاته وشهواته النفسية.

ويرى الشيخ ابن عطاء الله السكندرى[3] أن المراد فى طاعة على القلب ويقول فى ذلك:

«اعلم أنه إذا ثقلت عليك الطاعة والعبادة، ولم تجد حلاوتها فى قلبك

(١) عبد المجيد الشرنوبى: شرح تائية السلوك، ص٧١.

(٢) التنوير فى إسقاط التدبير، ص٤ ـ ١٧.

(٣) التنوير فى إسقاط التدبير.

وسهلت عليك بالمعصية، ووجدت حلاوتها فى قلبك، فمعنى ذلك أنك لم تصدق فى توبتك، لأنه لو صح الأصل.. صح الفرع».

فالطاعة الحقة هى القائمة على الانشغال بالله، والعمل على إرضائه، وإسقاط التدبير معه تعالى، فلا إرادة للعبد مع الرب، وهنا يحظى بقربته، ويلهم من لدنه علما، ويفيض عليه بنعمه وعطاياه، فضلا ومنة.

• الصفح الجميل:

يعتبر الصفح - العفو من أقرب الطرق والسلوكيات التى يسلكها الإنسان فى طريقه إلى الله.

يرى أصحاب علم النفس الحديث أن القانون الذى يسود دنيا النفس هو بعينه شريعة الغاب، وهذا القانون ينص على قاعدة عامة شاملة للناس جميعا تقول:

«كل أو فأنت مأكول»[1].

ويستخلصون من ذلك القانون نتائج ومعلومات لما يصادفهم من حالات مرضية، فيقولون إن الإنسان الطيب يدفع ضريبة طيبته وتفاديه للشرور والآثام وهى ضريبة يرونها فادحة يدفعها من لحمه ودمه.

لذلك فإن علماء النفس يرون أن من شروط الصحة النفسية السليمة ألا يكون الإنسان طيبا، مسرفا فى الطيبة حتى يكون سويا صحيحا ومعافيا، فليس الخلق الرفيع دليلا على الصحة النفسية[2]، ذلك إن لم يستطع الإنسان تصريف العدوان فى العالم الخارجى أو فى الغير بأى صورة من الصور، فإن هذا العدوان يرتد على صاحبه ويكون سببا لكراهية الذات أو صورة بلادة وخمول واستسلام أو يقضى بصاحبه إلى الانتحار أو التورط فى مرض نفسى أو جسمى[3].

(١) د. أحمد عزت راجح: الأمراض النفسية والعقلية، ص١٤٧.

(٢) المرجع السابق.

(٣) د. صبرى جرجس: التراث اليهودى الصهيونى، ص٢٤٣ - ٢٤٦.

ونحن نرى أن هذه النظرة إلى النفس الإنسانية نظرة قاصرة. . فإذا صدقت على كثير من المرضى كذبت على الأصحاء، وإذا كانت الأثرة والعدوان والكراهية طبيعة الإنسان المعاصر الملحد، فإن الإيثار والتسامح والمحبة طبيعة الإنسان المؤمن ونحن نختلف مع هذه النظرة الضيقة فى تفسير دنيا النفس، فالطيبة ليست دليلا على المرض النفسى، بل على العكس من ذلك تدل على الصحة النفسية بل والكمال الأخلاقى ودليلنا فى ذلك ما ورد عن الله فى كتابه العزيز من آيات بينات تشجب هذه النظرة السطحية بقوله تعالى:

﴿ ...هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ... (٣٨) ﴾

[آل عمران: ٣٨].

وذلك يدل على أن هناك أناسا طيبين وأناسا مجرمين، وذرية صالحة وذرية طالحة تأييدا لقوله تعالى:

﴿ ...حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ... (١٧٩) ﴾

[آل عمران: ١٧٩].

لذلك فإن القاعدة الإسلامية أكثر عمقا وشمولية عندما تحدد صنفين من الناس، ويعرفنا القرآن الكريم فيما يتعلق بالزواج بأن الطيبين من الناس للطيبات، وكذلك فإن الخبيثين للخبيثات.

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ... (٢٦) ﴾

[النور: ٢٦].

فالطيب هو المسلم الذى يسلم الناس من يده ولسانه غير المجرم المعتدى الأثم تصديقا لقوله تعالى:

﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) ﴾

[القلم: ٣٥].

والطيبة ليست دليلا على كبت العدوان، وإنما هى موقف علم واختيار تصدر عن طبيعة مسالمة وقلب سليم، واعية بما تفعل، يسترشد بقوله تعالى:

﴿ ... وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) ﴾

[الفرقان: ٦٣].

وعلم النفس الإسلامى يؤسس العلاقات بين الأفراد على أساس الخير، وينبذ الشر بكل صوره، فيدعو إلى المحبة والألفة والتعاون والأخوة والصفح والتسامح والعفو والإصلاح والأخوة وعدم الاعتداء، والآيات القرآنية والأحاديث النبوية عديدة هادفة لتنظيم العلاقات الإنسانية، ولا يحض الله تعالى على العدوان والاعتداء بل على التسامح والسلام.

فليس إذن المرض النفسى[1] نتيجة لكبت العدوان، بل على العكس من ذلك فإن الاعتداء رذيلة وظلمة تسبب المرض النفسى، ويجعل قلب الإنسان جحيما لا يطاق، فالمعتدى آثم ظالم لنفسه ولغيره ومغرور، ولذلك ينصح الله الناس فى قوله تعالى:

﴿ ... وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) ﴾

[البقرة: ١٩٠].

ويقول الرسول ﷺ:

«المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذى لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم»[2].

والأمن، والأمل، إنما يملأ قلب الصابر على الأذى، الكاظم الغيظ الذى يدفع السيئة بالحسنة تأييدا لقوله ﷺ:

(١) د. حسن الشرقاوى: نحو علم نفس إسلامى: ص١٤٣.

(٢) ذكره أحمد فى مسنده والبخارى فى الأدب والترمذى لابن ماجه والسيوطى فى الجامع الصغير.

«من كظم غيظه وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا»[1].

ليس قلب المؤمن غابة تسكنها وحوش كاسرة - كما يدعى (فرويد) وتلامذته، إنما قلب المؤمن عامر بالمحبة، مفعم بالخير، لا ينطبق عليه شعار «كل أو فأنت مأكول».

يقول الرسول ﷺ:

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[2].

وإن هذا الحب ليظهر فى سلوك المؤمن فى جميع أفعاله وأعماله، ويعتبر سمة ملازمة لشخصيته، فلا يتأثر بضروب الأذى والعدوان، بل يحيلها جميعا إلى عفو وتسامح وإحسان، فيرتفع عن الانتقام بكظم الغيظ والصبر على الاعتداء، ثم يرقى إلى مقام العفو عن الإساءة، فيصبح قلبه نورا بلا ظلمة، وسكينة بلا قلق وزمت، حتى إنه فى آخر الأمر يحسن بدلا من الاعتداء، ويعطى بدلاً من الاستئثار والاستحواذ، وتصديقا لقوله تعالى:

﴿ ... وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾

[آل عمران: ١٣٤].

هذا هو السلوك السوى للكمال الإنسانى فى أروع صوره، وأجمل حالاته ممثلا فى قوله تعالى:

﴿ ... فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) ﴾

[الحجر: ٨٥].

﴿ ... فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا ... (١٠٩) ﴾

[البقرة: ١٠٩].

(١) ذكره أحمد فى مسنده والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه والسيوطى فى الجامع الصغير.

(٢) ذكره ابن أبى الدنيا فى ذم الغضب عن أبى هريرة والسيوطى فى الجامع الصغير.

﴿ ...وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ... (٢٣٧) ﴾

[البقرة: ٢٣٧].

هذه هى التربية الحقة للنفس، والتى تستهدف الصحة النفسية، ليصبح الإنسان أليفا آلفا، طاهرا متطهرا، ولا يحمل بغضا لأحد ولا ينافق ولا يرائى أحدا وإنما ظاهره كباطنه، وقلبه يشع نورا ومحبة.

فالتسامح والغفران والتوبة قوام الحياة الإنسانية السليمة، يقول الرسول ﷺ:

«من لا يرحم لا يرحم، ومن لا يغفر لا يغفر له، ومن لا يتب لا يتاب عليه».

فالإنسان جواد.. سخى.. صديق.. صدوق يسارع إلى الخيرات ويزكى نفسه ويطهرها بصالحات الأعمال، لكن نظرة علماء النفس الحديث للإنسان الطيب سطحية جدا يعوزها الفهم الرشيد لنفسية الرجل المؤمن.

وسلاح المؤمن الذى يتقوى به فى رحلة الحياة الشاقة هى حب الله تعالى، فنجده راضيا أبدا، ذاكرا لله فى السر والعلانية، مطمئنا إلى طريقه، فلا نزعات لا شعورية عدوانية ولا مكبوتات أو دوافع غامضة، ولا تصرفات انحرافية قسرية، ولا أفعال تحويلية تدميرية إلى الذات، أو ما يسميه علماء النفس العدوان المرتد أو العدوان على الذات، إذا فشل العدوان على الغير أو إلى الموضوعات الخارجية.

﴿ ...فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ ... (١٤٦) ﴾

[آل عمران: ١٤٦].

إن علم النفس الإسلامى المستمد مادته الأصيلة من القرآن الكريم النبع الفياض الإسلامى يستهدف العمل الطيب، والكلمة الطيبة، التى يجدها أجدى فى علاج النفوس المريضة من العدوان. فالصفح الجميل علاج نفسى يحيل البغض والكراهية حبا، والبعد والنفور قربا.

﴿ ... وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ... (٨٣) ﴾

[البقرة: ٨٣].

والخطاب هنا لجميع الناس، كل الناس مسلمهم وكافرهم.. طائعهم وعاصيهم.. فالصفح والعفو، والكلمة الطيبة أبواب الحب والرحمة والنورانية والشفافية والصفاء.

﴿ ... وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ... (٢٢) ﴾

[النور: ٢٢].

وإن معالجة العدوان بالصفح الجميل والرد على الإفراط والتفريط بالاعتدال والاستقامة، هى الطريق على تبدل الخوف بالأمن، والشك بالإيمان، والحقد والحسد بالألفة والمودة، والبغض بالمحبة.

• الإحسان:

أجمل الفضائل الإحسان، فهو فضيلة كبرى وسلوك إنسانى عظيم يسلكه العبد المؤمن فى طريقه إلى الله، يتأكد به معنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأنه من نقاء النفس وإخلاصها فى العمل والعبادة.

وفى ذلك يقول الله تعالى:

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ... (٧) ﴾

[الإسراء: ٧].

والإحسان فى الظاهر يبدو فى الأعمال والأفعال فإذا أتقن الإنسان عمله، وما كلف بأمانة من حقوق وواجبات، وإذا قام بأفعال البر، وأحسن إلى الغير، وعمل عملا خيرا فإنه ينسب إليه هذا الفعل ويلقى من الله أفضل الجزاء لأنه إحسان وهذا يتأكد من الآية الكريمة:

﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ (٦٠) ﴾

[الرحمن: ٦٠].

والإحسان فوق العدل، لأن العدل إنصاف وقسمة وقسط، والإحسان إيثار وتضحية، وعطاء وبذل للغير عن طواعية ورضا، لأن المحسن لا يطالب بثواب يستحقه فى الدنيا، وإنما يتركه اختيارًا لله تعالى الذى عنده الجزاء الأوفى على إحسانه..

وفى هذا يقول تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ... ﴿٩٠﴾ ﴾

[النحل: ٩٠].

ومفهوم الإحسان فى الشريعة الإسلامية، أن لا يعطى الإنسان وهو كاره أو مجبر، ولا وهو متعجب أو راض عن نفسه، لأن ذلك إحسان ظاهرى، يخالف ما يجب أن يغلب على الباطن، إذن فهو تظاهر بالإحسان، إما استعراضا أو استعلاء على الآخرين، أو إحساسا بالعظمة والغرور وهذا بطبيعة الحال يناقض معنى الإحسان نوع من عبادة المؤمن وفى حديث الرسول ﷺ:

«واعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

وفى الحديث اشتمال على جميع وظائف العبادة الظاهرة والباطنة، من عقود الإيمان، وأعمال الجوارح، وإخلاص السرائر، والتحفظ عن موافقة هوى النفس حتى إن كثيرا من علوم الشريعة راجعة إليه، ومتشبعة عنه[2].

فبالإحسان يشعر المؤمن شعورا ملازما، إن الذى يعطى هو الله تعالى وحده، وإن المال والصحة والجاه وكل ما فى الدنيا، إنما هو منه وإليه فلا يحس المؤمن فى الإحسان بذاته إلا كوسيلة استخارها الله تعالى لفعل الخير وعمل المعروف.

فالإحسان بهذا المعنى إمداد واستمداد من الله إلى عبده، وليس وقفًا من

---

(١) عن أبى نعيم فى الحيلة، عن فريد أرقم وذكره السيوطى فى الجامع الصغير.

(٢) الشيخ السراج الطوسى اللمع، ص٤٤.

العبد على غيره، لأن فى الوقف اعتراض ومشاركة للربوبية، وهو نوع من الشرك الخفى، فالله تعالى هو مصدر الخير، والمحبة، والجود، والسخاء، وأى إحساس بخلاف ذلك يخل بمعنى الإحسان على الإطلاق

الإحسان الظاهرى أن تعطى، ولكن الإحسان الباطنى أن تعرف أن ما تعطيه هو من الله ولله.. فلا تشعر لنفسك فضلا وأنت تعطى وأن تؤمن بأن الله هو المعطى على الحقيقة.. الموكل لك فى العطاء، سواء كان ما تجود به علما أو مالا أو برا فى العقيدة أو العمل أو الخير وبهذا يكون الإحسان إيمانا يرفع النفس الإنسانية درجات فى التكامل والسمو والرفعة[1]

إن حكم الظاهر غير حكم الباطن، وحكم العقل غير حكم القلب، فإذا طبقنا قواعد العدل النظرى الظاهرى نجد أن القصاص واجب، والعقوبة لازمة عند التقصير، ولكن انطلاقا من قاعدة الإحسان التى تسمو فوق قواعد العدل النظرى التى تستمد سلطاتها من العقل، نجد أن الإحسان يسير قواعده سيرا بعيدا عن أحكام القصاص.. فنختار الرحمة والإيثار متشبهة بعدل الله، وطريق الله ومطبقة معنى الإحسان ليس عن ضعف أو خوف.. وإنما عن قدرة وورع وتقوى ورجاء فى الله..

وليس الإحسان عدلا ظاهرا تؤيده الفطرة السليمة فحسب، وإنما الإحسان قوة أعظم لا يقدر على سلوكها إلا الأولياء الصالحون من أصحاب البصائر المشرقة والمعرفة النافذة.. أهل السكينة والأمن والطمأنينة وهذه القوة من الله منة وفضلا.

والحاكم المحسن لا يوقف أحكام الشريعة الظاهرة، ولا يتجاهل حدودها إنما المحسن ينتقل من قاعدة إلى قاعدة أشمل، فالقصاص قاعدة إسلامية ولكن العفو قاعدة إسلامية أكثر خيرا وصلاحية وذلك وارد فى قوله تعالى:

﴿ ...وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ... (٢٣٧) ﴾

[البقرة: ٢٣٧].

(١) د. حسن الشرقاوى: الشريعة والحقيقة، ص٢٦.

العفو يرتفع عن القاعدة العامة الجامدة الآمرة، إلى قواعد أكثر رحابة وأعمق أثرا، وأسلم غاية وهدفا. . العفو ينطلق من العدل النظرى إلى الإحسان العملى، ومن القانون الشكلى إلى الرحمة الحقيقية، ومن العقل الخالص إلى القلب النورانى.

وليس هناك اختلاف بين الطريقين إلا من حيث الدرجة، إذ يستهدف القصاص والعفو فى نهاية الأمر والعدل والحق فى الطريق إلى التشبه بالحق تعالى. الغاية إذن واحدة فالأمر بالمعروف إحسان، والنهى عن المنكر إحسان، وتحقيق النظام والأمن والعدل فى المجتمع إحسان.

إذن بين العقل والقلب طريقان، العقل يود تطبيق قواعده الظاهر من الأفعال. . الواضح من الأعمال، أما القلب يستهدف القصد والنية والباعث. . ثم إنه يرى الخير غاية، والمحبة هدفا، والتسامح سلوكا فيصدر أحكاما رحيمة كرحمة الله فيها حلاوة الإيمان.

هذه هى الشريعة الإسلامية بثرائها الذى لا يحصى، وعمقها الذى لا حدود له وجذورها الممتدة إلى الفطرة الأولى والنامية مع حياة الإنسان فى كل زمان ومكان فى سلم يرتقى فيه حتى تكون شريعته حقيقته، وحقيقته شريعته ليتحقق معنى الإحسان. .

إن معنى الإحسان نجده أيضا فى قصة يوسف عليه السلام ـ فالعدل الظاهرى يقتضى القصاص من إخوته الذين رموا به إلى الجب قاصدين قتله واستمروا فى كراهيتهم له، ولكن يوسف ـ عليه السلام ـ صفح عنهم الصفح الجميل وطلب المغفرة لهم فكان التسامح حكما بديلا عن العدوان وهو أجمل وأعظم وأكرم. . إذ إن النفس المتسامحة قادرة على توقيع الجزاء وأحكام القصاص العادل لكنها تنشد الخير، فهى نفس محسنة، والإحسان درجة عليا أفضل من شريعة العدل الظاهرى.

ولولا ذلك لفعل يوسف عليه السلام بإخوته ما فعلوه به، ولكنه كان خيرا بطبعه، محسنا بفطرته، رحيما بقلبه، عارفا بطريق الله، فاختار ما هو أبقى على

ما هو أدنى.. اختار حب الله ونعم الله وعلم الله.. وتدبير الله.. وهذا أيضا ما فعله الرسول ﷺ مع قريش عند فتح مكة وكانت من أشد القبائل عداوة للمسلمين فقال لهم:

ماذا تظنون إنى فاعل بكم؟

فقالوا:

خيرا.. أخ كريم وابن أخ كريم.

فقال ﷺ:

اذهبوا فأنتم الطلقاء[1]

من فضل الله الكبير ومنته العظيمة على الإنسان أن يرشده إلى طريق الإحسان.. فيلهمه بمعنى الإحسان الحقيقى.. ويذيقه حلاوة هذا الطريق فيجد نفسه سائرا فى طريق كله منن وعطايا وهبات فيتجلى له حب الله وحنانه ورضاه عليه فيثبت فؤاده ويقوى إيمانه فيحسن سلوكه وبذلك يكسب ثواب الله ورضاه ويفوز الفوز العظيم، وهذا فى حد ذاته نعمة كبرى أنعمها الله على هذا العبد لأنه:

١ـ أرشده إلى طريق الخير والإحسان.

٢ـ ألهمه بما يجب أن يسلكه فى هذا الطريق.

٣ ـ جزاه على عمله وأثابه على إحسانه.

وفى الحقيقة.. أولا وأخيرا أن المتفضل هو الله، والمنعم هو الله، والله وحده الذى منَّ على هذا العبد بكل هذا الخير والإحسان حبا منه عز وجل وفضلا منه تعالى على عبده الذى خلقه وهيأه ليكون خليفة له فى أرضه وهذه منة عظيمة يجب أن يشكر الله عليها إلى يوم الدين.

---

(١) هذا الحديث متواتر ومتفق عليه (نقلا عن د. حسن الشرقاوى: الشريعة والحقيقة، ص٢٧١.

ويجمل بنا أن نذكر هنا بعض المعانى المختلفة للإحسان كما وردت فى القرآن الكريم[1]:

• الإيمان إحسان:

يرتبط الإيمان بمعنى الإحسان برباط وثيق، وقد ورد هذا المعنى فى قوله تعالى:

﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) ﴾

[المائدة: ٨٥].

• الصلاة إحسان:

الصلاة تطهير للنفس وإيثار، والإيثار إحسان، فالصلاة تقرب إلى الله فهى إحسان، والصلاة على النبى ﷺ إحسان تصديقا لقوله تعالى:

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ... (١٦٠) ﴾

[الأنعام: ١٦٠].

• التهجد إحسان:

الذى يقبل على طريق الله، ويعبده فى صدق، ولا يأمل فى سواه، فهو محسن، ولقد ورد الإحسان بمعنى التهجد وذلك فى قوله تعالى:

﴿ ...إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ أى متهجدين.

[الذاريات: ١٦].

• التصدق إحسان:

والإحسان تصدق على الفقراء والمحتاجين وإنفاق المال، وتزكية النفس بأعمال البر والصدقات كما ورد فى قوله تعالى:

(١) د. حسن الشرقاوى: الشريعة والحقيقة.

﴿ ...وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) ﴾

[البقرة: ١٩٥].

• الخدمة إحسان:

والإحسان يعنى الخدمة للوالدين والبر بهما، كما أنه مساعدة للمحروم، ومعاونة المريض والمحتاج كما ورد فى قوله تعالى:

﴿ ...وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ... (٨٣) ﴾

[البقرة: ٨٣].

• العفو إحسان:

ويقصد بالإحسان معنى العفو عن الخاطئين، كما قال الله تعالى:

﴿ ... وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾

[آل عمران: ١٣٤].

• المجاهدة إحسان:

والإحسان بمعنى المجاهدة، أى تسابق النفس فى سبيل الله والجهاد فى طاعة الله كما ورد فى قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾

[العنكبوت: ٦٩].

• الطاعة إحسان:

والإحسان بمعنى الطاعة وذلك فى قوله تعالى فى أنواع الطاعة:

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ... (٢٦) ﴾

[يونس: ٢٦].

• الإخلاص إحسان:

والإحسان يعبر عن معنى الإخلاص، وهو العلامة المميزة لصدق العبد مع ربه، ورجوعه إليه شريعة وحقيقة والمخلص لا يقدر عليه الشيطان مصداقًا لقوله تعالى:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾

[ص: ٨٢، ٨٣].

• العطاء إحسان:

أن تعطى إيثارًا واحتسابًا عند الله إحسان، والإحسان بمعنى العطاء أى إيثار الغير على النفس وتفضيله مع حاجتك إلى ما تعطيه، فهو بهذا المعنى بذل وتضحية تشبها بالله تعالى وقد ورد هذا المعنى فى قوله تعالى:

﴿...وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ... (٧٧)﴾

[القصص: ٧٧].

• النجدة إحسان:

أعمال البر إحسان، ونجدة الضعيف والمظلوم إحسان، فالنجدة إحسان إلى المحتاج والمظلوم لقوله تعالى:

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ ... (٧)﴾

[الإسراء: ٧].

• المعرفة إحسان:

المعرفة توحيد لله ومعرفة مقامه تعالى فهو الغنى على الحقيقة.. المحسن على الدوام.. فبالمعرفة يميز العبد بين مقامه كعبد ومقام الله كإله.

ويقرن الإحسان بالمعرفة والعلم، فعندما يحسن الإنسان يحظى بمعارف لم تكن عنده، وبعلوم تقذف إلى قلبه، فيغدو عارفا بثوابه كثمرة لإحسانه فيشعر بحلاوة معرفته منة من الله وفضلا.. مصداقا لقوله تعالى:

﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠) ﴾

[الرحمن: ٦٠].

• **شكر الله:**

يقصد فى اللغة بالشكر عرفان الجميل ونشره[1]، والشكر من الله لعباده هو ثوابهم على أعمالهم الصالحة، وأما شكر العبد لنعمة الله فيكون بنشرها ومعرفتها كما ورد فى قوله تعالى:

﴿ ...وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ... (١٩) ﴾

[النمل: ١٩].

وقوله تعالى:

﴿ ...وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ... (١٢) ﴾

[لقمان: ١٢].

وأما أن يكون الشكر من الله فقد ورد ذلك فى قوله تعالى:

﴿ ...وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨) ﴾

[البقرة: ١٥٨].

وقوله تعالى:

﴿ ...وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (١٤٧) ﴾

[النساء: ١٤٧].

ويربط الله سبحانه وتعالى الشكر بالصبر فى قوله:

﴿ ...إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) ﴾

[إبراهيم: ٥].

---

(١) معجم ألفاظ القرآن، ص ١٣.

كما عرفنا الله سبحانه وتعالى أن الشكر مقام عال لا يقدر عليه إلا القليل من الناس وذلك ورد فى قوله تعالى:

﴿ ...اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) ﴾

[سبأ: ١٣].

والشكر عند الإمام القشيرى على أقسام إما شكر بالبدن فلا تستعمل جوارحك إلا فى طاعته، وإما بالقلب فلا تشغل قلبك بغير ذكره ومعرفته، وشكر باللسان وذلك ألا تستعمله فى غير ثنائه ومدحه وشكر بالمال وهو ألا تنفقه إلا فى رضاه ومحبته[١].

يرى الإمام القشيرى أن ثمرة الشكر وأمارته الزيادة فى النعمة وذلك تصديقا لقوله تعالى:

﴿ ... لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ... (٧) ﴾

[إبراهيم: ٧].

والشكر ثمرة من ثمرات التقوى والإيمان، وهو سلوك عظيم يتطبع به الإنسان المؤمن فى البداية حتى يصبح طبعا وأمرا مألوفا لديه.. فهناك علاقة بين الظاهر والباطن[٢] والقلب والجوارح.. والنفس والبدن، فكل موضع يظهر فى القلب.. له آثار على الجوارح الظاهرة من يد.. وعين.. وسمع.. وبصر.. ولسان، فلا تتحرك هذه الجوارح إلا بمشيئة القلب.. ووفق غرضه.. وأمره، وكل فعل يجرى على الجوارح، قد يرتفع منه أثر إلى القلب.

فإذا أردنا اكتساب صفات مكارم الأخلاق مثل السخاء، والعفة، والحلم، والتواضع مثلا فلابد فيها جميعا فى البدايات من الممارسة والتقليد والمحاكاة لأفعال أصحاب الكمالات الأخلاقية، حتى يصير طبعا فى نفسه، ولا علاج للإنسان من أمراضه إلا بهذا الطريق وبتلك المجاهدة.

(١) د. حسن الشرقاوى: ألفاظ الصوفية ومعانيها، ص٢٠٨.

(٢) الإمام أبو حامد الغزالى: إحياء علوم الدين، ج٨، ص١٤٤٦.

وعلى الإنسان ألا ييأس من نيل هذه المرتبة، كما أنه لن ينالها إلا بالمكابدة. والمعاناة ومخالفة النفس يوما بعد يوم، إذ أنه مطالب بتطهير النفس وتزكيتها من الآفات والانحرافات، وتحليتها بالأعمال الحسنة، وذلك لن يتحقق إلا بمداومة الصدق، فلن يكتسب صفة طيبة بعمل يوم واحد، ولن يتأخر عن اكتسابها بعصيان يوم واحد، ولكن المهم هو الاستمرار بلا توقف، والمداومة بلا خمول.

كما هو الحال فى أى صفة من صفات الأخلاق.. كذلك الأمر بالنسبة إلى الشكر، فإن الإنسان الذى يسير فى طريق الله ويتمتع بإيمان قوى ويحس ويتمتع بنعم الله عليه ويشهد بآثارها فى كل لحظة فإنه يشكر الله سبحانه وتعالى فى كل لحظة.

كما أنه لا يكتفى بشكر الله فى السراء فقط وإنما يشكره تعالى فى الضراء أيضا ويحمده لتلطفه به وحفظه من هلاك قد يودى بحياته ودائما يقول الإنسان المؤمن فى إيمان وصبر وخشوع كبير:

«اللهم إنى لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه».

إن هذا الإنسان المؤمن الصابر الشاكر لله فى السراء والضراء، الدائم لذكر الله الحافظ لنعمة الله عليه، الراضى بقضاء الله وقدره، القانع بحياته، المسلم أمره لله المؤمن بأن كل ما يأتيه هو خير لأنه من عند الله وأن الله لا يرضى له إلا الخير ولا يحقق له إلا السعادة، ولا يهيئ له إلا العيشة الراضية، هذا الإنسان الذى لم ينس الله أبدا فإن الله لا ينساه، فإنه تعالى يمن عليه بالنعم والفيوضات، فلقد ابتلاه فوجده صابرا، أنعم عليه وجده حامدا، أفاض عليه بفضله وجده شاكرا، فإن ثمرة هذا الشكر أن يمن الله عليه بالعطاء والفيض الإلهى والنعمة الشاملة والرحمة الواسعة والحنان البالغ فينعم ويرضى ويهنأ بالأمن النفسى والطمأنينة القلبية ويسعد فى طريقه آملا حب الله الدائم ولقاء الله حتى يفوز الفوز العظيم.

ونجد أن شكر الله ناتج عن حب العبد لله العلى العظيم فهو يشهد نعمة الله عليه وحبه له فيسير فى طاعة الله ذاكرا له على الدوام شاكراً له على مرور الأيام، شكرا نابعا من القلب فتتأثر به جوارح الجسد كله ويتفاعل معه الكيان كله.

• محبة الله:

الحب والمحبة ميل النفس إلى ما تراه أو تظنه خيرا، أما محبة العبد لربه فهي تعظيم له[1]، وطلب للتقرب إليه وذلك بطاعته، كما أن الله يحب عباده المخلصين برضائه عنهم، وإحسانه إليهم ومثوبتهم على أعمالهم.

وقد وردت آيات قرآنية عديدة في معنى المحبة وذلك في قوله تعالى:

﴿ ... إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ... (٣١) ﴾

[آل عمران: ٣١].

وقوله عز من قائل:

﴿ ... فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ... (٥٤) ﴾

[المائدة: ٥٤].

وقال الإمام الجنيد: المحبة ميل القلوب ومعنى ذلك أن يميل القلب إلى الله وإلى ما له من غير تكلف.

ويرى الإمام الغزالي أن أسعد الناس حالا في الآخرة، أقواهم محبة الله، فهو سعيد بانتقاله من الدنيا، سعيد بلقاء محبوبه ويقول في ذلك:

ما أعظم النعيم الذي يبقى فيه المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه، واكتملت بذلك رؤيته على الدوام ومشاهدته على الاستمرار، من غير حجب أو كدر، وبدون ألم أو حزن، وبلا خوف أو وجل وهذا النعيم على قدر قوة هذا الحب، فكلما زادت محبة الإنسان لله تعالى، كلما زادت اللذة التي يذوقها والسعادة التي تفاض عليه في العالم الآخر.

---

(١) معجم ألفاظ القرآن، ج١، ص٢٣١.

ويقول الشبلى رضى الله عنه[1]: أهل المحبة شربوا كأس الوداد، فضاقت عليهم الأرض والبلاد وعرفوا الله حق معرفته، وتاهوا فى عظمته، وتحيروا فى قدرته، وشربوا من كأس حبه، وغرقوا فى بحر أنسه، وتلذذوا بمناجاته.

وفى معنى المحبة تقول رابعة العدوية:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه

هذا لعمرى فى القياس بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته

إن المحب لمن يحب مطيع[2]

والمحب على هذا الأساس قليل الاختلاط بالناس، كثير الخلوة بالله تعالى، دائم التفكير، ظاهره الصمت، لا يحزن إذا أصيب ببلاء، ينظر إلى الله فى خلوته، ويأنس به، ويناجيه ولا ينازع أهل الدنيا فى دنياهم[3].

وأعلى درجة فى الحب هى ميل القلب إلى الله، وبهذا المعنى يكون الحب هو الموافقة لإرادة الله، والسير فى طريق الله، والطاعة فيما أمر، والابتعاد عما نهى، والرضا بما حكم وقدر، ويحوى ذلك معنى الإيثار والتضحية ونكران الذات.

فبالمحبة يؤثر الإنسان ما يحب على نفسه، فهى سعادة عند الإنسان، واسترسال مع الله بحيث لا يبقى للحبيب حظ من شهوة أو رغبة فى متاع زائل سواء كان ماديا أو حسيا، ومن ناحية أخرى ليس لهذه المحبة من سبب ظاهر جلى أو علة واضحة، وإنما هو حب لله بلا سبب مادى.

وهذا الحب إنما يكتسبه الإنسان فى الحياة الدنيا، وبشرى له فى الآخرة،

(١) الإمام الغزالى: مكاشفة القلوب، ص٢٢ وما بعدها.
(٢) المرجع السابق.
(٣) د. حسن الشرقاوى: ألفاظ الصوفية ومعانيها، ص٢٨٢.

وحب الله يمتاز به كل مؤمن لا ينقطع عنه أبدا لأن الحبيب هو أصل المعرفة، وإذا زاد حب الإنسان لله انتهى به إلى العشق، وفى العشق يقطع الإنسان كل علاقة مع غير الله بإخراجها من القلب تماما.

فالذى يطهر قلبه من شواغل الدنيا وهواها، وشهواتها ورغباتها - وذلك بعد رسوخ معرفته لله واستيلاء هذه المعرفة على قلبه كطريق موصل لكماله الأخلاقى والإنسانى - يمكن أن تتولد المحبة فى نفسه وقلبه جميعا، لأن المحبة والمعرفة متلازمان فإذا عرف العبد ربه كان حبيبا لله.

كما أن الإنسان إذا أحب ربه، فهو فى أول درجات معرفة الله، ثم عن طريق الحب الإلهى يعرف غيره من الأفعال والأعمال فيشهد أن لا إله إلا الله يقينا وحقا(1).

يقول أحد الصوفية عندما سئل: بما عرفت ربك؟ فقال: عرفت ربى بربى، ولولا ربى ما عرفت ربى.

إذن الحب الصوفى هو أساس من الأسس النفسية لاستقامة العبد فى الدنيا والآخرة، ومن ثمراته أنه لا يصاب المحب بخوف، ولا قلق ولا اكتئاب ولا زمت ولا يفكر إلا فى الله وبالله، فهو تائب عن هواه وشهواته، صابر على ما يبتلى به ويمتحن، زاهد فى طلبات النفس خائف من بعد حبيبه، راج فى إقباله ووصله ووصاله.

وهذا الحب إنما هو تخلية من الأوصاف المذمومة، وتحلية بحب الله وهو أجمل الصفات المحمودة.

لذلك كان الطريق الذى رسمه تعالى للصحة النفسية يتحقق بالمحبة التى غايتها الإعراض عن السيئات، واتباع الحسنات، وفعل الطيبات من أمر بمعروف ونهى عن المنكر.

---

(1) الغزالى: مكاشفة القلوب، ص٢٢ وما بعدها.

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) ﴾

[الأعراف: ١٩٩].

ولن يتحقق ذلك كما أشار الرسول ﷺ إلا بأن يصل الإنسان من قطعه ويعطى من حرمه، ويعفو عمن ظلمه.

فالغاية من المحبة تحقيق الصحة النفسية للإنسان فى الدنيا والآخرة، وذلك برد الكراهية بالمودة، ومقابلة الاعتداء بالصفح الجميل، ومجابهة الظلم بالعفو، وإذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة من السمو الأخلاقى والصفاء النفسى، يستطيع أن يحيل الظلام نورا، والشر خيرا، لأن فى الحب قوة سحرية تمزق غيوم الأحقاد، فتزال الغمة عن القلوب، ويهتدى الإنسان إلى سبيل الخير والرحمة فيعين الضعيف ويعول المريض، ويزكى نفسه بأعمال البر والمعروف ويبتعد عن غواية الشيطان، ويأمن من مكائده ووساوسه، ويغالب أهواء النفس الأمارة، وهنا يرضى الله عنه ويحبه.

فالمحبة إذن ارتفاع عن الشهوات وارتقاء فوق الحاجات المادية، المحبة انتقال من الحب الضيق المقيد إلى حب أشمل وأكثر إثمارًا، وهو حب فى الله، ومن الله، وبالله، ولله.

سأل شاب أحد العارفين[1] عن علامة المحبة لله تعالى به؟

فقال: إن درجة المحبة لله رفيعة.

قال الشاب: أحب أن تصفها لى.

فقال: إن المحبين لله تعالى شق لهم عن قلوبهم فأبصروا بنور القلوب إلى جلال عظمة الإله المحبوب، فصارت أرواحهم روحانية، وقلوبهم حجبية (نورانية)، وعقولهم سماوية، تسرح بين صفوف الملائكة الكرام وتشاهد تلك الأمور باليقين والعيان فعبدوا الله مبلغ استطاعتهم له لا طمعا فى جنته، ولا خوفا من ناره.

---

(١) عبد الله اليافعى ـ روض الرياحين، ص٤٥.

فشهق الشاب شهقة فمات رحمه الله تعالى عليه، فجعل الشيخ يقبله ويبكى ويقول:

هذا تضرع الخائفين، هذه درجة المحبين، وهذه روح حنت، فأنت، فسمعت، فاشتقات فشهقت، فماتت.

هذا هو الحب الحق لله لأنه أساس الإخلاص، والإنسان هنا لا يخاف فيه من الانتقال إلى الدار الآخرة، بل يسعى لها سعيها وهو مؤمن، ويشتاق للقاء الله.. فإذا أتى أمره تعالى كانت نفسه سعيدة مطمئنة راضية لأنها ستتصل إلى الأبد بخالقها وحبيبها، وهذا منتهى غاية المحبين.

والمؤمن يشعر بنعمة الله عليه ويلسمات عطفه وحنانه فى كل شىء حوله، ويرى فى كل ذرة فى الأرض أو فى السماء منحة من الله له، تيسر له معيشته وتعينه على القيام برسالته فى الحياة، أنه يرى نعمة الله فى هبة الريح، وسير السحاب، وتفجر الأنهار، وبزوغ الشمس، وطلوع الفجر، وضياء النهار، وظلام الليل، وتسخير الدواب، وإنبات النبات.

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ... (٢٠) ﴾

[لقمان: ٢٠].

كما أن ثقة المؤمن بالله عظيمة، وإخلاصه تام، وعلمه مقرون بالعمل لا يعرف قلبه إلا الطمأنينة ولا يستشعر إلا الأمن والسكينة تصديقا لقوله تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ...(٤) ﴾

[الفتح: ٤].

وإن بين المؤمن وبين الله رباط مكين، وعروة وثقى لا حد لها، وحب لا نهاية له ورضا لا رضا بعده.

والإنسان المؤمن يجد سعادته فى خلوته، وهناءه فى وحدته حيث يخلو إلى نفسه، يناجى ربه، ويشكو همه إليه، يشكره على نعمته، فهو يناجيه فى فرحه

ويلجأ إليه فى حزنه، ويتغنى بالدعاء له والثناء عليه والتسبيح والتقديس له عز وجل ويشعر بأن كل ما فى الكون من مخلوقات نغمات مميزة تشترك معه فى التسبيح لله عز وجل.

كما أنه يحس أن هناك ألفة ومودة بينه وبين الطبيعة وجميع المخلوقات الأخرى.. هناك صداقة بينه وبين الكون، أنه يفهم لغة الكون، والكون يفهم لغته، وهذه اللغة المشتركة بينهما هى التسبيح والشكر لله والإحساس بآثار حب الله فى الوجود كله.

ومن خلال هذا الحب العظيم لله سبحانه وتعالى، يعبد الإنسان المؤمن الله عز وجل ويتفانى فى حبه إلى أقصى درجات العبودية، فهو يعبد الله، ويتقى الله فى معاملة غيره من الناس حبا لله العلى الكبير، وليس طمعا فى جنته وخوفا من ناره.

هذا بالإضافة إلى أن هذا المؤمن المحب لله العلى العظيم. لا يسأل إلا الله، ولا يطلب العون إلا من الله، ولا يبث حزنه إلا لله، ولا يلجأ إلا إلى الله، ولا يعبر عن فرحته إلا لله بما أفاض عليه من فضل عظيم، وعطف عميم، ونعيم مقيم.

كما أنه دائما يطلب من الله عز وجل أن يصقله، ويهذبه، ويقومه، ويؤدبه، ويجعله فى الصورة التى يرضى بها عنه، فهذه المناجاة التى بين العبد وربه تنبع من حب الله لعبده المؤمن، وحب العبد لخالقه رب العالمين مما يدخل السعادة فى نفس هذا الإنسان المؤمن فيشعر بالأمن والأمان، وينعم بالطمأنينة القلبية بذكره الله، ويهنأ بالسعادة الروحية التى تسرى فى كيانه كله فيحس بنشوة كبرى ولذة عظمى لا مثيل لها فيسعد بطريقه الذى يسير فيه وبحبه الكبير الذى أصبح كل حياته حيث يحيا به وله.

هذه هى بعض السبل والأسس الإسلامية والمسالك التى يسلكها العبد فى طريقه إلى الله آملا فى حبه، طامعا فى رحمته، ناشدا رضاه.. ومما لا شك فيه أن من يسلك هذا الطريق سينعم بالأمن النفسى، والهدوء القلبى، والسكينة والطمأنينة مما يجعله يعيش سعيدا فى دنياه مطمئنا على آخرته، باحثا عن طريق النور، طالبا بشرى الله عز وجل له.

* إن بدايتنا من الله.. ونهايتنا إلى الله..

* وما بين البداية والنهاية هو طريق ما يسعى إليه الإنسان.

* إما أن يكون طريقا من نور، وإما أن يكون طريقا من ظلام.

* إما أن نكون أولياء لله.. وإما أن نكون أولياء للشيطان.

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾

[النجم: ٣٩].

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾

[الشورى: ٢٠].

إن الله لم يخلقنا عبثا. بل خلقنا لرسالة ولواجب دينى.فإذا كان الله القادر الحى القيوم لم يخلقنا عبثا فكيف نجعل الطريق ما بين البداية والنهاية عبثا ولهوا.

إن الله خلق آدم ليكون خليفته فى الأرض، فلا يمكن أن نكون خلفاء لله فى الأرض إلا إذا ارتقينا بسلوكنا نحو الله.. نحو الأعلى.. وهنا لا يتركنا الله بل الإنسان الذى يختار طريق النور.. وطريق الحق.. طريق الهداية يكافئه الله ويمن عليه بالأنوار الإلهية.. والعطايا.. والهبات.. ويدخل فى قلبه الأمن والسكينة وبذلك يكون هذا الإنسان غنيا بنفسه الحلوة الشفافة النورانية الروحية الصافية وذلك كله بفضل الله ورحمته.

* فلا سبيل لنا إلا الإيمان بالله.

* ولا طريق لنا إلا طريق الله.

* ولا ثقة لنا إلا الثقة بالله.

* ولا نور لنا إلا بنور من الله.

* ولا أمن ونعيم لنا إلا فى حب الله.

* * *

الإيمانُ هو الأمانُ، والأمانُ هو السلامُ، والسلامُ هو الرضا، والرضا هو الحبُّ، والحبُّ هو العَطاءُ، والعطاءُ هو الخَيرُ حبًّا لله ولمَرضَاة الله وَحْدَه.

وخَيرُ منْ نَقتَدي بهِمْ هم أنبياءُ الله، فَقَدْ عاشُوا في زَمَان أصْعَبَ من هذا الزمان، لأنّهم كانوا يُغَيِّرُون العقيدَة، يُعيدُونَ بناءَ النَّفس مِنَ الدَّاخلِ لتكوينِ أفرادِ ذَوي مَبَادئَ وقيمِ إنسانيّة نَبيلة، وهذا هو أصعبُ شَيْء . . بناءُ النَّفسِ مِنَ الدَّاخلِ وتَغْييرُ ما تَطَبَّعَ بِهِ الإنسانُ ويتطلبُ جهادًا وصَبرًا وإيمانًا وحُبًّا لله . . .

وأنْ يكونَ القانونُ الذى يَحْكُمُ حَيَاتَنَا هو حبُّ الله . . .

حبٌّ يجرى فى دِمَائنا وعُرُوقنا . . . حبٌّ نحيَا بِهِ ولَهُ . . .

وختامًا أُوَجِّهُ رسَالَتِى إلى كُلِّ قَلْبٍ إنْسَانِىّ:

مَنْ يَجْعَلِ الإيمانَ أنيسَهُ، والتَّقْوى جَليسَهُ، والقرآنَ العَظيمَ خُلُقَهُ، والصِّرَاطَ المستَقيمَ طَرِيقَهُ، والصَّلاحَ غَايَتَهُ، والخَيرَ هَدَفَهُ . . . كانَ لهُ الأمنُ والأمَانُ، يحيا حَياةً آمنَةً مُطْمَئنَّةً فيها النورُ والهُدَى والسَّلام.

وسُبْحَانَ الله هو وَحْدَه واهِبُ السَّلامِ

اسمُهُ السَّلامُ . . .

منْهُ وَحْدَهُ السَّلامُ . . .

وبِهِ وَحْدَهُ السَّلامُ . . .

ولَهُ وَحْدَهُ السَّلامُ . . .

قال تعالى:

﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٨) ﴾

[آل عمران: ٨].

الخاتمة

•••••••

لقد استهدفت خلال رحلة إعداد هذا الكتاب التعرف على قطرة فى بحر الشريعة الإسلامية التى يمكن أن ترشدنا فى فهم النفس وعلاجها فهما طيبا، كما يمكن أن ترشدنا فى القانون والاجتماع والأخلاق والاقتصاد.. إلخ من الجوانب والعلوم الفريدة والمعارف المضيئة التى يحتويها القرآن الكريم المعجز.

وكلما استحدثنا علما وظننا أننا اكتشفنا جديدا نجده مسطورا فى الناموس الإلهى الذى بصرنا به تعالى من قبل.. وأرشدنا إليه فى آياته البينات.

ولسنا فى حاجة إذن لنزعم أننا نخترع جديدا ونخلق معدوما ونكشف علوما اجتماعية وأخلاقية أو نفسية.. أو نشرع قوانين عادلة لم يذكرها القرآن الكريم.. فذلك الكتاب لا ريب هدى للمتقين.

لقد كان هدفى هو محاولة التعمق فى بحار النفس الإنسانية ومحاولة فهمها فهما مؤسسا على القرآن الكريم مستمدا من الله سبحانه وتعالى.. خالق الكون والوجود.. واهب الحياة.

ولقد قال رسول الله ﷺ: من عرف نفسه فقد عرف ربه. فمعرفة النفس تؤدى إلى معرفة الله سبحانه وتعالى بما يحقق الأمن النفسى للإنسان الذى هو غاية من أعظم الغايات الإنسانية.

وإذا تعرف الإنسان على خالقه وفاطره، وعمل بأوامره وانتهى عما نهى عنه، فإن ذلك الإنسان هو الجدير بأن يكون خليفة الله فى أرضه.

فهـذا الكتاب هو مـحاولة للسـير فى الاتجـاه الصحيح فى دراسـة النفس، واختيار المنهج السلـيم فى تفهم الدوافع الإنسانية، وقد استقـينا مادته الأصلية من القرآن الكريم، والسنة المحمدية، واجتهادات الأئمة.

إن ما كتبته.. وأكتبه.. إنما هو قطرة من بحار المعارف.. ورشفة من مناهل العلوم.. ولطيفة من أنهار المنن.. ودقيقـة من كنوز الأسرار.. ورقيقة من مفاتيح الحقائق.

أقول وقـد أسلمت قلمى واتجهت بكليـتى للذى خلقنى.. إننى بالرغم من المجهود الكبير الذى بذل بفضل الله فى كـتابة هذا الكتاب لم أستطع أن أترجم ما أحس به.. أو أعبر عن الصورة الحقيقية التى بداخلى كما أعيشها ـ فإن الإحساس الذى بداخلى أعظم بكثير من الكلمات والعبارات التى سطرت..

إن إحســاسى بما لله الواحد القـهار من فـضل عظيم.. وحب كبـير، وبما لكلمـاته المتمـثلة فى القرآن الكـريم من أثر عظيم وأساس مـتين فى تحقـيق الأمن النفـسى والسعادة الـروحية الكاملـة للإنسان أكبـر وأعظم من أى حرف أو كـلمة احتوتها هذه الصفحات.

يا أيتهـا النفس الظامئة.. المتـعطشة إلى الصفـاء.. الباحثـة عن الأمان.. الساعية إلى طريق النور.. أعرف أنك حائرة.. تائهة.. تتساءلين أبعد كل هذا.. أنت عاجزة عن ترجمـة الإحساس الحقيقى والشعـور الواقعى النابع من كيانك.. أهدئى واسكنى واطمئنى فـإن الأمل فى الله كبير.. والثقـة بالله بلا حدود لها.. كيف يضيع الأمل والله مـوجود، وكيف يتوه الإحســاس والله عليم به.. وكيف تبحـثين عن الأمن والأمان وهو مـلموس فى آيات الله البـينات، ومحـسوس فى الإيمان بالله وآثار حب الله الكبـير.. وآيات قدرته الكبـرى شاهدة على ذلك فى الوجود كله.. بدايته ونهايته، ولمسات حبـه وحنانه العظمى ناطقة بذلك فى كل

زمان ومكان.. فى كل لحظة.. عبر العصور والأجيال.. فى الحياة، وما بعد الحياة..

أتسألين عن السعادة وهى قريبة منك.

يا أيتها النفس كفاك حيرة.. وكفاك ضياع وكفاك تساؤلات..

إن سعادتك فى إيمانك بالله.. وإيمانك بالله نابع من حبك لله.

وحبك لله يسكن فى قلبك، ويشع فى روحك، ويحيا بين جوارحك وكيانك كله فيثمر السكينة ويبعث أنوار الطمأنينة والأمن والأمل والرضا فتنعمين وتسعدين بهذا الطريق الذى لا طريق غيره ولا بديل له.. إنه طريق الحق.. طريق النور.. طريق الأمن النفسى.. طريق السعادة.. إنه طريق الإيمان..

إن أجمل ما فى الحياة الإيمان بالله.. وأعظم ما فى الوجود حب الله.. وأروع ما فى الدنيا السير فى طريق الله.. وأحلى ما فى النفس الإنسانية التحلى بما جاء به القرآن من خلق كريم، وأدب حميد، وسلوك عظيم فتنعم بالأمن، وتهنأ بالسكينة، وتسعد بالفيض الإلهى العظيم فى نور القرآن الكريم.

إن القرآن.. كتاب الله المبين هو الهدية العظمى التى وهبها الله تعالى لعبده الذى خلقه فى أحسن تقويم، والنعمة الكبرى التى أنعم بها على العالمين.

إنه السعادة الحقة للباحثين عن السعادة.

إنه رحمة وشفاء للمؤمنين.. إنه الحب الأصيل والوفاء الفريد للمحبين والعاشقين المخلصين..

إنه العطاء الغزير للمحرومين.. والمصباح المنير للتائهين.. والأمان الكبير للضائعين فى متاهات الحياة يتلمسون الطريق..

إنه الحياة الحقيقية إلى الذين ينشدون الهدوء والأمن النفسى، ويطلبون الطمأنينة القلبية، ويبحثون عن السعادة الروحية الكاملة..

إنه رحلة عميقة تهز القلب والنفس والروح والوجدان والكيان كله، وتسعد المشاعر والأحاسيس.. رحلة فى رحاب الله بين السماء والأرض.. تنقلك فى بساط نورانى برفق وحنان بالغ من مكان إلى مكان.. ومن قصة إلى أخرى.. وتصعد بك من نور إلى آخر حتى أنك أيها العبد الصالح تفيض نورا.. وترى كل ما حولك نورا عليه اسم الله.. لا إله إلا هو..

إنه نفحات ربانية يعجز الإنسان عن وصفها والتعبير عنها.. تنطق بنفسها وتشهد بآثارها على فضل الله العظيم، ومنته الكبرى، وآياته الجليلة المحكمة.. وكلماته التى لا تنفد أبدا قال تعالى:

﴿ ...كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ ﴾

[هود: ١].

إنه كتاب توحيد وإيمان.. وكتاب تشريع وسنن.. وكتاب تأمل وعبادات.. وكتاب بلاغة وأدب.. وكتاب فيه أصول كل العلوم، وفيه الحكمة والموعظة الحسنة، وفيه كل ما يتطلبه ويحتاج إليه الإنسان فى نشأتيه الدنيوية والأخروية.

إنه الأخلاق القويمة.. والآداب الحميدة التى يجب أن نتحلى بها ونتزود بها فتكون عونا لنا فى الطريق داعين الله أن يوفقنا فنسير فى الطريق راجين أن نكتب من الناجين فنفوز الفوز العظيم.

إنه طريق طويل.. ولكنه جميل.. طريق نتزود به من معرفة إلى أخرى، ومن حكمة إلى أخرى.. إنه المعرفة التى تضىء القلوب والحكمة التى تحيى النفوس.. إنه طريق تصعد فيه أيها العبد الصالح خليفة الله فى الأرض إلى أعلى حيث الحب والسكينة والطمأنينة والأمان.

• أيها الإنسان..

إن كتاب الله هو أنيسك فى وحدتك، وجليسك فى غربتك، ونورك فى طريقك، ومرشدك فى رحلتك، وحكمتك فى حياتك، واطمئنانك فى حيرتك، وأمنك عند ضياعك، وغذاؤك الروحى، وشفاؤك البدنى، وسعادتك فى دنياك وآخرتك، وهو ماضيك وحاضرك ومستقبلك، وثروتك فى الحياة.

• أيها القارئ..

إنه كتاب الله الوحيد.. فتمسك به

هو السلوك الفريد.. فاتبع مسلكه

هو الأدب الحميد.. فتأدب به

هو التهذيب القويم.. فتهذب به

هو الخلق القويم.. فتحلى به

هو المثل الأعلى والخير الفاضل.. فاقتدى به

وأخيرا.. وليس هناك آخر عند الحديث عن كلمات الله وآياته البينات.. فإن الحديث عن القرآن الكريم قد يطول ويطول.. ويحتاج إلى أيام أخرى بعد أيامنا.. وسنوات أخرى بعد سنواتنا، وعمر آخر بعد عمرنا..

إنه حديث لا تستطيع أن تحتويه الصفحات ولا أن تشمله أيام عمرنا كله..

إنه حديث بدأ ولم ينته بعد.. حديث عن الحياة.. وما بعد الحياة.. إنه حديث له بداية وبلا نهاية لأننا كلما نصل إلى النهاية نجده مليئا وفياضا بالعلوم النادرة، والجواهر الثمينة، والمعارف الدرية مما يجعلنا نقف فنبحث ونتأمل ونتدبر

فى آيات الله الكبرى ونحاول أن نرتوى من بحر الأمان الذى لا شاطئ له فنزداد حبا لله وإيمانا به تعالى.

وفى البداية والنهاية.. هناك ومضة نور نحتاج إليها تضىء لنا رحلتنا فى الحياة، وكلمة حق نؤمن بها، ومقولة عدل مليئة بلمسات الصدق والإخلاص يجب أن تقال وهى:

إن الإقبال على طريق الله هو الموصل للسكينة والطمأنينة والأمن، وبه تتطهر النفس من نقائصها.. وتبتعد عن اغترارها وغرورها فتسلم من أمراضها وآفاتها.. وفى طريق الله تسير النفس مطمئنة تكتنفها السكينة والطمأنينة.. وتنعم بالأمن والأمل..

إن كتاب الله.. القرآن الكريم، هو زاد المؤمن وعدته وعتاده.. يعرفه بنفسه ويغذيه بما يحتاج إليه فى رحلة الحياة

ويتضمن القرآن الكريم من المعارف ما تضىء للمؤمن نور الحياة كما تحثه على التأمل والنظر وتبين له الطريق الواجب الاتباع، وما هو السبيل للقربة من الله ليحظى بنعيم الدنيا والآخرة. والنعيم حقا يكون فى تحقيق الأمن والسكينة.

وفى العصر الحالى فإننا لا نحتاج إلى التفكير فى حلول لمشاكلنا المختلفة التى نعانى منها.. فالقانون الإلهى، والمرجع العظيم.. القرآن الكريم جامع.. شامل.. واضح.. صالح للتطبيق فى كل زمان ومكان.. ميسر للعمل به وما علينا إلا أن نتأمل نصوص القرآن الكريم، وجواهر علومه ونطبق ما جاء به نصا وروحا. وسنعلم إذا صفت النفوس.. وصدقت العقول.. وتطهرت القلوب.. **أنه ليس هناك** أصدق من الله حديثا..

﴿ .ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين(٨٩) ﴾

[النحل: ٨٩].

وبعد .. اللهم نسألك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا.. ونقاء نفوسنا وجلاء همنا .. وضياء أبصارنا .. اللهم آمين.

* * *

تم بحمد الله

المؤلفة في سطور

•••••••

- **ناهد الخراشى**
- تخرجت من كلية الآداب - قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية (شعبة الفلسفة) - جامعة الإسكندرية عام (١٩٧٦م).
- دبلوم دراسات عليا فى علم النفس الإسلامى من جامعة الإسكندرية.
- تهتم بالدراسات النفسية فى القرآن الكريم، والسيرة النبوية، وقد أعدت مجموعة من الأبحاث والدراسات فى هذا المجال كما نشرت لها عدة مقالات فى ذات الموضوع.
- تهتم بالبحث فى العلوم الإسلامية والاجتماعية والسلوكية التى تربط بين الدين والحياة.
- عضو فى نادى الأهرام للكتاب، ولقد نشر لها العديد من المقالات فى نشرة المعلومات التى تصدرها وكالة الأهرام للتوزيع، كما نشر لها الكثير من الموضوعات الإسلامية فى بعض الصحف مثل: الأهرام - الأخبار - جريدة عقيدتى - مجلة التصوف الإسلامى - مجلة النور الكويتية.
- عضو مجلس إدارة جمعية الإعجاز العلمى للقرآن والسنة.
- نالت جائزة نادى الأهرام للكتاب لعام ٢٠٠٢ عن مؤلفها «من نبع الدين والحياة».
- شاركت فى العديد من الندوات الثقافية.

• كتب للمؤلفة:

١ - أثر القرآن الكريم فى الأمن النفسى.

٢ - الإسلام فطرة الخلق وشريعة الوجود.

٣ - عيون لها نور من الله.

٤ - شعائر الله وأخلاقيات الحج والعمرة.

٥ - مكان فى الجنة

٦ - معا ... قلبا وعقلا.

٧ - من نبع الدين والحياة.

٨ - سلسلة الأطفال «علمتنى أمى».

صدر العدد الأول منها بعنوان:

علمتنى أمى كيف أصلى.

٩ - العدد الثانى من سلسلة علمتنى أمى بعنوان:

علمتنى أمى آداب الصوم.

كما أن للمؤلفة موقع على شبكة الإنترنت اسمه «إشراقة» WWW.ishraqa.com وهو عبارة عن صالون فكرى/ أدبى على شبكة الإنترنت يتناول مختلف فروع المعرفة التى تربط بين الدين والحياة.

للاستفسار:

بريد إلكترونى : Info: @ishraqa.com

تليفون : Tel: 010 1782082

المراجع

●●●●●●●

القرآن الكريم

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم

الشيخ إبراهيم السمرقندى - تنبيه الغافلين

الشيخ ابن القيم الجوزية - كتاب الروح

- زاد المعاد

- الطب النبوى

- مدارج السالكين

الشيخ ابن عطاء الله السكندرى - التنوير فى إسقاط التدبير

الشيخ أبو الحسن البصرى - أدب الدنيا والدين

الشيخ أبو الحسن إبراهيم

ابن أبى بكر البقاعى - كتاب سر الروح

الدكتور أبو الوفا التفتازانى - مدخل إلى التصوف الإسلامى

الشيخ أبو بكر بنانى - مدارج السلوك إلى مالك الملوك

الشيخ أبو بكر الكلاباذى - التعرف لمذهب أهل التصوف

الإمام أبو حامد الغزالى - إحياء علوم الدين

- الكشف والتبيين

	- المنقذ من الضلال
	- معارج القدس فى مدارج معرفة النفس
أبو سعيد الخراز	- الطريق إلى الله
	(تحقيق د. عبد الحليم محمود)
أبو طالب المكى	- قوت القلوب
الحارث المحاسبى	- الرعاية لحقوق الله
أبو محمد على بن أحمد	(تحقيق د. عبد الحليم محمود)
ابن سعيد بن حزم بن غالب	- الأخلاق والسير فى مداواة النفوس
أنور الجندى	- النفس
	- مفاهيم العلوم الاجتماعية والنفس والأخلاق فى ضوء الإسلام
الكسيس كاريل	- الإنسان.. ذلك المجهول
	تعريب شفيق أسعد فريد
الدكتور حسن الشرقاوى	- نحو علم نفس إسلامى
	- الشريعة والحقيقة
	- ألفاظ الصوفية ومعانيها
	- الحكومة الباطنية
	- نحو تربية إسلامية
	- المسلمون علماء وحكماء
	- الطب النفسى النبوى

حسن كامل الملطاوى - الصوفية فى أخلاقهم، فى تدبرهم للقرآن الكريم، فى جهاد النفس

- منهاج الصوفية

الشيخ جلال الدين السيوطى - الجامع الصغير

ديل كارنيجى - دع القلق وابدأ الحياة ترجمة عبد المنعم الزيادى

رمزى كلارك - إحصائية عن الجرائم فى الولايات المتحدة الأمريكية فى عام

سعيد حوى - تربيتنا الروحية

سيجموند فرويد - الموجز فى التحليل النفسى

الإمام عبد القادر الجيلانى - الفتح الربانى والفيض والرحمانى

- فتوح الغيب

- الغنية

الإمام عبد الكريم القشيرى - الرسالة القشيرية ج١، ج٢

الشيخ عبد الرءوف المناوى - الكواكب الدرية

فتحى رضوان - الإسلام والمسلمون

ك. هوك - نظريات الشخصية

مجلة المسلم - العدد١، ٢، ٣، التصوف ما له وما عليه

الدكتور محمد عثمان نجاتى
- الإدراك الحسى عند ابن سينا
- بحث فى علم النفس عند العرب
- القرآن وعلم النفس

محمد على الصابونى
- من كنوز السنة ـ دراسات أدبية ولغوية من الحديث الشريف

محمد قطب
- فى النفس والمجتمع
- دراسات فى النفس الإنسانية

محمد كمال جعفر
- الريادة الإسلامية فى علم النفس
- مجلة التصوف الإسلامى ـ العدد ٣٠ ـ ١٩٨١

محمد متولى الشعراوى
- معجزة القرآن ـ الجزء الخامس

الدكتور يوسف القرضاوى
- الإيمان والحياة
- الخصائص العامة للإسلام

* * *

محتويات الكتاب

●●●●●●●